بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة الثقلين

مجلة إسلامية جامعة

العدد الثاني والسبعون ● السنة الثامنة عشرة ● شتاء سنة ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

المراسلات والاتصالات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران ـ قم. ص.ب: (٨٩٤ ـ ٣٧١٨٥)

هاتف: ٢١٣١١ (٠٠٩٨٢٥١) فاكس: ٢٩١٣١٠٠ (٠٠٩٨٢٥١)

موقعنا على الانترنت

www.ahlulbaytportal.com

البريد الإلكتروني للمجلة: Tahrir-thaqalayn@hotmail.com

البريد الإلكتروني للمجمع: info@ahl-ul-bayt.org

رسالة الثقلين

مجلة إسلامية جامعة

- تعنى بالدراسات والنتاجات الفكرية، خصوصاً التي تصبُ في خانة الدّفاع عن حريم القرآن الكريم والنبي ﷺ الأمين، وآل بيته الطاهرين، في جميع الأبعاد المختلفة.
- تستقبل رسالة الثقلين نتاجات العلماء والمفكرين المشتملة على الشروط التالية:
  - أن تكون خاضعة لأسلوب البحث العلمي منهجاً ومنهجيةً ومضموناً.
  - أن لا تكون قد نُشرت سابقاً.
  - أن لا تكون عملاً مكرّراً، بل لا بدّ أنْ تحتوي على شيءٍ من التّجديد والحداثة. والأولويّة دائماً للدّراسات الفكريّة المستحدثة.
  - أن لا تنقص عن عشر صفحات، ولا تزيد على الخمسين، والصّفحة الواحدة تتضمّن (٢٥٠) كلمة.
  - أنْ تُرفق المقالة بخلاصة لها في صفحةٍ واحدة.
- الآراء الواردة في ما يُنشر لا تعبر بالضرورة عن رأي ا لـ مع أو ا لـ لة.
- تسلسل الموضوعات المنشورة يخضع لاعتبارات فنّية محضة.
- لا تعاد المقالات المرسلة إلى ا لـ لة، نُشرت أم لم تنشر.

محتويات العدد

□ كلمة التحرير

*** الوحدة، طريق الفوز والفلاح**

التحرير **٤**

□ من أريج القيادة الحكيمة

*** مقاربات في الوحدة والانسجام على ضوء كلمات الإمام الخامنئي** دام ظله

إعداد: قسم الأرشفة **٨**

□ دعوة الإسلام: الوحدة، الأمن، السلام، نبذ الإرهاب

*** فلسفة السلام في الإسلام، جدلية العدل والقوة والسلام**

أ. الأسعد بن علي فيدارة **٣٦**

*** مظاهر الأمن والسلام ونبذ الإرهاب في الأديان الإلهية ومسيرة الأنبياء**

الشّيخ معين دفيق **٥٨**

*** تأمّلات في الوحدة الإسلامية، إطلالة على الواقع الراهن**

الشّيخ علي ناصر **٧٩**

□ دراسات فكرية

*** أسس العلاقات، وحقوق غير المسلمين**

أ. سعيد كاظم العذاري **١٠١**

* الحكمة العملية في فكر ونهج الإمام عليّ عليه السلام، مقاربة فكرية في تجربة حكمه
..... أ. نبيل علي صالح ١٥١

* آية البلاغ، بين العلمين: الآلوسي والطباطبائي
..... السيد علي هاشم ١٩٥

* شيخ المدينة، الإمام علي بن الحسين ، قراءة في السلوكيات (القسم الثالث)
..... السيّد أمين السعيدي ٢٢٠

□ في رحاب بقية الله

* خصائص السفارة الحقة، دراسة مختصرة في وسيلة الإثبات والسفارات الكاذبة
..... بقلم رئيس التحرير ٢٥٦

المجمع العالمي لأهل البيت

المشرف العام
الشيخ محمد حسن اختري

تصدر عن
المعاونية الثقافية ـ إدارة المجلات

رئيس التحرير
الشيخ معين دقيق

مدير التحرير
الشيخ علي محسن

العدد الثاني والسبعون
السنة الثامنة عشرة
شتاء سنة
١٤٣٣هـ / ٢٠١٢ م

المطبعة: مجاب ـ طهران
☎ ٠٠٩٨ ـ ٣٦٦٧٥٢٩٥

الوحدة

طريق الفوز والفلاح

التحرير

الوحدة الإسلاميّة هي الحقيقة التي أراد الإسلام إثباتها لأتباعه عندما اختار لهم أن يكونوا أُمّةً واحدة من دون بقيّة الناس، تجمعهم الكلمة الواحدة التي تعبّر عن عقيدتهم، وعن حقيقة واقعهم، وهي: شهادة أنْ لا إله إلّا الله، وأنّ محمداً ' رسول الله.

والاختلاف بين أبناء الأُمّة الواحدة أمر طبيعيّ للغاية، لا بل نتجاوز ذلك لنقول: إنّ الاختلاف في داخل الأمّة يمكن أن يتحوّل إلى واحدة من أهمّ نقاط القوّة والغنى فيها، فضلاً عن أنّ هذا الاختلاف مهما اتّسعت دائرته، أو بلغ شأوه، فهو لا يستوجب أبداً أن يجعل منهم أُمّتين أو أكثر.

نعم، قد يحوّلهم ذلك إلى فئتين، أو إلى طائفتين، ولكن ضمن الكيان الواحد للأُمّة، فالأمّة تبقى أمّةً واحدة متماسكة، والكيان الإسلاميّ يبقى جسداً واحداً وإن اختلفت أعضاؤه في الدور والرؤية والفكر والمنهج.

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا المفهوم في قوله تعالى في سورة الحجرات:

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

كما جاءت الأحاديث النبويّة المنقولة إلينا بكثرة لتؤكّد على وحدة الأُمّة، وعلى وجوب وضع حدٍّ لكلّ ما يمكن أن يُشكّل ظاهرة انقساميّة ومَرَضيّة، حتى ولو كان الأمر على صعيد السياسة والإدارة، ونقل عنه ' أنّه قال: «**إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما**»، وفي ذلك دليل واضح على وجوب الحزم والتشدّد في التصدّي لظاهرة الانقسام والتشرذم، ولو وصل الأمر إلى حدّ استعمال السيف أو العنف؛ لما لشياع هذه الظاهرة من آثارٍ مدمّرة تُنهك جسد الأمّة وتفتّت لحمتها وتجعل منها فريسةً سهلةً لكلّ عدوٍّ أو طامع.

إنّ خطاب المولى عزّ وجل لجماعة المسلمين بأنّهم أُمّة واحدة، ورابطهم هو الإيمان بالله ورسوله مهما اختلفت ألوانهم وأعراقهم وبلدانهم وألسنتهم، هذا الخطاب رسّخ مفهوم الوحدة فيما بينهم، في مكامن وعيهم، وفي صميم حياتهم الاجتماعيّة، وفي ثقافتهم، وإن سعى البعض قديماً وحديثاً إلى تشويهها وتحريفها، فلا تكاد تجد داعيةً مخلصاً من كلّ الدعاة والمخلصين الذي حملوا على أعتاقهم لواء الإسلام على مرّ الأزمان والعصور إلّا وهو يؤكّد ويصرّ على مبدأ الوحدة بين أبناء الأُمّة، واعتباره مبدءاً جوهريّاً لا يمكن التخلّي عنه بحالٍ من الأحوال، مع التباهي بأنّ هذه الأمّة، ومنذ انطلاقتها الأُولى، وهي تضمّ وتحتضن بين جناحيها كافّة الأعراق؛ إذ دخل فيها الحبشيّ والروميّ والفارسيّ والعربيّ، ولم يتوقّف تمدّد الإسلام بين مختلف الأعراق والألوان إلى يومنا هذا؛ ولا غرو، فالإسلام هو الدين المنفتح برحابة صدره وسعة أُفقه على الناس جميعاً، والأُمّة الإسلاميّة هي الأمّة الأغنى من ناحية التنوّع البشريّ على امتداد العالم كلّه.

وبحقٍّ نقول: إنّ الإسلام بوصفه عقيدة وشريعة يمثّل حاضنة إنسانيّة مميّزة

تُعطي الناس، كلّ الناس، الحرّيّة في التمايز على أساس الخصوصيّات الإنسانيّة، فهو لا يضيّق عليهم في أيّ مجالٍ من المجالات إلّا بالحدود التي تضرّ بالإنسان بشكلٍ عامّ، وبما يكفل صيانة العقيدة، وعدم الاجتراء على الشريعة، والمحافظة على القيم ومعالي الأخلاق. وهذا في الحقيقة يمثّل الآليّة المناسبة التي طرحها الإسلام، وكفل بها اليسر والسهولة في مسألة الوحدة، كيلا يشعر أحدٌ ممن ينتسب إلى هذه الأُمّة بالغربة فيها، بل يشعر بلذّة الانتماء إليها، لا بل، بالفخر بهذا الانتماء.

وهنا، يجدر التأكيد على أنّ الوحدة الإسلاميّة ليست مجرّد مفهوم وتنظير فحسب، بل الوحدة شعار يرفع لواءه كلّ من يتصدّى للشأن العامّ في أُمتنا، وتكاد تجد إجماعاً على هذا الشعار، وإن كان البعض ـ على صعيد الممارسة والتطبيق ـ ممّن لا ينكرون أحقّيّة هذا الشعار، قد يمارسون نقيضه في سلوكهم وأعمالهم وأقوالهم، ويبرّرون ذلك بأنّهم يلتزمون القيود المحدّدة للإيمان على حسب ما يفهمون الإيمان ومقتضياته.. علماً بأنّ هذه القيود هي ـ في معظمها ـ مجرّد فهم بشريٍّ للنصوص الشرعيّة ليس غير، وإذا ما قمنا بعرض هذا الفهم على سيرة المصطفى ' ، فسنجد أنّه قد يصل إلى حدّ التناقض التامّ مع هذه السيرة، ومع ما سلكه ' ـ عمليّاً ـ مع الناس في عصره، والذي يجسّده قوله: «**قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا**».

وهذا التناقض يؤدّي إلى ما نسمّيه بـ (المنهج التكفيريّ)، وهو الداء الذي تعاني منه أُمّتنا اليوم أشدّ المعاناة، كما كانت قد عانت منه في السابق، ولقد ألحق هذا المنهج التكفيري بالأمّة الإسلاميّة ككلّ خسائر جسيمة، ليس أقلّها: أنّه أودى على مرّ التاريخ الإنسانيّ بحياة الكثير من العلماء والدعاة والمصلحين والمخلصين، حتى أرادوا أنْ يكون المظهر العامّ لأمّة الإسلام في الآونة الأخيرة أنّها: الأمّة التي تقتل كبارها وعظماءها، والأمّة المتوحّشة التي لا حرمة فيها

للدم ولا حتى العرض فيما بين أبنائها، وفي هذا داء خطير أيّما داء. وهذه هي ثمار منهج التكفير على مرّ العصور: فسادٌ وإزهاق أرواح المؤمنين المخلصين العاملين، إنّه المنهج الذي يضع نفسه في خدمة الحاكم حماية لعرشه من إصلاح المصلحين.

إنّ الوحدة هي الكلمة التي يجب على أبناء الأمّة الإسلاميّة اليوم أن يتنفّسوها مع الهواء، وأن يضعوها نصب أعينهم صباح مساء، وبالوحدة فقط نُفلح ونصل إلى النجاح، ونستعيد القوّة والمكانة والعزّة والاحترام، كما قال نبيّنا ' : «**قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا**».

* * *

من
أريج القيادة الحكيمة

مقاربات في الوحدة والانسجام

على ضوء كلمات الإمام الخامنئي دام ظله

□ إعداد: إدارة التحرير (*)

تمهيد

من الطبيعيّ أن يكون لكلّ نظامٍ عالميّ إفرازاته وتداعياته العمليّة على الواقع السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ والثقافيّ للعالم كلّه، فإنّ النظام العالميّ ـ في مفهومه العامّ ـ ليس إلّا وليداً لتقاطعات واختلافات معيّنة على مستوى المصالح والأهداف، تُسفر هذه التقاطعات والاختلافات معاً عن ولادة أحلافٍ وعدواتٍ أيضاً، تؤدّي في صورة تفاعلها ونضوجها بفضل الحراك السياسيّ أو الاجتماعيّ الحاصل على أثرها، تؤدّي عادةً إلى الإخلال بميزان القوى، وتغيير الكثير من المعادلات الدوليّة القائمة، لتصل في نهاية المطاف، وبعد غلبة أحد الفريقين أو الأفرقاء على الفريق الآخر، أو الفرق الأُخرى،

(*) هذا المقال مقتبس من كلماتٍ ومقتطفاتٍ وخطاباتٍ عدّة للإمام القائد السيّد علي الحسينيّ الخامنئي دام ظله، وفي أكثر من مناسبة.

لتصل إلى إعادة توزيعٍ للقوى والمعسكرات على ضوء قواعد جديدة للعبةٍ جديدة.. وهذا هو ـ في الحقيقة ـ معنى النظام العالميّ الجديد.

وفيما يتعلّق بالنظام العالميّ الحاكم والسائد حاليّاً على امتداد رقعة العالم الحديث، والذي يبقى ـ لحدّ الآن ـ نظاماً أُحاديّاً، تهيمن عليه سياسات الولايات المتّحدة الأمريكيّة ومن يدور في فلكها، من أتباعها أو حلفاء (هذا إن كان لها حلفاء) في مختلف بقاع العالم، وعلى وجه التحديد: في القارة الأُوروبّيّة، فقد كان لهذا النظام الجديد ـ أيضاً ـ تداعياته وآثاره وإفرازاته وبصماته الواضحة على مجمل الوضع الدوليّ، ولا سيّما على صعيد الواقع السياسيّ والسياديّ، وكان من الطبيعيّ أن تمتدّ بشائر هذه التداعيات والآثار والبصمات لتصل إلى الواقع الراهن لعالمنا العربيّ والإسلاميّ.

الساحة الإسلاميّة: خطّان متوازيان لا يلتقيان:

فقد ميّز هذا النظام العالميّ الجديد بين خطّين مختلفين ومتباينين في عموم الساحة الإقليميّة والإسلاميّة، وهما:

١ـ خطّ الأنظمة والحكومات الرسميّة العربيّة والإسلاميّة، وهو خطّ يعتمد ـ بشكلٍ عامّ ـ على تحكيم مبدأ الضرورات في مجال العمل السياسيّ، وعلى ضوء هذا المبدأ، سوّغ هذا الخطّ لنفسه الانخراط والتماهي في اللّعبة الدوليّة، بكلّ تفاصيلها، فتقبّلها، وتقبّل قواعدها، وتعايش معها إلى أقصى الحدود، والتزم بنتائجها وأعرافها، لا بل، تخطّى ذلك كلّه، ليرتضيها بكلّ طيب خاطر، ويصير جزءاً لا يتجزّأ منها، لا بل، ليكون في أحيانٍ كثيرةٍ «ملكيّاً أكثر من الملك نفسه»، كما هو الحال حاليّاً في موقف غالبيّة الدول والأنظمة العربيّة الرسميّة الممثّلة بجامعة الفشل والخذلان والاستسلام (جامعة الدول العربيّة) تجاه الوضعين: السوريّ والبحرينيّ، وقبل ذلك تجاه الوضع اللّيبيّ وغيره، فالعرب (الحكّام

والأنظمة) في ثورة ليبيا ـ مثلاً ـ تبرّعوا طائعين بجعل أنفسهم أدواتٍ رخيصة لا عمل لها سوى تسهيل مهمّة المحتلّين المستعمرين الطامعين بالنفط والثروات اللّيبيّة، بينما ارتضوا في الوضعين: السوريّ والبحرينيّ، بجعل أنفسهم، وبشكلٍ مباشر، أيدي الإجرام والقمع والتحريض على الإرهاب التي تبطش بها القوى الغربيّة، في تدخّل سافرٍ في شؤون الدول الداخليّة تارةً، وفي أعمال القتل والفوضى الإرهابيّة المنظّمة تارةً أُخرى، وفي الضغوطات وما يُسمّونه بـ (العقوبات) ثالثةً.

٢ـ وأمّا الخطّ الآخر، والذي يكاد يكون على طرف النقيض تماماً من الخطّ الأوّل، فهو يتمثّل بخطّ الشعوب والجماهير والمستضعفين والنخب الواعية والملتزمة بمصالح الأمّة، هو خطّ خيارات الأمّة الرافضة للتطويع والتطبيع والاستسلام، والمصمّمة على المواجهة والتصدّي لكلّ التحدّيات والأخطار بما تستطيع، مع علمها تماماً بما لهذا الموقف الرافض والممانع من استحقاقات وضرائب.. ولكنّها تعي جيّداً أنّها لا تملك خياراً آخر، وأنّ في استسلامها خمولاً وموتاً لها؛ ذلك لأنّها ـ ببساطةٍ ـ تجد أنفسها وجهاً لوجه أمام جحافل من العواصف الهوجاء التي تستهدفها في أصل وجودها وهويّتها، وفي كلّ ما تمتلكه من عناصر القوّة وأسباب الحياة ومفردات العزّة.

وقد استطاعت هذه الخارطة الدوليّة الجديدة ـ بتعقيداتها البالغة ـ أن تضع هذه الأمّة بين مطرقة الأنظمة الرسميّة الحاكمة على أساس الاستبداد والحكم الأمنيّ وقمع الحرّيّات والأصوات المعارضة والتوريث السياسيّ والفساد الماليّ والهدر والسرقة والنهب، ومن دون أن تستند في أصل مشروعيّتها ـ (هذا إن كان ثمّة مشروعيّة لها أصلاً) ـ إلى شعوبها ومواطنيها، فضلاً عن أنّها لم تعد منذ زمنٍ طويل تمثّل رأي هذه الشعوب وإرادتها، وبين سندان القوى الدوليّة الكبرى المتحالفة معها ضدّ الشعوب ومصالحهم وقضاياهم واهتماماتهم.

وعلى أثر ذلك، فقد وصلت الأمور مؤخّراً إلى حائط مسدود، وبلغت حدّاً خطيراً من التعقيد والتأزّم، حدّاً مأساويّاً قد لا يكون من المنطقيّ معه أن يستبشر أحد بخير، أو أن يُبدي تفاؤلاً بغدٍ قادم..

ولكنّ الأمّة وأبناءها الواعين والمخلصين، لم يبارحوا إصرارهم على التحدّي والمواجهة؛ لأنّهم أدركوا جيّداً أن لا سبيل إلى عودة أو تراجع أو استسلام، ولأنّهم وعوا قول الله تعالى: {ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ}[آل عمران: ١٧٣]، فلم يغفلوا عن أنّ هذا العالم، مهما قست فيه الظروف والأحوال، ومهما بلغت وعورة الطريق وكثرت فيه الأهوال، ومهما تكالب فيه المتكالبون، أو أظهر الحاقدون حقدهم، فإنّه مسيّر إلى قدره الذي هو مقدّر له، وهو واقع بعين الله تعالى يتصرّف به كيف شاء، وإنّ الكافرين ليكيدون كيدهم، فيواجَهون بكيدٍ إلهيّ ربّانيّ منتقم يمحق كلّ محاولاتهم الأثيمة، فتغدو سراباً في طرفة عين، أو أسرع من ذلك، كما قال عزّ من قال: {إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾}[الطارق].

ولكن، وحتى يكون هذا التوكّل على القدرة الإلهيّة توكّلاً حقيقيّاً، لا تواكلاً وتكاسلاً، كان من الضروريّ لهذه الأمّة، إزاء هذا الواقع المرير والصعب والمعقّد، أن تقوم بما عليها، وأن تؤدّي الوظيفة الموكلة إليها، كان لا بدّ لها من تحصين نفسها، والحفاظ على ما تمتلكه من عناصر القوّة.

ولا يكون ذلك إلّا عبر مشروعٍ تنحو فيه الجماهير نحو تكريس المصالحات الداخليّة، على كلّ صعيدٍ، وفي كلّ اتّجاه، لينتهي الأمر بقيام وحدةٍ إسلاميّةٍ شعبيّةٍ متماسكة، تتسلح معها الجماهير بسلاح الوعي والإيمان والثقة بالنفس، لا لأجل أن تحمي نفسها فحسب، وإنّما لغرض أن تنقل الضعف والرعب إلى الطرف الآخر، وهو الأمر الذي من شأنه أن يلقي على عاتق الأنظمة الإسلاميّة

والعلماء والحركات السياسيّة الإسلاميّة والأحزاب والجامعات والحوزات العلميّة والمنظّمات والهيئات الشعبيّة، وكلّ الجماهير الإسلاميّة، مسؤوليّاتٍ جساماً تتناسب وخطورة الموقف، وتكون على قدر عظمة الخيار الذي تبنّته الأمة في صراعها ضدّ كلّ من يسعى لإذلالها وسحقها وإلغاء تاريخها وحضارتها، ومصادرة حاضرها ومستقبلها.

وهذا ـ باعتقادنا ـ هو الحلّ الاستراتيجيّ الوحيد.. وإلّا.. فإنّ هذه الأمّة سائرة ـ لا محالة ـ نحو المزيد من الخسائر والخيبة والتراجع.. لا سمح الله..

الوحدة هويّة المسلمين وصفة ذاتهم

وفي إطار العودة إلى القرآن الكريم، والتي أُمرنا به، لا يسعنا إلّا أن نقف مليّاً عند الآيات التي تحدّد لنا الوصف الحقيقيّ الذي يتّصف به المسلمون، ويشكّل حقيقة هويّتهم، ويرسم الإطار العامّ لعلاقاتهم فيما بينهم، بل حتى لعلاقاتهم مع المؤمنين الآخرين من أهل الكتاب، لا بل مع الناس كافّةً.

فها هو القرآن الكريم يخاطب المسلمين عامّةً بقوله: { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [آل عمران: ١١٠]، فهو يعتبر المسلمين أمّةً واحدة.

وفي الحقيقة: إنّ إطلاق اسم «الأمّة» على المجتمعات الإسلاميّة المختلفة والمتفاوتة فيما بينها، ما هو إلّا إطلاق قرآنيّ وتوصيف ربّانيّ، وبالتالي: فهو توصيف حقيقيّ وواقعيّ، وليس ـ كما يقوله بعض الآيسين من عودة المسلمين ـ مجرّد تسميةٍ تعكس تمنّياتٍ ورغبات لم ولن يكون لها حقيقة على أرض الواقع أبداً!!

نعم، قد يقصّر بعض أبناء هذه الأمّة في بعض المراحل والمواقع والأزمنة ـ كما هي حالتنا الراهنة أيضاً ـ فينسون أو يتناسون انتماءهم إلى هذه الأمّة،

ويصدر منهم ما لا يليق بأمّة أعظم الخلق وسيّد الأنبياء والرسل محمّد ' ، فيتركون للأعداء الفرصة سانحةً للاصطياد في المياه العكرة، هذا إن لم نقل بأنّ بعض هؤلاء قد ينجرّ إلى حدّ الخيانة العظمى والتواطؤ والتآمر على إخوته وأشقّائه من قومه وأبناء دينه وأمّته..

إلّا أنّ هذا التخاذل أو التواطؤ لا يغيّر من واقع الحال شيئاً، ولا يجعل المسلمين أمماً متشتّتة، بل تبقى أمّتهم أمّةً واحدة، وعلى المسلمين، عاجلاً أم آجلاً، أن يعوا هذه الحقيقة، حقيقة انتمائهم الواحد، وأمّتهم الواحدة، ومصيرهم الواحد، وبالتالي: عليهم ـ أيضاً ـ أن يركّزوا على وحدة مساراتهم واختياراتهم وقراراتهم؛ إذ إنّ وحدة المصير تستلزم ـ لا محالة ـ وحدة المسار، والاشتراك في اتّخاذ الموقف والقرار، وإنّ جهل البعض، أو تجاهلهم، لا يعفي النخب الإسلاميّة من مسؤوليّتها ومن مهمّتها الرئيسيّة، وهي التصرّف على أساس الأمّة الواحدة، والتعامل مع الآخرين من منطلق الأمّة الواحدة، والذي يحتّم مراعاة مصالح هذه الأمّة ككلّ، والتوجّه إلى شؤونها ومعالجة قضاياها باعتبارها كلًّا واحداً منسجماً ومتكاملاً، بعيداً عن كلّ الاعتبارات الزائفة، التي تضيّق آفاق العمل، وتحدّ مجالات البذل والعطاء.

هذا. مع العلم بأنّ الأعداء، ومنذ القدم، لا سبيل لهم إلى النفوذ إلى قلب هذه الأمّة إلّا من خلال تلك الاعتبارات البغيضة، العرقيّة أو القوميّة أو الطائفيّة أو الحزبيّة أو الفئويّة أو العشائريّة أو المناطقيّة أو غير ذلك... والتي هي مكامن ضعفٍ حقيقيّة ابتُليت بها هذه الأمّة، نتيجةً لكونها حبائل وحيلاً وتسويلاتٍ كثيراً ما تنطوي بسهولة على بعض ضعاف العقول، أو أصحاب الأهواء والأغراض والأطماع.

ويتابع القرآن الكريم ليقول: { وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا }[البقرة: ١٤٣]، ويقول كذلك: { وَإِنَّ

﴿هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾[المؤمنون: ٥٢]. فوحدة الأمّة في الإسلام ـ إذاً ـ إرادة إلهيّة، وقيامها واجب شرعيّ. والمضمون نفسه وارد كثيراً في أحاديث رسول الله ' ، كقوله: «**من صلّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم**»[1].

إنّ هذا التركيز القرآنيّ والنبويّ على وحدة الأمّة، يجعل من العمل على إقامتها وعلى المحافظة عليها، بما يتطلّبه ذلك من نبذ الفرقة والخلاف، فريضةً دينيّة، وعنصراً استراتيجيّاً لا بدّ من تواجده وحضوره بشكلٍ دائم وقويّ في صميم السياسات الإسلاميّة، وهو يُخرج الوحدة عن كونها مجرّد ضرورة مرحليّة سياسيّة أو اجتماعيّة أو اقتصاديّة أو ثقافيّة، لا بل إنّه يحوّل قضيّة الوحدة والدفاع عنها لكي تكون قضيّة الدفاع عن الإسلام نفسه.

وهذا ما يجعلنا نصل ـ يقيناً ـ إلى النتيجة التالية، وهي: أنّ الوحدة ليست مطلباً إسلاميّاً، وتكليفاً من جملة التكاليف التي يقع على عاتق المسلمين امتثالها، لا بل هي قضيّة الإسلام ذاته، هي ليست تكليفاً يُخاطَب به المسلمون، فقد يمتثلون وقد لا يمتثلون، وإنّما هي عين أن يكون المسلمون مسلمين، فالسعي نحو تحقيق الوحدة وتكريسها وإيجادها هو ـ في الحقيقة ـ سعي نحو أن يحقّق المسلم إسلامه، على حدّ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾[النساء: ١٣٦]، وترك امتثال الوحدة والعمل لها مساوق لتخلّي المسلمين عن حقيقة إسلامهم وجوهره، والرضا منهم بأن يكون إسلامهم إسلاماً قشريّاً خاوياً، إسلاماً لا يصنع الإنسان المثاليّ، الذي أراده الله تعالى أن يكون خليفةً له في أرضه، قال سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[النمل: ٦٢].

الوحدة قدر الأمّة وخيارها الاستراتيجيّ الوحيد

والوحدة الإسلاميّة ليست مجرّد أطروحة أخلاقيّة ومعنويّة، ولا هي ـ أيضاً ـ مجرّد مبدأ ضروريّ تحتّمه وتفرضه مجريات الحياة السياسيّة اليوميّة لدى الشعوب والأنظمة والدول المسلمة، بل هي ـ فوق هذا وذاك ـ مبدأ جوهريّ يشكّل واحداً من المبادئ والركائز الرئيسيّة التي تقوم عليها فلسفة الإسلام في المناحي المختلفة: الاجتماعيّة والتربويّة والمسلكيّة، وهي من صلب المفردات والعناصر التي تتكوّن منها النظرة الإسلاميّة العامّة إلى الكون، وإلى الحياة برمّتها.

ومن هنا، تكتسب دراسة النظرة الكونيّة للإسلام أهمّيّتها الخاصّة والاستثنائيّة في معرض الحديث والبحث عن الوحدة، ولا سيّما عندما نأخذ بعين الاعتبار أيضاً أنّ المدارس التي تفتقد مثل هذا الأساس، وتلتزم نظرة محدّدة إلى الكون والإنسان والمجتمع والحياة والتاريخ و.. لا يمكن وصفها من الناحية العمليّة بأنّها مدارس ناجحة وصادقة، على اعتبار أنّ الرؤية الكونيّة التي تمتلكها أيّة مدرسة هي التي تحدّد المنهجيّة لتفاعل هذه المدرسة مع مفردات الوجود، بما فيها الإنسان والمجتمع.

كما أنّ الرؤية الكونيّة هي التي تهب الحياة قيمتها الحقيقيّة، وتخرجها عن إطار العبثيّة واللّاهدفيّة، الأمر الذي من شأنه أن يحول دون سيطرة الشكّ والكسل والفشل والعشوائيّة لدى الإنسان في سعيه الحياتيّ.

وهذا ما تتميّز به الرؤية الكونيّة للإسلام، فإنّها لا تختصّ بدائرة المفاهيم الذهنيّة والاعتقادات والتصوّرات النظريّة، وإنّما يسري أثرها، وبشكلٍ مباشر، إلى الجانبين الاجتماعيّ والعاطفيّ، فالمباني النظريّة الإسلاميّة لا تقف عند حدّ الفكر والذهن والبراهين، وإنّما هي تنسحب بشكلٍ تلقائيّ على الواقع العمليّ والميدانيّ.

وعلى هذا الأساس، تتّسم الرؤية الكونيّة الإسلاميّة بأنّها:

١. على المستوى الفرديّ: قادرة أن توصل الإنسان إلى مرحلة الاستقرار الفكريّ والعقائديّ الذي يتولّد عنه ارتباط عميق ومريح بالله تعالى، إلى جانب قدرتها على معالجة أسباب الشكّ والتردّد والحيرة والتخبّط الذي يولّد اليأس والإحباط في نفس الإنسان.

٢. وعلى المستوى الاجتماعيّ: قادرة على أن تمنح الحياة الإنسانيّة كلّ ما تحتاجه من عناصر الفاعليّة والحيويّة والنشاط والأمل بالمستقبل والتفاعل الإيجابيّ مع الآخرين.

فالإسلام ـ إذاً ـ يأخذ بيد الإنسان نحو المشاركة في إقامة المجتمع السعيد والمرفّه، وفي الوقت نفسه، لا يدعه ينحرف عن قضاياه الكبرى التي تحقّق له السعادة الأُخرويّة وتضمن له رضا الله تعالى، على اعتبار أنّ ذلك أيضاً يدخل في حساب ربحه الشخصيّ، عملاً بمبدأ أنّ كلّ في عملٍ يقوم به الإنسان في هذه الدنيافإنّه يُعوّض عنه بأعظم العوض والجزاء في عالم الآخرة، ومن هذا المنظار، فمصالح المجتمع كلّها تصبّ في مصلحة الفرد، فالمجتمع من زاوية الإسلام هو الفرد، والفرد هو المجتمع، ولا انفصال بينهما على مستوى المصالح والقضايا والأهداف، فهي معادلة يُحافظ فيها على التوازن والتعادل بين المصالح الفرديّة وبين القيم الاجتماعيّة.

وهذا الفهم للحياة لا يمكن تصوّره في ظلّ المدارس المادّيّة؛ إذ الفهم المادّيّ لا يحثّ الإنسان على أزيد من النظر إلى مصالحه الخاصّة والضيّقة والفرديّة، ولك أن تتصوّر حينئذٍ حالة المجتمع الذي تسوده هذا النوع من العلاقات، العلاقات القائمة على عدم مراعاة الآخرين إلّا بمقدار ما يجرّه ذلك من النفع الفرديّ والآنيّ على كلّ واحدٍ من الأفراد، أفلا يكون مجتمع كهذا هو المجتمع الذي يُعبّر عنه بمجتمع (شريعة الغاب)؟!

ومن هذه الزاوية بالتحديد يدعو الإسلام أتباعه والملتزمين بخطّه ونهجه

ورؤيته الكونيّة والحياتيّة، يدعوهم إلى إقرار الوحدة والانسجام والتلاقي فيما بينهم كمبدأ استراتيجيّ لا محيد لهم عنه، ولا خيار لهم سواه، على اعتبار أنّ الوحدة بين المسلمين لا تصبّ في مصلحة فردٍ دون فرد، وإنّما هي تصبّ في مصلحة المسلمين جميعاً بلا استثناء، وإن كانت قد تتعارض في بعض الأحيان مع مصلحة هذا الفرد أو ذاك، ولكنّها تهدف إذا ما قُدّر لها أن تتحقّق إلى إقامة المجتمع السعيد الذي يضمن الحرّيّة للجميع، والاحترام لحقوق الجميع، والسعادة الأُخرويّة ورضا الله للجميع.

وانطلاقاً من هذه الرؤية الإسلاميّة نقول:

إنّه بالرغم من تفشّي أسباب ومظاهر الخلاف والاختلاف بين المسلمين، وتفرّقهم إلى مذاهب ومشارب ومسالك مختلفة، إلّا أنّ هناك الكثير الكثير ممّا يكفل تحقيق وحدتهم، وتوحيد صفّهم أمام أعدائهم وكلّ المتربّصين بهم والمتآمرين عليهم.. بل وهناك الكثير الكثير ـ أيضاً ـ ممّا يكفل بناء حضارتهم التليدة التي سبق لها أن خطّت لنفسها على هذه الرقعة الوسيعة من العالم أعظم حضارة عرفها التاريخ القديم والحديث، وكان لها كلّ الفضل فيما وصل إليه العالم اليوم، بما في ذلك: العالم الغربيّ المتبجّح، من نهضة وتقدّم وتطوّر..

أبرز محاور الوحدة والانسجام:

لعلّ من نافلة القول اليوم أنّ هذا المفهوم، مفهوم الوحدة والانسجام، لا يعني قيام الفرق الإسلاميّة المختلفة بالتخلّي عن معتقداتها الكلاميّة، أو بالعدول عن فتاواها الفقهيّة الخاصّة بها..

وإنّما تعني الوحدة والاتّحاد ـ في مفهومها الإجماليّ ـ: أنّ على الشعوب الإسلاميّة أن تتحرّك في القضايا المتعلّقة بالعالم الإسلاميّ باتّجاه واحد، وأن يكون الغالب عليهم هو تحكيم عنصر التعاون والتفاهم والمساعدة، بحيث لا

يستخدم أحدهم رصيده وإمكانيّاته ضدّ أخيه المسلم، ولا يعمد بعضهم إلى إلغاء بعض، ويكون المهيمن على العلاقات فيما بينهم علاقة الانسجام والتقارب، بدلاً من تنافر التعارض والتضادّ.

وبشكلٍ أكثر تفصيلاً، فإنّ الوحدة بين المسلمين تتطلّب توفير معنيين اثنين:

المعنى الأوّل: هو أن تعمل الفرق الإسلاميّة المختلفة على تكريس أجواء التعاطف والتعاضد والتعاون فيما بينها، والتشاور الحقيقيّ لمواجهة التحدّيات التي يُثيرها أعداء الإسلام.

والمعنى الثاني: هو أن تسعى كلّ واحدة من الفرق الإسلاميّة ـ على تنوّعها ـ إلى الاقتراب من سائر الفرق الأُخرى، وذلك في سبيل خلق مناخات واسعة من التفاهم فيما بينها، واستحداث مجالاتٍ من الدراسات المقارنة بين المذاهب الإسلاميّة في الفقه والكلام ومختلف المسائل الإسلاميّة الأُخرى، على أن تتحرّى هذه الدراسات الحواريّة أعلى مستويات الدقّة والموضوعيّة والهدوء والاتّزان والشفافيّة والصراحة.

ونشير هنا في هذه المقالة إلى جملةٍ من المحاور والموادّ والعناوين التي ينبغي للجهود والمساعي الرامية إلى تحقيق معنيي الوحدة أن تركّز عليها، وهي عناوين ـ كما سوف نلاحظ ـ تغطّي مساحات شاسعة من الأفكار والمبادئ التي يعتبرها أتباع الفرق الإسلاميّة المختلفة أركاناً أساسيّة في هويّة المذهب والفرقة التي ينتمون إليها:

١) التوحيد:

المجتمع التوحيديّ ـ من منظور الفرق الإسلاميّة كافّةً ـ مجتمع لا كلمة ولا سلطان فيه إلّا لقوّة واحدة قادرة، هي الله عزّ وجلّ الحيّ القيوم القاهر الذي يسيطر بإرادته وقدرته على كلّ الحركات والظواهر في العالم واحداً. وتحت

ظلال هذه السلطنة الإلهيّة الواحدة، يكون البشر جميعاً أقرباء وإخوة؛ لأنّهم جميعاً مرتبطون بمبدأ واحد، سائرون نحو مقصد واحد، منتسبون إلى مدبّر الكون بنفس النسبة والمستوى، مهما كانت أعراقهم ودماؤهم وعناصرهم وأحوالهم الاجتماعيّة المختلفة، هذه هي النتيجة الحتمية للإيمان بالتوحيد، كما قال تعالى: { وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ }[الأنبياء: ٩٣].

وفي هذه الرؤية، لا يكون الارتباط منحصراً بما بين البشر، بل أشياء العالم وأجزاؤه كلّها، من الحيوانات والجمادات والسماوات والأرضين و...، بعضها متّصل ببعض، وكلّها في الوقت عينه ذات صلة بالإنسان.

٢) الهويّة الإسلاميّة:

يعيش المسلمون اليوم في كافّة أرجاء العالم، سواء في البلدان الإسلاميّة أم في البلدان التي يشكّلون فيها أقليّات دينية، يعيشون اليوم شعوراً عارماً بالميل نحو الإسلام ورغبة في استعادة هويّتهم الإسلاميّة. وها نحن نرى نخب العالم الإسلاميّ ومثقّفيه يعرضون اليوم عن الاشتراكيّة والمدارس الغربيّة، وينزعون بدلاً من ذلك إلى الإسلام الذي باتوا يقتنعون اليوم بأنّه العلاج الأوحد لآلام الإنسانيّة ومآسيها.

وهي حقيقة ناصعة يعترف بها الجميع، بما فيهم المستكبرون أنفسهم. وهذا ما يمنح المسلمين الوحدة والتضامن؛ لكونه يعزّز فيهم الشعور بالانتماء إلى هذا الدين الحنيف الواحد. وهو أمر في غاية الأهمّيّة؛ لأنّ الوحدة ما لم تقم على أساس الإسلام والاعتصام بحبل الله، فهي عبثيّة خاوية لا تعتمد على ركن وثيق، وإنّما تقوم على أساس ما تمليه الأوهام والممارسات الخاطئة، من القوميّة أو الحزبيّة أو الفئويّة أو...

٣) القرآن الكريم:

يوصي القرآن الكريم المسلمين بالوحدة، ويحذّرهم إن لم يتّحدوا ويتضامنوا فسوف تذهب سمعتهم وهويتهم واقتدارهم أدراج الرياح. والخطاب القرآنيّ يعتمد لغة الأخوّة في الإنسانيّة { يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ }، ولغة الأخوّة الإيمانيّة: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ }، وليس فيه لغة الطائفيّة المقيتة؛ إذ لا نجد فيه ـ مثلاً ـ: (يا أيها الذين تشيّعوا) أو (يا أيها الذين تسننوا)!!

وفي دائرة الإيمان، يقرّ القرآن الكريم أن يكون لكلٍّ من المؤمنين آراؤه الخاصّة به، وإن اختلفت عن آراء الآخر ومعتقداته، فليس في هذا محذور، وليس له تداعيات سلبيّة، وإنّما يدعو القرآن إلى الوحدة ونبذ التفرقة: { وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ } [آل عمران: ١٠٣].

ولا يخفى ما لهذا الخطاب من تأثير بالغ على صعيد تجفيف جذور الصراعات وإطفاء نيران العصبيّات الدينية التي تعاني منها البشريّة كلها. والملفت في الآية أنّ الاعتصام بحبل الله لا يُعدّ واجباً على كلّ فردٍ مسلم فحسب، بل هو واجب على المسلمين عامّةً، وبشكل جماعيّ، كما تقول الآية: { جَمِيعًا }، فالمطلوب ـ إذاً ـ هو عودة الكلّ إلى التمسّك بحبل الله، والاعتصام بالعروة الوثقى، ونبذ كلّ الطواغيت وأشكال الباطل.

٤) الرسول الأكرم ' :

الكيان المقدّس لرسول الإسلام الأعظم ' هو ـ أيضاً ـ من أهمّ المحاور التي تسهم في إيجاد الوحدة. وبوسع العالم الإسلاميّ على امتداده أن يجتمع حول المائدة المباركة لهذا القطب المقدّس الذي تتحلّق حوله عواطف المسلمين ومشاعرهم. وخير دليل على ذلك، هذا الاجتماع الكيديّ للصهيونيّة وقوى الشرّ والاستكبار في هذا العالم، وتوظيفهم كافّة الإمكانيّات والأقلام المأجورة من قبل الصهاينة لمهاجمته ' وكيل الإهانات والشتائم له.

٥) أهل بيت النبيّ عليهم السلام:

ومن العوامل الأخرى التي بوسعها أن تمثّل محوراً لاتّحاد المسلمين: اتّباع أهل بيت الرسول ' ، وهم بأجمعهم من الشخصيّات المقبولة والمحبوبة لدى جميع المسلمين، ويعترف المسلمون كافّة بأنّهم مأمورون بمحبّتهم وإظهار المودّة لهم، كما روى السنّة والشيعة على السواء حديث الثقلين الذي يدلّ على أنّ أهل البيت عليهم السلام هم عدِل القرآن الكريم، وبالتالي: فيجب أخذ الأحكام وتعاليم الإسلام منهم، كما تؤخذ من آيات الكتاب العزيز.

الوحدة الإسلاميّة مسؤوليّة الحكّام أم الشعوب؟

إنّ الوحدة ـ على العموم ـ مطلب عامّ لكلّ أفراد، وأسر، وقبائل، وجماعات، وشعوب، وأمم، الجنس البشري، حتى كأنّ الوحدة عنصر من عناصر الحياة ذاتها، وأصل من أصول الخليقة، ولازمة من لوازم الفطرة الإنسانيّة، ومن هنا، فإنّك لن تستطيع أن تجد في هذا العالم كلّه إنساناً سويّاً على الإطلاق يجاهر بالقول بأنّه ضدّ وحدة الأفراد، أو ضدّ وحدة أسرته، أو قبيلته، أو شعبه، أو أمّته، أو أنّه حتى ضدّ وحدة الجنس البشريّ، من دون أن يعمد إلى تعليل هذا التصريح وهذه المجاهرة بعذرٍ يمكن له هو شخصيّاً أن يستريح إليه ويطمئنّ به، ومن دون حجّة قويّة يقنع بها نفسه، وما ذلك إلّا لأنّ الوحدة هي أنس جميع البشر ومطلبهم، وهي حلم وأمنية الجميع، أو بكلمةٍ: لأنّ الوحدة ضاربة الجذور في أعماق وأغوار الفطرة الإنسانيّة، وأنّها عاكسة لوحدة الخليقة، ووحدة الجنس البشريّ أصلاً وابتداءاً، على مبدأ (كلّكم من آدم وآدم من تراب)، ولعلّ هذا هو السرّ في كونها مطلباً عامّاً للبشر.

وبالرغم من أن الوحدة على كلّ الأصعدة تُعدّ مطلبا عامّاً، إلّا أنّ البشر اختلفوا اختلافاً كبيراً في وسائل تحقيقها، وفي آليّات التنفيذ، شأنها في ذلك شأن

أيّ مطلبٍ عامٍّ إنسانيّ، فكانوا بالنسبة إليها طرائق قدداً، وما اختلافهم في وسائل تحقيق هذه الوحدة إلّا دليل قاطع على سعيهم المستمرّ لتحقيقها، وبرهان ساطع على عميق إدراكهم لأهمّيّة هذه الوحدة وعظيم فائدتها وجزيل نفعها.

وإذا ما أُتيح لوحدة الأمّة الإسلاميّة أن تتحقّق على أساسٍ سليم، وعلى وجهها الصحيح، فحينئذٍ يغدو من الميسور ـ أيضاً ـ أن تتحقّق الوحدة على صعيد الجنس البشريّ عامّةً؛ لأن هذه الأمّة مؤهّلة ـ عندما يتسنّى لها أن تتّحد ـ لتأخذ بيد الجنس البشريّ مع تناقضاته الكثيرة، وأن ترشد الحركة الإنسانيّة برمّتها نحو الأحسن والأفضل والأقوم، وذلك نظراً لما تمتلكه من ثروة فكريّة وعقائديّة وحقوقيّة وإنسانيّة شاملة وقائمة على الجزم واليقين، وعلى أسس موضوعيّة ومنطقيّة سليمة (عصمة الوحي الإلهيّ).

يُضاف إلى ذلك: أن الأمّة الإسلاميّة هي ـ اليوم وسابقا ـ أكبر تجمّع بشريٍّ يلتفّ حول فكرة التوحيد والوحدة على امتداد التاريخ البشريّ.

وفي عصرنا الحاليّ نرى أن الأمّة الإسلاميّة قادتها ظروف وتعقيدات معيّنة إلى مفترق طريقين: فإمّا أن تحقّق وحدتها وانسجامها الداخليّ، وإمّا أن تجد نفسها في معرض أن تفقد ذاتها أصلاً، مع ما يستتبعه هذا الفقدان من ضياعٍ ودمارٍ شامل.

ومن خلال التأمّل في المعطيات الواقعيّة والعمليّة التي تتأثّر بها الذهنيّة العامّة للمسلمين اليوم، يمكن لنا أن نصل إلى الاستنتاج التالي، وهو: أن أنجح الوسائل لتحقيق الوحدة بنظرهم يكمن في وجود قرارٍ حكوميٍّ ورسميّ يكون صادراً عن رؤساء الدول وقادتها وزعمائها.

فعلى سبيل المثال: يكفي برأي الإسلاميّين العرب أن يمتلك زعيم أيّ بلدٍ الشجاعة لإصدار قرارٍ بتبنّي النظام السياسيّ الإسلاميّ حتى يسود ذاك النظام

فعلاً، ويكفي برأي القوميّين العرب ـ أيضاً ـ أن يتّفق الزعماء العرب على الوحدة، وأن يعلنوا هذا الاتّفاق، هذا ـ بنظرهم ـ كلّ ما يتطلّبه تحقّق الوحدة على المستوى الجماهيريّ!

ولكنّ الواقع أنّ القيادة السياسيّة ما هي في حقيقتها وجوهرها إلّا مرآة تعكس كلّ ما في هذه القاعدة من مؤتلف ومختلف معاً، وفي ذات الوقت، وإنّ هنالك ظروفاً موضوعيّة وأركاناً ولوازم أساسيّة وضروريّة لا بدّ من توفّرها وتواجدها وتحقّقها أوّلاً، وإلّا، فلن تصل الوحدة إلى غايتها المنشودة.

على أنّ التجارب الكثيرة والمريرة أثبتت أنّ القرارات الرسميّة بمجرّدها لا تكفي لإحلالها فعليّاً في الأوساط الجماهيريّة والشعبيّة، ومن نافلة القول: أنَّ عدم وصول الوحدة إلى هذه المرحلة، وبقاءها في مرحلة التنظير والتقنين الرسميّ، إنّما يعني فشلها وعدم تحقّقها أصلاً.

ومن هنا، فإنّ تحكيم النظرة المنطقيّة والواقعيّة يقضي بأنّ تحقيق الوحدة ليس مسؤوليّة الحكّام والزعماء والقادة والنخب وحدهم، وإنّما هو مسؤوليّة الشعوب أيضاً، فالوحدة في الحقيقة تتطلّب كلا القرارين، وكلتا الإرادتين: القرار والإرادة الشعبيّة، والقرار والإرادة الحكوميّة الرسميّة، وكلا الأمرين لا غنى عنهما، وهما بالنسبة إلى مطلب الوحدة بمثابة الجناحين للطائر، فكما لا يمكن للطائر الطيران إلّا بجناحيه كليهما معاً، كذلك ـ أيضاً ـ لا يمكن للوحدة أن تقوم وتنهض أبداً إلّا بالعمل على إيجاد القرارين والإرادتين معاً، وعلى الشعوب، كما الحكّام، أن يعملوا في هذا السبيل جنباً إلى جنب.

المرجعيّات الفكريّة للوحدة والانسجام

لم تكن محاولات التقسيم التي تعرّض ويتعرّض لها المسلمون يوميّاً مجرّد محاولات عفويّة ساذجة، كما أنّها لم تكن تهدف فقط إلى إحداث الفرقة

والانقسام على المستويين: الجغرافيّ أو القوميّ فحسب، بل إنّما كانت محاولات سياسيّة الهدف منها أوّلاً وأخيراً هو إطفاء نور الله وإخماد شعلة الإسلام الوضّاءة والملتهبة، هذا هو الهدف الاستراتيجيّ الدائم منها، وإن تغيّرت الأشكال أو تبدّلت الأسماء وتبدّلت الوجوه، وإن كانت هذه المحاولات ـ أيضاً ـ تحمل في الأثناء أهدافاً مرحليّة وآنيّة، تتمثّل في جهات اقتصاديّة أو تجاريّة أو غير ذلك، إلّا أنّ هذه الأهداف كانت دائماً تُعدّ أهدافاً صغيرةً إذا ما أُخذت بالقياس إلى ذلك الهدف الاستراتيجيّ، والذي كان هدفاً مشتركاً بين كلّ أعداء الإسلام على امتداد التاريخ.

وبالانطلاق من هذا، كان المسلمون في كلّ العصور والمراحل الزمنيّة عرضةً لجملة من الضغوط التي تهدف إلى محاصرتهم وإجبارهم على القبول بالأمر الواقع، وحيكت ضدّهم الكثير من المؤامرات الخبيثة والدنيئة، والتي يندى لها جبين الإنسانيّة، وتعرّضوا أيضاً لأبشع أنواع القتل والإجرام والإرهاب والابتزاز.

وقد كان أرباب الاستعمار على الدوام يعتمدون في إنجاح مؤامراتهم هذه، وفي إحكام سيطرتهم على رقاب المسلمين، على وسيلةٍ واحدة رئيسيّة، ألا وهي: تكريس عوامل التمزّق والتشرذم والتصارع والاقتتال بين المسلمين، وإشعال نيران الفتن بين مختلف طوائفهم ومدارسهم واتّجاهاتهم. ولم يقتصر اتّباع المحتلّين لهذه السياسة التفريقيّة والتقسيميّة على مواجهة التكتّلات والتجمّعات الضيّقة في داخل الأوساط الإسلاميّة، وإنّما هي سياستهم المفضّلة ـ أيضاً ـ في مواجهة الدول والحكومات والأنظمة الإسلاميّة، حيث كانت تروم دائماً إلى تكريس التضعيف في الموقف السياسيّ لهذه الدول؛ لضمان عدم وصولها يوماً إلى مرحلةٍ تتّحد فيها، وتقرّر أن تأخذ موقعها الريادي الكبير الذي تستحقّه في هذا العالم الكبير.

ومن هنا، كان لا بدّ من إيجاد سلاحٍ استراتيجيّ سياسيّ يكون قادراً على النهوض بهذا الواقع الخطير والحسّاس الذي تمرّ به الأمّة الإسلاميّة، وبالأخصّ: في وقتنا الراهن، حيث اختلطت الأوراق وتشابهت وساد التعقيد في شتّى المجالات، ليزداد الموقف صعوبةً والخيارات دقّةً والمسؤوليّة حجماً.

وحيث إنّ السلاح لا بدّ وأن يكون متناسباً في الحجم والشكل والمضمون مع طبيعة المواجهة، فلم يكن هناك سلاح أقوى وأمضى وأجدر لمواجهة سياسات الفتن والتفرقة في هذه الظروف الصعبة والمصيريّة من سلاح الوحدة والانسجام الإسلاميّ، والذي هو سلاح نابع من صميم الدين، قبل أن يكون ضرورةً سياسيّة أو اجتماعيّة وغير ذلك، فالوحدة الإسلاميّة واجب دينيّ، ومطلب إنسانيّ عامّ، قبل أن تكون حركةً سياسيّة أو نزعةً اجتماعيّة أو غير ذلك.. هي حركة إسلاميّة إنسانيّة تحمل في طيّاتها مشروعاً متكاملاً، سياسيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً وتربويّاً وثقافيّاً و..

ولكي نقف على حقيقة هذه الحركة لا بدّ لنا من معرفة المصادر التي تأخذ هي منها، وتشكّل مرجعيّةً وملاذاً لها.

أوّلاً: القرآن الكريم:

ولا شكّ في أنّ أهمّ مرجعيّةٍ للوحدة الإسلاميّة، هو القرآن الكريم، الذي هو مصدر الفكر الإسلاميّ الأوّل، ومنبع المعرفة والتشريع والحضارة، وعلى أساسه يبني المسلمون أفكارهم ومعارفهم وثقافتهم السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة و..

وقد دعا القرآن الكريم إلى عدم التنازع والتناحر، وشدّد في نصوصه على تعزيز وحدة الأمّة وانسجام أطرافها وتواصل أبنائها بعضهم مع بعض، فقال تعالى: { إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ }[الأنبياء: ٩٢]،

وقال: {وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ}[الأنفال: ٤٦]، وقال: {وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ}[آل عمران: ١٠٣].

والقرآن يذكّر ـ أيضاً ـ بآثار الوحدة وإيجابيّاتها ويحثّ الناس على تجاوز الخلافات الوقتيّة التي قد تنشأ فيما بينهم: {وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا}[آل عمران: ١٠٣].

كما يؤكّد القرآن على أهمّيّة التركيز على نقاط الالتقاء، لا بين المسلمين أنفسهم فحسب، بل حتى مع أتباع الأديان الأُخرى، فيقول: {قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ}[آل عمران: ٦٤].

وهذا المنهج يجب أن يدفعنا نحن المسلمين بشكلٍ خاصّ للتأكيد على نقاط الاشتراك والالتقاء فيما بيننا، وما أكثرها، بل إنّها تشمل كلّ المجالات تقريباً.

والغريب في الأمر أنّ البعض منّا مستعدّ لأن يتعايش مع ملحدٍ، ويناقشه بهدوء ورويّة، ولكن عندما يصل الأمر إلى مسلم مثله، فهو ليس مستعدّاً لأن يسمعه أصلاً!!

ثانياً: السنّة النبويّة المطهّرة:

وهي المصدر الثاني من مصادر الفكر الإسلاميّ بعد القرآن الكريم، لذا، فهي المصدر والمنبع الآخر للوحدة والانسجام الإسلاميّ، وقد ورد فيها تحديد دقيق للمباني العامّة للتمسّك بها، ونبذ كلّ أشكال التفرقة، وفيها ـ أيضاً ـ تحديد لعناصر قيمومة الوحدة والتآلف بين المسلمين، وتشخيص للأمراض والآفات والأسباب التي تحول دون حصول ذلك بين المسلمين، كما أنّها تصوّر المشهد

الحقيقيّ للوحدة، وترسم العلاقة الوطيدة بين المسلمين، وتعرض لنا آثارها الوحدة والانسجام في الدنيا والآخرة. فالسنّة النبويّة هي أيضاً، كالقرآن الكريم، محطّة يجب التوقّف عندها للاطّلاع عن كثب على الأحاديث الشريفة التي تدعو إلى الوحدة ونبذ الفرقة، بعد أن شخّصت الأسباب التي تعطّل الوحدة وتمنع التلاحم بين المسلمين.

ومن العناوين التي تطرحها السنّة في هذا المجال:

أ. وجوب التمسّك بالوحدة ولزوم الجماعة: ففي سنن ابن ماجة عن رسول الله ' أنّه قال: ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب مؤمن: إخلاص العمل لله، والنصيحة لولاة المسلمين، ولزوم جماعتهم؛ فإنّ دعوتهم تحيط من ورائهم[٢].

ب. النهي عن الفرقة والاختلاف: عن ابن عبّاس في تفسير قوله تعالى: [ولا تتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله]، وقوله تعالى: [أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه]، قال: نهاهم عن الاختلاف والتفرقة. وقال رسول الله ' في خطبةٍ له: أوصيكم بما أوصاني به الله في كتابه: من العمل بطاعته، والتناهي عن محارمه، إلى أن قال: إنّ الاختلاف والتنازع والتثبّط من أمر العجز والضعف، وهو ممّا لا يحبّه الله، ولا يعطي عليه النصر والظفر[٣].

ج. عناصر هدم الوحدة بين المسلمين: بعد أن حدّدت السنّة النبويّة معنى الإسلام وكيفيّة حصوله وانعقاد، كما ورد عن أنس بن مالك أنّه قال: قال رسول الله ' : من صلّى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم، حدّدت مجموعةً من العوامل التي عدّتها عناصر تقوّض دعائم الوحدة الإسلاميّة، ومن بينها العناوين التالية: النميمة وشحن القلوب بالحقد والكراهية، تتبّع عورات الآخرين، التعصّب الأعمى، المراء والخصومة، خبث السريرة وسوء الضمائر.. إلى غير ذلك.

ثالثاً: العقل:

وهو المصدر الثالث من مصادر المعرفة والفكر الإسلاميّ، بما حوى من آفاقٍ وأبعاد واسعة وعطاء ثريّ وبنّاء. فالعقل هو الأداة الفعّالة التي استخدمها العلماء والمفكّرون في اكتشاف العلوم والمعارف والأفكار والمفاهيم الحضاريّة المختلفة. وما الدعوة إلى الوحدة والتآلف والانسجام الإسلاميّ إلّا نتاج ممارسة العقل لدوره هذا في تشخيص مكامن القوّة عند المسلمين، واكتشاف أهمّ الأخطار التي تهدّد كيانهم. إذ إنّ من بديهيّات العقل المقرّرة: أنّ المسلمين أمّة واحدة؛ لأنّه أمر معلوم من الدين بالضرورة، ولا ينبغي أن يجادل فيه مسلم، وإذا كانت كذلك، فالعقل يحكم بأنّه لا عزّة للإسلام، ولا نهوض لجماعة المسلمين ولا قوّة لهم إلّا بالوحدة والتآلف فيما بينهم. وبخاصّة إذا التفتنا إلى أنّ الممارسات الاستعماريّة تكشف عن أنّ الغرب يعتبر الوحدة الإسلاميّة سلاحاً فتّاكاً يضرّ بمصالحه في المنطقة والعالم.

ورابعاً: الإجماع:

وهو المصدر الرابع من مصادر الفكر الإسلاميّ. وفيما يتعلّق بالوحدة بين المسلمين نستطيع أن نقول: بأنّ المتأخّرين والمعاصرين من المسلمين ـ على الأقلّ ـ قد أجمعوا على ضرورة الوحدة والانسجام فيما بينهم لدفع الأخطار المحدقة بهم.

وهذا الاتّفاق والتسالم الإسلاميّ على مسألة الوحدة لم ينطلق اعتباطاً، بل هو انطلاق من المصلحة الحقيقيّة للشعوب والأمم؛ إذ ليس من عاقل بإمكانه أن يعتقد بأنّ التشتّت والتفرّق يمكن أن يكون ذا منفعة وخير للشعوب والأمم.

التفرقة بين المسلمين الأسباب والعوامل:

تُبذل ـ حاليّاً ـ مساعٍ وجهود مضاعفة، ومن أكثر من جهة، عالميّة ودوليّة، وحتى إقليميّة، من أجل أن لا يتّحد المسلمون، وأن لا يتّفقوا، وأن يعمل بعضهم ضدّ بعضهم، وتكريس حالة العداء والبغضاء فيما بينهم.

وتتصاعد هذه المساعي والجهود خصوصاً كلّما اشتدّت الظروف والأحوال، وكلّما كانت أوضاع المنطقة أكثر دقّةً وحساسيّةً وتعقيداً، وعلى وجه التحديد: كلّما كان المسلمون في حاجةٍ إلى لوحدة أكثر من أيّ وقتٍ آخر.

واعتماداً على تصوّرٍ غير بعيدٍ عمّا يجري حولنا في الواقع الراهن، فإنّنا نرى أنّ أعداء هذه الأمّة ليس لهم دافع وراء هذه المساعي والجهود (اللّامباركة) سوى الحؤول دون تحقّق ذلك الطموح الإسلاميّ المتجذّر في وجدان المسلمين بشكلٍ عامّ، أعني به: الطموح بالوصول إلى تحقيق سيادة الإسلام وحكومته.. وهو طموح بات اليوم يقترب أكثر فأكثر من أطواره العمليّة.

ومن الطبيعيّ أنّه إذا أُريد للإسلام أن يسود، وإذا أراد المسلمون في العالم الإسلامي أن يعتصموا بالإسلام، فإنّ هذا سوف لن يكون متاحاً لهم مع وجود كلّ هذه الخلافات والنزاعات.

وفي الحقيقة، فإنّ إشعال نيران الحروب والنزاعات الدامية بين المسلمين في داخل المجتمعات الإسلاميّة، سواء في البلد الواحد أو بين البلدان الإسلاميّة المتعدّدة، هي العقبة الأصعب في طريق سيادة الإسلام وإقامة حدود الله على أرضه.

وفيما يلي نسلّط الضوء على بعض الأسباب والعوامل التي من شأنها أن تُنجح مساعي التفرقة والتشتيت التي يبذلها الأعداء، لغرض معرفتها أوّلاً ومواجهتها ثانياً:

١) **الشرك**: الأفكار المشركة توزّع البشر وتفرّقهم، والمجتمع القائم على أساس الشرك يفرّق البشر إلى طبقاتٍ، ويجعل هذه الطبقات أجنبيّة على

بعضها.

وفي مثل هذا المجتمع، عندما تُطرح علاقة الإنسان بمبدأ الوجود وبالقوّة القاهرة والمتسلّطة على العالم، فمن الطبيعيّ أن يتفرّق البشر، ويبتعد بعضهم عن بعضهم، فينحاز أحدهم إلى إله، ويركن الآخر إلى إله آخر، ويؤمن الثالث بإله ثالث، وهذا بخلاف ما لو كان المجتمع توحيديّاً، سواء كان إسلاميّاً أم غير إسلاميّ، فإنّ المجتمعات التوحيديّة توجّه قلوب أبنائها نحو نورٍ واحد، وإله واحد، يفيء الجميع إليه، ويستمدّ الجميع منه، ويلتقي الجميع عنده. بخلاف المجتمع الذي يكون مبنيّاً على أساس الشرك، فإنّه يبني بين أبناء البشر والجماعات الإنسانيّة جدراناً مستعصية، ويحفر بينهم حفراً وهاويات لا يمكن ردمها.

٢) **الشيطان**: أينما كان هناك اختلاف بين المؤمنين وبين عباد الله الصالحين، فلا شكّ في أنّ الشيطان عدوّ الله حاضر هناك. فحيثما وجدنا اختلافاً فلنفتّش قليلاً، وسنجد من دون كثير عناء أنّ الشيطان هناك، أو الشيطان الذي في داخل نفوسنا، المسمى بـ النفس الأمارة بالسوء، وهو أخطر الشياطين. إذاً من وراء كلّ الاختلافات تقف: إمّا أنانيّاتنا وحبّنا للجاه والنفس، أو الشياطين الخارجيّة، ومنها: أيادي الأعداء والاستكبار والقوى الظالمة الجائرة.

٣) **الجهل وسوء الفهم**: لو علم المسلمون على وجه الدقّة أنّ الوحدة هي جوهر هذا الدين، وهي من صميم تعاليمه وأحكامه، لما وجدنا الأمّة الإسلاميّة تعاني من التفرقة ومن مظاهر الشقاق والنزاع. فعلى الأمّة الإسلاميّة اليوم، بنخبها السياسيّة والثقافيّة والدينيّة، وبأبنائها كافّةً، أن تكون متيقّظةً أكثر من السابق، وأن تتعرّف على حيل الأعداء ومخطّطاتهم وتواجهها، ومن أقوى هذه الحيل وأخبثها: هي إذكاء نيران الخلافات، التي لو اقترنت بغفلة من جانب المسلمين، أو لو أنّها اختلطت بالعصبيّة وسوء الفهم وانقطاع التواصل

والحوار، لاستطاعت أن تخلق من المسلمين أعداءاً يجابه بعضهم بعضاً.

إنّ التعصّب الأعمى لا يولّد إلّا المزيد من الجهل والعمى، كما نجده لدى بعض المذاهب التي تدّعي الإسلام اليوم، من الحقد وضيق الأفق، حتى أنّهم يعتبرون العالم الإسلاميّ كلّه كافراً، ما عداهم هم طبعاً، فنراهم يوزّعون تهم التكفير يميناً وشمالاً، وعلى مسائل صغيرةٍ تافهة، أو مسائل خالفوها اتّباعاً لأهوائهم وهي مرغوبة شرعاً وممدوحة عقلاً، ولكنّنا نسأل: هل يكون كافراً من يعشق النبي الأكرم ' ؟! وهل من يفرح في يوم مولده ' ويوزّع الحلوى ويظهر السرور يكون كافراً؟! وهل من يتقرّب إلى الله بحبّ أوليائه يكون كافراً؟!!

٤) **الزعماء وأصحاب السلطة**: إنّ الخلافات والتناقضات والمماحكات والصدامات والإساءات كانت موجودة بين الفرق والطوائف الإسلاميّة منذ قرون وإلى اليوم، وهي منذ ذلك الحين، وإلى الآن، في ضرر المسلمين وحدهم. وإذا تتبّعنا جيّداً، فسنجد أنّ غالبيّة هذه التناقضات والصراعات في التاريخ الإسلاميّ ترجع إلى أجهزة السلطة ورؤوس الأنظمة الحاكمة، وأنّ خيوطها كانت كلّها تقريباً بيد السلطات في جميع البلاد الإسلاميّة.

فالجهل والعصبيّة وحدهما ـ مع عظيم أثرهما ـ ما كان لهما أن يوجدا تلك الأحداث الدامية الكبيرة في التاريخ، لولا أجهزة الحكم وأصحاب السلطة ممّن كانوا يستفيدون في الجانب الشخصيّ والماديّ من تسعير نيران هذه الخلافات. ثمّ حينما دخل الاستعمار إلى البلدان الإسلاميّة، بات واضحاً أنّه ـ أيضاً ـ يتابع الهدف نفسه، ويمشي على نفس الطريقة والمنوال.

التفرقة: آفاتها ومخاطرها:

أن يعمل العدوّ على صناعة الفتن وإثارة القلاقل وإشعال النعرات

والحروب والصراعات، فهذا أمر طبيعيّ ومتوقّع للغاية.. ولكن أن نجد تيّاراتٍ وجماعات تنهض من داخل العالم الإسلاميّ وتتصدّى لهذه المهمّة المشؤومة، لا بل تتفرّغ لهذا الهدف الشيطانيّ الخبيث، فهذا أمر غير مقبول بتاتاً، ونكاد لا نجد تفسيراً واضحاً له!!

إلّا أنّ الصحوة الإسلاميّة الحقيقيّة، والوعي الإسلاميّ المتصاعد والمتزايد والمتنامي، استطاع اليوم أن يعرّي كثيراً من هذه التيّارات ويكشف عن وجهها الحقيقيّ أمام الرأي العامّ العربيّ والإسلاميّ والعالميّ.. ليتبيّن أنّ هذه الجماعات هي إمّا مدعومة بشكلٍ مباشر من الخارج، وإمّا أنّها من شذّاذ الآفاق الذين يقتاتون على الحقد والكراهية في حقّ الآخر، الذي قد يحمل فكراً مبايناً لفكرهم، وتوجّهات مغايرة لتوجّهاتهم.

وهؤلاء وأُولئك يتسلّحون اليوم، كما في السابق في عهد رسول الله ' بالنفاق والتزلّف والخداع والمداهنة للوصول إلى مراميهم الفاسدة.

فكما في السابق كانت الأموال تُنفق من أجل بناء مسجد ضرار، الذي نهى عنه رسول الله ' ، فكذلك اليوم، في وسط العالم الإسلاميّ المهدّد بكلّ هذه الأخطار الخارجيّة، يتصدّى بعض أرباب الأموال النفطيّة لإنفاق الأموال والثروات الطائلة من أجل صناعة الأجهزة وإيجاد القواعد والمقرّات بهدف توجيه الضربات للكيان الإسلاميّ الموحّد، وزرع النزاعات والاختلاف بين مختلف الفرق والمذاهب الإسلاميّة. وهؤلاء الأشخاص يذكّروننا في حقيقة الأمر بالشيطان الذي قال لربّ العالمين: {لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}[ص: ٨٢]، فكما وقف الشيطان نفسه لإغواء وإضلال عباد الله، كذلك هؤلاء ـ أيضاً ـ أوقفوا وجودهم لإيجاد الفرقة وبثّ الخلافات!!

ومن ألاعيبهم المكشوفة، التي ـ وللأسف الشديد ـ عادت بالكثير من الويلات على الواقع الإسلاميّ العامّ، حاولوا أن يُلبسوا الإسلام ذلك الوجه

الإرهابيّ الأسود، الذي يفعل فعله في تمزيق المسلمين في أرجاء مختلفة من العالم الإسلامي، من الجرائم والفظائع التي ارتُكبت في العراق، إلى الهند وأفغانستان وباكستان وكشمير و..

فهم باسم الإسلام، ينشطون ضدّ المسلمين، وهم باسم الإسلام يحاولون عرض الإسلام في العالم الغربيّ عبر وجه الجماعات المتحجّرة والإرهابيّة المندسّة في أقطارٍ من العالم الإسلاميّ، حتى بات الإسلام في منظور المدارس الفكريّة الأُخرى ديناً للعنف والدماء، وهو أبعد ما يكون في حقيقته عن كلّ ذلك.

ومن ألاعيبهم أيضاً محاولة تشويه فكر ومذهب أهل البيت، وعرضه بشكلٍ بعيد عن حقيقته أشدّ البعد، حتى وصل الأمر بكثيرٍ من علماء البلاط العملاء للسلطات في البلدان المختلفة إلى تكفير الشيعة، واعتبارهم فرقةً خارجةً عن الدين الإسلاميّ، إرضاءاً لأهداف أمريكا ومن معها من أرباب الهيمنة العالمية والحكومات العميلة والتابعة لهم.

والحقيقة أنّهم جعلوا الشيعة والسنّة يقفون بوجه بعضهم على مدى ألف سنة، حتى كتبوا الكتب ضدّ بعضهم، وأهانوا مقدّسات بعضهم، هذا الخلاف بين شرائح المسلمين من سنّة وشيعة، وإن كان له خلفيّات ذهنيّة معيّنة، إلّا أنّ العدوّ يستغلّ هذه الخلفيّات لتسعير النيران بين هاتين الفرقتين الإسلاميتيّن الكبريين.

كما أنّهم في بعض البلدان الإسلامية يحثّون أحياناً بعض رجال الدين الشيعة على إطلاق كلام معين يستفزّ أهل السنّة، أو يحرّضون بعض رجال الدين السنّة على التحدّث بشيء يستفزّ عواطف الشيعة، وهكذا..

وهنا نقول: إنّ الخطر الأكبر الذي يهدّدنا في العالم الإسلاميّ اليوم هو التفرقة، فنحن إذا لم نوحّد كلمتنا، ولم يقف بعضنا إلى جانب بعض، فإنّ العدوّ سيطمع فينا، لذلك علينا أن نعمل على إشاعة ثقافة الوحدة والاتحاد والتقارب

بين المسلمين، إن على صعيد الدول والحكومات، وإن على صعيد الشعوب المسلمة. وينبغي تجاوز نقاط الاختلاف، وغضّ النظر عنها؛ فإنّ نقاط الاختلاف إن كانت ممكنة الحلّ، فيجب على الواعين في هذه الأمّة العمل على حلّها، وإن كانت مستعصيةً على الحلّ على المدى القريب، كما هو الحال في بعض المسائل الخلافيّة، فيجب على المسلمين تجاوزها وغضّ الطرف عنها. وهذا هو بالضبط ما يضير الصهاينة والأمريكيّين، وهم يبذلون قصارى جهدهم لنسفه والتغلّب عليه.

وإذا كان أنصار القرآن وأتباع هذا الدين الإسلاميّ الحنيف، من أيّة فرقة كانوا، أو إلى أيّ مذهب انتموا، إذا كانوا صادقين فيما يقولون، ومخلصين حقّاً في انتمائهم الدينيّ والتزامهم المذهبيّ، وكانوا يريدون حقّاً بقاء القرآن عزيزاً عظيماً كما يزعمون، فليعلموا جيّداً أنّ كلّ هذه الصرخات، وهذه الأقلام المأجورة، وهذه الأموال القذرة والخبيثة التي تُنفق في بعض البلدان لزرع الخلافات، ما هي إلّا عقبة في طريق شموخ الإسلام، وهذا لا يكون إلّا من فعل أعداء هذا الدين، والحاقدين على هذه الأمّة.

ويحلو لنا في ختام هذه المقالة أن نختم بكلماتٍ قالها مفجّر الثورة الإسلاميّة الإمام الخميني رحمه الله:

«ولكنني مضطر إلى إعادة القول بأن أسفي الشديد نابع من عدم توحد رؤساء الدول الإسلامية عامَّة والدول العربية خاصَّة. كلما طرحت فكرة الوحدة والاتفاق أثار عملاء الاستعمار الخلاف والتفرقة بأساليبهم الماكرة الخاصة بهم. إنّ سبع مئة مليون مسلم أو أكثر من ذلك، ومئة مليون عربي أو يزيد لم يتمكّنوا من نيل الاستقلال الحقيقي، ولم يستطيعوا الخلاص من مخالب الاستعمار، ولم يستطيعوا دحر عدد قليل من اليهود في اسرائيل المغتصبة الذين يُهدِّدون أرضنا وشعوبنا وتاريخنا وتراثنا، كما لم يستطيعوا استعادة أراضيهم. إنّ

هذا وكثيراً من القضايا الأخرى هو ما أتحدث به منذ ما يقرب من خمسة عشر عاماً، وواجبكم الإسلامي والقوميّ يملي عليكم أن تُضحّوا من أجل توحيد الدول العربية ووحدة صفّهم بكلّ جدّيّة، إضافة إلى واجبكم الثوري في سبيل تحرير أرض فلسطين»[٤].

* * *

الهوامش:

(١) البخاريّ، أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل، صحيح البخاريّ ١: ١٠٢، كتاب الصلاة، باب: فضل استقبال القبلة، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١م، مصورة عن طبعة دار الطّباعة العامرة باستانبول.

(٢) سنن ابن ماجة ١: ٨٤، تحقيق وتعليق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٣) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار ٢٠: ١٢٦، الطَّبعة الثَّالثة ١٤٠٣، دار إحياء التُّراث، بيروت.

(٤) صحيفة الإمام ٣: ٢٣٣.

فلسفة السلام في الإسلام

جدلية العدل والقوّة والسلام

□ أ. الأسعد بن علي قيدارة (*)

تمهيد

في العادة، ولمعالجة مثل هذه الإشكالية التي يرتبط فيها الفكر بالسياسة، نمطلق منهجياً من التنظير والتحليل الفكري والتأمل العقلي، وننتهي أخيراً للربط بالواقع وتحليل الوضع السياسي في ضوء النتائج النظرية.

لكنّ الإطار الزماني والمكاني يقتضي في مقامنا أنْ نعدّل النهج لنبدأ بالواقع وننتهي بالفكر.

وهذا التعديل في التعاطي مع «قضية السلام» في منظور الدين عموماً، والإسلام خصوصاً، تقتضيه خصوصية المرحلة التاريخية، أو بالأحرى المنعرج التاريخي الحاسم في العلاقات الدولية ومصير المجتمع العالمي، فالصورة المهيمنة

(*) باحث إسلامي متخصص في الكلام الجديد/ تونس.

على العالم اليوم هي «الفوضى المنظمة» التي تسعى القوى الاستكبارية في العالم على إيقاعها للحيلولة دون مصير السقوط المحتوم الَّذِي بدأ يدبُّ في أوصالها ونخر مراكز القوة فيها: (القوة المالية، والقوة العسكرية، الهيمنة الاستخباراتية... الخ).

وذلك باستباق أو الركوب على بعض الثورات والتحولات الاجتماعية في بعض البلدان، أو افتعال أزمات، وتصدير اضطرابات إِلَى بلدان أُخرى تقف في وجهها سدّاً منيعاً ضدّ مصالحها وخططها.

إِنَّها تسعى ـ وخاصة الولايات المتحدة ـ للتغطية على الأزمات الداخلية العميقة وإخفاقاتها المريعة في أكثر من منطقة في عالمنا الإسلامي كالعراق، وأفغانستان، والخليج، و... .

ولمّا كانت كلّ مواجهة سياسية وعدوان استكباري بحاجة إِلَى أرضية ثقافية يستند إليها، اعتُمد التضليل الإعلامي والتزوير الفكري وفوضى المفاهيم كأركان أساسية في الاستراتيجية الثقافية الفكرية لهذا المشروع، فحرّفوا العديد من المفاهيم، وروّجوا لمصطلاحات حمّلوها مضامين عجيبة غريبة، فغدا التدخّل الأجنبي والتحالف مع الأمريكان ثورة!!.

وتدمير الأوطان والاستعانة بالأجنبي تحوّل ديمقراطي!!.

وإسقاط الأنظمة غاية تبرّر كلّ الوسائل المباحة وغير المباحة!!.

الإرهاب والتقتيل والإجرام وسفك الدماء: نضال وممانعة لأجل الديمقراطية!!.

وتدخّل الناتو، وتدمير البنى التحتية للأوطان، ومقتل الآلاف من الأبرياء دفاع عن حقوق الإنسان، وتكريس للشرعية الدولية!!.

وكانوا بالأمس القريب يسمُّون كلّ أشكال المقاومة الشريفة ومقارعة الاحتلال الأجنبي في فلسطين ولبنان والعراق بالإرهاب!!.

في سياق هذه الفوضى المفاهيمية وضياع المعاني[1]، نعتقد أنَّ موضوع «السلام» وفلسفة الإسلام حوله بحاجة إِلَى معالجةٍ هادئة تتنبّه إِلَى الصِّراع الفكري المحتدم وإلى مؤتمرات الآخر التحريفية التزويرية، فقد ينزع البعض ـ وبسبب التهويل ضدّ المفاهيم الدينية في العالم المعاصر ـ إِلَى إطلاقية في فهم السلام في الإسلام، مِمَّا يفرّغ الأُمة من عناوين عديدة شكّلت أساس عزّتها ومناعتها، كفمهوم القوّة، والعزّة، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأُمة الوسط، والشهادة على الناس، و... .

وقد يفرّغ البعض السلام من محتواه؛ ليتحوّل السلام معه إِلَى استسلام وخضوع وخنوع!.

وفي هذا البحث محاولة لتخطّي هذا المفهوم الزائف ونقده، والكشف عن المفهوم الأصيل لفلسفة السلام في الإسلام.

والمحاولة تستهدي طريقها عبر أربعة عناوين أساسية:

- ✓ **أوّلاً: السلام مقصد أساسيّ من مقاصد الإسلام.**
- ✓ **ثانياً: السلام مقولة تحكمها قاعدة «العدل».**
- ✓ **ثالثاً: ثلاثية العدل والقوّة والسلام.**
- ✓ **رابعاً: مستقبل السلام العالمي في ضوء فلسفة الإسلام.**

أوّلاً: السلام مقصدٌ أساسي من مقاصد الإسلام

في اللغة لفظ السلام له معانٍ عدّة[2]، من ذلك:

أ. التسليم.

ب. التحية.

ج. السلامة والبراءة من العيوب.

د. الصلح.

و «السلام» اسم من أسماء الله سبحانه؛ لسلامته من النقص والعيب والفناء[٣].

وسلم هو الجذر اللغوي للسلام، يقال: سَلِمَ من الآفات ونحوها سلاماً وسلامة: برئ.

ومن هنا يطلق على الملدوغ: السليم؛ تفاؤلاً بسلامته ومعافاته.

والسلّم: ما يرقى عليه إِلَى الأماكن العالية؛ يسمّى كذلك لأنّه يُسلّمك إِلَى حيث تريد.

أمّا في الاستعمال القرآني اطّرد لفظ السلام ومشتقاته مرّات عديدة، من ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴾ [النساء: ٩٠].

ففي هذه الآيات دعوة صريحة للدخول في السلم والجنوح له، فالسلم غاية المؤمنين، وهم مأمورون كافة بالدخول فيه، وهو مقصد يسعى التشريع لتكريسه كما ينبئنا ظهور هذه الآيات.

والمتابعة الدقيقة للاستعمالات القرآنية يجد تفصيلات أُخرى لهذا النداء الإلهي للدخول في السلام، وتكريس السلام في العلاقات مع الآخرين: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ﴾ [النساء: ٩٤].

فالإسلام دين التسليم والإذعان لحقائق الكون بغية تحقيق السلام النفسي والفكري:

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:

٧١].

وقال: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

وقال: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

هذا التسليم لحقائق الكون الكبرى والإذعان لقوانين العدل والقوة الإلهية المهيمنة على العالم خطوات المؤمن الأُولى لتحقيق السلام، فالإسلام هداية إلهية للإنسان إِلَى سبل السلام النفسي والاجتماعي والكوني: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦].

وتتحرّك مسيرة المؤمن بعقيدة السلام في نهاية المطاف ولقاء ربّه، فتكون له دار السلام:

- ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧].
- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦].
- ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤].
- ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠].

هكذا ينطلق الإنسان في إطار عقيدة الإسلام وفلسفته في مسيرة كادحة نحو الله «منبع السلام»: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣]، رحلة تنبع من التسليم لله (السلام)، تستهدي سبل السلام إِلَى دار الخلد دار السلام.

وتتجلّى هذه الميزة الكونية المجللة بالسلام في مصداقيتها الأبرز مع الأنبياء والأولياء.

- ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].
- ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].
- ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الصافات].

ـ ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الصافات].

ـ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الصافات].

ـ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصافات].

هكذا تؤكّد هذه القراءة السريعة لآيات الكتاب أنَّ السلام مقصدٌ حقيقيّ للدين في عقائده وتشريعاته.

وهذه الحقيقة القرآنية ستلقي بظلالها على العديد من التشريعات الأخلاقية والاجتماعية.

فالكثير من الأحكام في الفقه والأخلاق ترتبط بهذا المقصد السامي، كالرفق، واللّين، والصلح، والعفو، والتسامح، و... .

فالشريعة تسعى لليسر ونبذ العسر والشدة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وهذا يدفع الفرد أكثر فأكثر نحو الرفق وعدم التشدُّد في علاقته مع الآخرين: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ـ ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ـ ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [النساء: ١١٤].

ـ ﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ [النساء: ١٢٨].

ـ ﴿ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

ـ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ـ ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٣].

ثانياً: السلام مفولة تحكمها قاعدة العدل

في الفقرة السابقة استكشافٌ لمفهوم السلام في القرآن الكريم قادنا إِلَى كونية هذا المفهوم وشموليته في التصوّر الإسلامي:

- ✓ سلامٌ نفسيٌّ وروحي.
- ✓ سلامٌ اجتماعيٌّ.
- ✓ سلامٌ عالميّ.

واتضح لدينا أنَّ السلام أصلٌ تشريعيٌّ ومقصدٌ مهمٌّ من مقاصد الشريعة، وعنه تتفرّع الكثير من التشريعات.

إِلَّا أنَّ إشكالاً يرد على هذا التقريب، وهو في جوهره إشكالٌ على المنهجية التجزيئية في معالجة المفاهيم الفكرية والاجتماعية والأخلاقية، فالباحثون كثيراً ما يستغرقون خلال دراستهم لمفهومٍ ما أو ظاهرة محددة في تفاصيل ذلك المفهوم أو تجليات تلك الظاهرة، ويغفلون عن المفاهيم الأُخرى في منظومة الأخلاق، إنْ كان المفهوم أخلاقياً، أو منظومة الاجتماع إن كان المفهوم اجتماعياً، أو في النظرية السياسية إن كان المفهوم سياسياً.

بينما المعالجة الدقيقة تستوجب اعتماد المنهج الترابطي الموضوعي الَّذِي يسعى ما أمكن لقراءة هذه المفاهيم أو تفسير تلك الظاهرة في نطاق المنظومة الفكرية الكاملة.

لقد عمّقت الدراسات الفقهية بالخصوص هذه النزعة، ففي هذه الدراسات يتوجّه الفقيه بكلّ قواه وتركيزه نحو هذه المسألة أو تلك، ويحاول الوصول إِلَى الحكم الشرعي ويستخرجه من مظانه، غافلاً تمام الغفلة عن ما سواه من قضايا ومسائل.

إِنَّ اعتماد مثل هذا المنهج الذرّي التجزيئي يشوّه أحياناً الحقيقة، ويقدّم صورة مجتزأة لا تطابق الواقع.

والقراءة السابقة لمفهوم «السلام» بهذه الحدود التي قدمناها تسقط في الخط

المنهجي نفسه، فأين علاقة هذا المفهوم بسائر المفاهيم الإسلامية، كالجهاد، وإعداد القوة، والعقاب، والقصاص، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وردّ الاعتداء، و... ؟!

إنَّ القراءة السابقة تحجب نصف الحقيقة!! بل هي تفرّغ الإسلام من العديد من المفاهيم والتشريعات الأساسية، وتجعله يتماهى مع بعض دعوات اللاعنف والسلم المطلق الَّذِي يسجّل عليها الفكر الإسلامي احترازات، ويقف منها موقف الريبة.

إنَّ التصحيح يقوم على مفهوم نستعيره من الأُصوليين «الحكومة»، وأنْ يحكم دليلٌ على دليل يعني: أنْ يقدّم هذا الدليل على الثاني، ويفسّر الأوّل في ضوئه، وجوهر التصحيح يقوم بملاحظة مقصد آخر أهم؛ لاحظه الشارع في أحكامه وتشريعاته، وأقام عليه الدين تصوّراته ومفاهيمه، وهو مقدّم وحاكم على مفهوم «السلام».

وهذا المفهوم الآخر هو «العدالة»، ولا غرابة في ذلك، فالقائلون بمقاصد الشريعة يقدّمون بعضها على بعض، ولا يرونها في مرتبة واحدة.

فحفظ الدين مقدّم على حفظ النفس، وحفظ النفس مقدّم على حفظ المال مثلاً، وهكذا... .

وفي المقام يتراءى لنا السلام قيمة أخلاقية عالية ومقصد أساسي، لكنّ العدل مقصد حاكمٌ عليه. فالسلام هدفٌ ومنهاجٌ في الحياة ما دامت قيمة العدالة محفوظة ومصانة.

أمّا إذا كان السلام سيؤدي إِلَى الظلم وضياع العدالة، فستتقدّم مبادئ إعداد القوّة، والجهاد، والحرب، على أخلاقيات اللين والرفق و... .

إنَّ العدالة قيمة أخلاقية مطلقة لا تحكمها أيّة قيمة أخرى، فالعدل صفة إلهية وأصل من أُصول الدين، وهو أساس التكوين، والتشريع، والجزاء.

فالعدل التكويني يتجلّى في التوازن بين أجزاء الكون والتناسق بين مفرداته، فالعالم خلق عليها في أجمل صورة ممكنة: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. وفي الحديث: «**بِالْعَدْلِ قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ**»(٤).

فعالمنا تحكمه قوانين دقيقة، وهو في كلّ مفرداته مظهر للتوازن والاتساق، لم يبخل الفيض الإلهي على كلّ واحدة من هذه المفردات بالمرتبة الوجودية التي تستحقها، فلا ظلم في عالم التكوين، ولا يبخس أيّ موجود حقّه واستحقاقه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧].

والعدل التشريعي يُعبّر عن إرادة مولوية لتجسيد الإنسان العدل في نفسه أوّلاً: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات].

وأنْ تحكم علاقات الناس بعضهم ببعض موازين القسط والإنصاف ثانياً، فجعل غاية إرسال الرسل إقامة العدل: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

ـ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ [ص: ٢٦].

ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

ـ ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الأعراف: ٢٩].

ـ ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [النساء: ١٣٥].

ومن الأدلة القرآنية المهمة على أهمية النضال الاجتماعي من أجل تكريس العدالة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل

عمران: ٢١]، فلقد عطفت الآية الكريمة جريمة قتل هذا الصنف من الناس الَّذِين يطالبون بالعدل الاجتماعي على جريمة الكفر وقتل الأنبياء.

العدل في الجزاء:

وفي عالم الجزاء الأخروي يُحاسب الناس ولا يظلم أحد البتة:

ـ ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ـ ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [يونس: ٤].

ـ ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥٤].

فالعدل قانون التكوين وسقف التشريع وقاعدة الجزاء، قيمة مطلقة قبل الحياة الدنيا ومعها وبعدها.

ومن الأدلة التي تدعم هذه القراءة ـ أولوية قيمة العدالة ـ ما جاء في آيات تشريع الجهاد؛ حيث يوحي السياق بتعليل تشريع الجهاد؛ دفع الظلم عن المؤمنين وتكريس العدالة الإلهية: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج].

فالعدل أساسٌ لتشريع القتال؛ بل نفهم من الآيات الكريمة أنَّه غايته أيضاً؛ لأنّ هؤلاء الَّذِين ينصرهم الله ويمكّنهم في أرضه سيقيمون الصَّلاة (العدل في النفس)، ويؤتون الزكاة (العدل في توزيع الثروة)، ويأمرون بالمعروف وينهون

عن المنكر (العدل الاجتماعي).

ثالثاً: ثلاثية العدل والقوة والسلام

إنَّ التحليل السابق في استكشاف مفهوم السلام وعلاقته بمنظومة القيم الإسلامية قادنا إِلَى نتائج مهمّة:

أوّلاً: العدل

أساس القيم الأخلاقية، فهو قيمة القيم، وهو غير قابلٍ للتخصيص تحت أيّ طائل، فكما أنَّه وعلى مستوى العقل النظري لا يمكن تخصيص أو تقييد قضية استحالة اجتماع النقيضين، كذلك على مستوى العقل العملي لا يمكن تخصيص قضية حُسن العدل وقبح الظلم.

فالظلم مهما كانت مبرراته وعناوينه، ومهما حاولنا أنْ نجد له تخريجات وتلوينات دينية أو شأنية ... الخ، فهو قبيحٌ مرفوضٌ؛ لذلك نقرأ في سيرة الإمام عليّ عليه السلام ـ رمز العدالة والإنسانية ـ أنَّه لم يقبل التفاوت في العطاء التي كرّسته دولة الخلافة على أساس ديني، ولمّا أراد تصحيح السياسة وإعادة موازين العدالة إِلَى مجراها، احتجّ بعض الصحابة على التسوية بينهم وبين غيرهم، كما جاءت امرأة عربية تحتج كيف تتساوى مع غيرها من غير العربيات!!.

ثانياً: السلام

فهو مقصد مهمّ في تنظيم حياة الناس وإدارة شؤونهم، تتفرّع عنه العديد من التشريعات والأحكام، لكنّه محكوم بقاعدة العدل، فإنْ أدّى السلام لتكريس الظلم وضياع الحقوق والقيم فلا قيمة له، ويجب إرجاع الحقوق لنصابها، ولو سقط على هذا الدرب السلام.

ثالثاً: العدل في الإسلام

على قاعدة العدل تتسق منظومة القيم، وتفسّر علاقة الرفق بالجهاد، واللين

بالقتال، والتسامح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ودون اعتماد هذه القراءة لا يمكن أنْ نفهم فلسفة السلام في الإسلام.

ولكنّ إقامة العدل ليست مهمة سهلة، فعلى المستوى الفردي يعدّ تحقيق العدالة الذاتية، وحمل النفس على الحقّ والعدل من أكبر المجاهدات.

وعلى مستوى المجتمع والعالم لا تزال البشرية تستهدي الطريق لقيام مجتمع الحق والعدل، وقد دفعت ثمن هذا السعي الدؤوب من الآلام والمآسي والتضحيات ما ناءت تحت وطأته الأراضين الراسيات.

ومن هنا اتجهت الشريعة إِلَى تنظيم هذا الحراك نحو العدل على المستويين:

- مستوى الذات: انطلاقاً من النظرية التربوية الأخلاقية.
- متسوى المجتمع والعالَم: من خلال التشريعات والنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

ولئن كانت الحرب الداخلية (المجاهدة) من أجل إحقاق الحق وتحقيق التوازن النفسي وملكة العدالة في النفس من مسؤوليات الفرد؛ فإنّ إحقاق الحق والانتصار لقيم الحق والعدل في العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية هي مسؤولية الأُمة والمجتمع.

من هنا كانت إحدى محاور الانقسام الاجتماعي الأساسية الموقف من العدل، فبعض الأصناف الاجتماعية مِمّن احتكروا بعض الامتيازات على مستوى الثروة أو السلطة أو المكانة الاجتماعية لا يخدم العدل مصالحها، بل تجد في نظم العدالة الاجتمعية تهديداً لمواقعها.

وعلى مستوى العلاقات الدولية، إِنَّ القوى العظمى المتحكمة في مقدرات الشعوب وسياسات العالم لا يمكن أنْ تذعن لأنظمة الحقّ والعدل.

من هنا كانت الحاجة إِلَى قوة تحول دون اعتداء المتآمرين على قيم الحق والعدالة في العالم، الَّذِين تضر موازين القسط وشرائع العدالة بمصالحهم

وتعصف بمطامعهم.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال].

من هنا نفهم تأكيد النُّصوص على القوة وامتلاك أسبابها.

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣].

ولّما كانت هذه القوّة لتكريس قيم العدل، كان تحصيلها وتفعيلها وممارستها ممارسة أخلاقية حتى في أعتى تجلياتها ومظاهرها: الحرب والقتال. فالحرب ليست مرفوضة مطلقاً كما يدّعي البعض(٥).

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

بل كيف تكون الحرب مرفوضة مطلقاً؟ ففرقٌ بين الحرب العدوانية التي تهدّد السلام عندما تحتلّ أرض شعب، أو تنتهك كرامة فئة، أو تصادر ثروة بلد، ولكن إذا كانت الحرب من أجل ردّ الاعتداء، فمثلاً: لو اعتدى شخصٌ على أرضنا، ويطمع في مالنا وثروتنا، وفي حريتنا وشخصيتنا، يريد أنْ يسلبها، فماذا يجب أنْ يقول الدين هنا؟!

هل يجب أنْ يقول إنَّ الحرب شرّ على الإطلاق، واستعمال السلاح سيّء، وشهر السيوف كذلك، وإننا نؤيد السلام؟!!

من البديهي أنَّ هذا الكلام سيكون مضحكاً.

الخصم يحاربنا، ويجب ألا نحارب من اعتدى علينا، وأراد أنْ ينهب أموالنا وممتلكاتنا، ولا ندافع في الواقع عن أنفسنا، كلّ ذلك بحجة السلام، هذا ليس سلاماً، هذا استسلام(٦).

إنَّ حتمية الصراع بين المعسكرين لا جدال فيها، لا يمكن أنْ يسكت

معسكر الشر وأصحاب المصالح والأطماع على معسكر القيم والأخلاق والتوحيد!!

والحرب ترجمة لقانون فطري «قانون التدافع» ومصداق من مصاديق هذه السنة الفطرية كما يذهب إليه صاحب الميزان[٧].

هذه السُّنّة أشار إليها القرآن الكريم في موردين مهمين:

أوّلاً: في حرب داود مع جالوت؛ حيث تغلبت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة، يقول تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة].

ثانياً: عند تشريع الجهاد والإذن للمسلمين الأوائل بالقتال، يقول تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج].

وهذه السنة ـ دفع الله الناس بعضهم بعضاً ـ وإنْ جاءت في الموردين في سياق الحديث عن القتال، «لكنّ المراد بدفع الله الناس بعضهم لبعض أعم من القتال، فإنّ دفع الناس بعضاً ذباً عن منافع الحياة وحفظ الاستقامة حال العيش سنة فطرية جارية بين الناس، والسنن الفطرية منتهية إليه، والقتال في الإسلام من فروع هذه السنة الفطرية الجارية»[٨].

فالحرب والقتال ـ كمصداق لهذه السنة (التدافع) ـ ضرورة لحفظ الاجتماع الإنساني والمقاصدى العليا في الحياة، وردعاً للظلم والجور، ولولاه لهدمت المساجد والمعابد، كنايةً عن تلاشي القيم الدينية الخالدة.

فالتدافع هو سرّ بقاء نظام الاجتماع الإنساني، نتيجة التأثير والتأثّر.

وهو يناظر النظام التكويني، «فلولا المغالبة بين الأسباب التكوينية وغلبة بعضها على بعض واندفاع بعضها الآخر عنه ومغلوبيتها له لم يرتبط أجزاء النظام بعضها ببعض بل بقي كلّ على فعليته التي هي له، وعند ذلك بطل الحركات فبطل عالم الوجود. كذلك نظام الاجتماع الإنساني لو لم يقم على أساس التأثير والتأثر، والدفع والغلبة لم يرتبط أجزاء النظام بعضها ببعض، ولم يتحقق حينئذ نظام وبطلت سعادة النوع، فإنّا لو فرضنا ارتفاع الدفع بهذا المعنى، وهو الغلبة وتحميل الإرادة من البين كان كلّ فرد من أفراد الاجتماع فعل فعلا ينافي منافع الآخر ـ سواء منافعه المشروعة أو غيرها ـ لم يكن للآخر إرجاعه إلى ما يوافق منافعه ويلائمها وهكذا، وبذلك تنقطع الوحدة من بين الأجزاء ويبطل الاجتماع»[٩].

فلسفة الجهاد في ضوء فلسفة السلام

قادتنا ثلاثية العدل والقوة والسلام إِلَى قانون الدفع وتشريع الجهاد، ولذا لكي يكتمل المنظور لفلسفة السلام لا بدّ من الوقوف عند فلسفة الجهاد ومقاصده وأسرار تشريعه، فهذا المفهوم تعرّض بدوره أيضاً إِلَى التزوير والتشويه، وألقى هذا الفهم الخاطئ لفلسفة الجهاد بظلاله على فهمنا للسلام وموقعه في منظومة القيم الإسلامية وموقعه في مقاصد الشريعة.

ومما زاد الأمر تعقيداً خضوع أغلب الباحثين والدارسين لسلطة المشهور الفقهي في أحكام القتال والدفاع وتفاصيل باب الجهاد، دون مراعاة الفوارق

التاريخية بين الفقهاء السابقين وزمننا الحاضر.

لم يسلم فقه الجهاد في الماضي من التوظيف السلطاني، فقد استخدمت السلطة هذا المفهوم لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية، ولم يكن الكثير من الفقهاء ليخيّب رغبة السلطان في التفسير الشرعي الفقهي لمثل هذه التوجهات.

كما لم يسلم ـ للأسف الشديد ـ فقه الجهاد اليوم من التوظيف الحزبي والسياسي لدى بعض الجماعات المتطرفة الإجرامية التي تمارس القتل والعنف المجاني باسم الدين.

ومن جهةٍ أخرى لم يسلم من التوظيف الإعلامي الغربي والمعادي لتشويه الإسلام والمسلمين، خاصة في وسائل الإعلام الغربي بعد أنْ منحتهم هذه الجماعات مادة غنية لتشويه الدين وتلطيخ صورته.

وفي هذا السياق (الجهاد في ضوء فلسفة الإسلام) نؤكد على النقاط الآتية:

١. أساس التشريع.
٢. تشريع القتال في السيرة وحقيقة حروب الرسول ' .
٣. ملاك القتال.
٤. بين الجهاد والسلام.

١. أساس التشريع:

المستقرئ لآيات الكتاب يجد أنَّه لم يشرّع الجهاد في بداية الدعوة، بل كانت الأوامر الإلهية تدعو للكف عن القتال والصبر على أذى المشركين: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [المزمل: ١٠].

ورغم التنكيل الَّذِي لحق بالرعيل الأوّل من أتباع الرسول ' إلَّا أنَّه كان يدعوهم للصبر والثبات: «**صبراً آل ياسر فإنّ موعدكم الجنّة**»(١٠)، ولم يشرّع لهم القتال حتى دفاعاً عن النفس، إلَى أنْ نزل الإذن الإلهي في المدينة وبعد الهجرة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج].

وهكذا شرّع القتال دفاعاً عن النفس ودرءً لفتنة المؤمنين عن دينهم: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأنفال].

٢: تشريع القتال في السيرة ومسار حروب الرسول ' :

لم تكن حركة الرسول ' في الجهاد ونشر الرسالة سوى تطبيقاً دقيقاً للفلسفة القرآنية في القتال، ولم تكن القوة واستخدام السيف سوى ضرورة للدفاع عن الأمة والإنسان ومصالحه العليا في الوجود، «لم تكن حرب من حروبه ابتدائياً لمحض الدعوة إِلَى الإسلام وإنْ جاز ذلك للإصلاح الديني والمدني وتثبيت نظام العدل والمدنية ورفع الظلم والعوائد الوحشية الجائرة القاسية، ولكن دعوته الصاحلة الفاضلة تجنبت هذا المسلك وسلكت ما هو أرقى منه وهو الدعوة إِلَى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وكانت حروبه بأجمعها [قد استقرأ الكاتب غزواته ' واحدة واحدة وعرض أسبابها] دفعاً لعدوان المشركين الظالمين عن التوحيد وشريعة الإصلاح والمسلمين ومع ذلك فهو يسلك في دفاعه أحسن طريقة يسلكها المدافعون وأقربها إِلَى السلم والإصلاح والقيم والموعظة، ويدعو إِلَى الصلاح والسلام، ويجنح إِلَى السلم، ويجيب إِلَى الهدنة، ويقبل عقد الصلح»[11].

وتكشف لنا سيرة الرسول ' أنَّه لو قدّر للمسلمين الأوائل ألّا يجدوا مواجهة عنيفة وصداً أو منعاً من الخصوم، ولم يلقوا ما لقوه من محاربة وتقتيل وتعنيف لما لجؤوا للقوة والقتال، ولاكتفى الرسول ' بالوعظ والكلمة الحسنة، ولكن مسؤولياته في إنذار العالمين وإيصال صوت الرسالة إِلَى كلّ الناس أوجبت عليه إزالة كلّ الموانع والحواجز ولو بالقوة.

٢. أهداف القتال في القرآن:

مسألة أخرى تؤكد أنَّ فلسفة الجهاد في جوهرها تتناغم مع فلسفة السلام، أهداف القتال في القرآن وأنْ استخدام القوة ـ كما ينظر القرآن ـ لا ينطلق من غايات عدوانية أو يستهدف التعدي على حقوق الآخرين، بل بالعكس يسعى لردّ العدوان وكفالة البيئة السليمة المناسبة لحياة يسودها العدل والسلم.

والأهداف التي صرّح بها القرآن الكريم، هي:

أ. رد العدوان، والدفاع عن المحرمات:

كما في قوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج].

وقوله: ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ ﴾ [البقرة].

ففي الآيات (البقرة: ١١ – ١٢) «نصّ على سبب القتال هو اعتداء المشركين الَّذِين اعتدوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم ظلماً وعدواناً، وفيها نهي عن الاعتداء والخروج عن الحدّ في القتل».

ب. الانتصار للمظلومين والمستضعفين:

يقول تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥].

ويقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٢].

ج. منع الفتنة:

ويقول: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ ﴾ [البقرة:

٢١٧].

ويقول: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

ويقول تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

د. الرد على نكث العهود ونقض المواثيق:

يقول تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢].

هـ. حماية النفوس والحيلولة دون المخاطر المحدقة ببلاد الإسلام:

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وتؤكد هذه الأهداف أنَّ الجهاد في جوهره دفاعٌ وتوظيفٌ أعلى للقوة في ردّ العدوان حاصل أو محتمل الوقوع، والحيلولة دون الموانع والحواجز الَّذِي تحول دون انتشار الرسالة ودون المستضعفين وحقهم الإنساني في العدالة والحياة الكريمة.

من هنا عبّر القرآن الكريم عن الاستجابة لنداء الجهاد استجابةً لما فيه حياة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

«فسمّي القتال الَّذِي يدعى له المؤمنون السلم، ومعناه أنَّ القتال نداء كلي بعنوان الدفاع عن المسلمين أو عن بيضة الإسلام أو كان قتالاً ابتدائياً [لردّ عدوان محتمل] كلّ ذلك بالحقيقة دفاع عن حقّ الإنسانية في حياتها، ففي الشرك بالله سبحانه هلاك الإنسانية وموت الفطرة، وفي القتال وهو دفاعٌ عن حقها إعادة لحياتها وإحيائها بعد الموت»[١٢].

رابعاً: فلسفة السلام العالمي في ضوء فلسفة الإسلام

لا يشك أحد اليوم أنَّ العالم تحفّه مخاطر، وأنّ الحروب لم تخف وطأتها منذ فجر التاريخ النبوي، والشيء الَّذِي تغيّر وتبدّل وسائل الحروب التي تطوّرت تبعاً للتطور العالمي والتقني، وهنا يكمن الخطر، فنحن نعيش في عالم يمتلك بعض الأطراف فيه أفتك أنواع الأسلحة وأحدث الوسائل التقنية التدميرية والقتل والفتك وإدارة الحروب، والمحصلة أنَّ هذه القوة الكاسحة تمتلكها أطراف في أدنى درجات الالتزام الأخلاقي والمعنوي.

إِنَّ الصهيونية والرأسمالية العالمية النازية في الدول الغربية والولايات المتحدة خصوصاً، هما الخطر الَّذِي يهدد السلام العالمي، بل إِنَّهم يدمرون هذا السلام يوماً بعد آخر تحت شعارات براقة فارغة تتحدث عن الشرعية الدولية وحقوق الإنسان والنظام العالمي... الخ.

سعى الإسلام في تاريخه أنْ يبشّر رسالة التوحيد التي تمثّل استجابة عميقة لحقوق الإنسان في نظام حياتي يضمن العزة والكرامة والعدالة ويؤمن فرصة الترقي والتقدم المدني والتكامل المعنوي، وذلك بإيجاد الحياة الكاملة التي توفّر للناس حاجاتها المادية والمعنوية: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾ [قريش: ٤].

ولأنّ المشرّع يعلم أنَّ أجواء الفتن والحروب تعطّل قوى الإنسان وتحول دون حقّه في التسامي والتكامل؛ ولذلك اعتبر الفتنة أشدّ من القتل، فالقتل يقضي على الإنسان مرة واحدة، أمّا الفتنة فهي تقتل الإنسان مرات عديدة.

إِنَّ فقدان الأمن مقدمة لفقدان الحياة الحقة التي أرادها الإسلام للإنسان.

إِنَّ تشريع الإسلام للجهاد في جوهره هو دفاع عن أجواء الأمن والسلام التي يجب أنْ تسود، وردّ كلّ اعتداء وكلّ إرهاب وتخويف يحول دون الناس ودون معرفة المعيار الواقعي والنظري للرقي والتكامل.

إِنَّ الجهاد هو الوجه الآخر لفلسفة السلام، وتجسيد للقوة التي تتحرّك إقامة

للعدل وتكريساً لأجواء السلام والأمن.

إِنَّ هذه الفلسفة تقول لنا إِنَّ البشرية ستضطر أن تعبر فوق جسور من حروب لبلوغ السلام العالمي الحقيقي.

إِنَّ النظام العالمي السائد بما يختزنه من ظلم ولا استقرار وغطرسة وتخريب، يستحيل أن يستمرّ، إِنَّ زوال هذا النظام حتميّ لا شك فيه، ولكن المجتمع الدولي سيدفع أثماناً باهظة لإدراك ذلك الشاطئ عابراً هذا البحر المتلاطم.

كلمة أخيرة: تباشير السلام العالمي

لقد دفعت العديد من شعوب العالم ثمن هذا العبور، ولا تزال شعوب أخرى تدفع، وستقف الأيام القادمة على أثمان جديدة، لكن الأكيد أنَّ هذا العبور سيولّد فجراً وشيكاً تعلو فيه قيم الأديان في الحقّ والعدل والسلام.

وتعرف البشرية مجتمع السلام العدل العالمي الَّذِي تبشّر به روايات آل محمد ' حين يقوم ذلك العصر الإنساني.

عن الرضاعليه السلام عن رسول ' : «**فإذا خرج ـ يعني: المهدي ـ أشرقت الأرض بنور ربها ووضع ميزان العدل بين الناس فلا يظلم أحد أحداً**»(١٣).

وعن أمير المؤمنينعليه السلام: «**لو قام قائمنا لأنزلت السماء قطرها ولأخرجت الأرض نباتها، ولذهبت الشحناء من قلوب العباد، واصطلحت السباع والبهائم حتى تمشي المرأة بين العراق إِلَى الشام لا تضع قدميها إِلَّا على النبات، وعلى رأسها زنبيلها لا يهيجها سبع ولا تخافه**»(١٤).

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

* * *

الهوامش:

(١) يُطلق روجيه غارودي على هذا العالم مصطلح «عالم اللامعنى»؛ ليصف عالمنا في كتابه (نحو حربٍ دينية)، ط١، دار عطية، دمشق، ١٩٩١م، ص: ٣٩.

(٢) راجع ـ كمثال ـ لسان العرب لابن منظور، مادة: سلم.

(٣) محيط المحيط، بطرس البستاني، مادة : سلم.

(٤) الإحسائي، ابن أبي جمهور، عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية ٤: ١٠٣، تحقيق: مجتبى العراقي، الطبعة الأُولى ١٤٠٥هـ، مطبعة سيّد الشهداء، قم.

(٥) يزايد البعض على المفاهيم الإسلامية الأصيلة؛ ليتجنب تهمة التطرّف والإرهاب، ولترضى عنه المنظمات الدولية والقوى الكبرى، نراه يصوّر الإسلام دعوة إِلَى اللاعنف، ويتنكّر لفريضة الجهاد!!.

(٦) مرتضى مطهري، الثورة والدولة، ط١، بيروت، دار الإرشاد، ٢٠٠٣، ص: ١٩٩.

(٧) انظر: تفسير الآيات ٤٠ – ٤١ من سورة الحج.

(٨) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧٧م، ج١٤، ص ٣٧٨.

(٩) المصدر نفسه: ج٢، ص ٢٩٩.

(١٠) بحار الأنوار ١٨: ٢١٠.

(١١) محمد جواد بلاغي، الرحلة المدرسية: ط٢، دار الزهراء، بيروت، ج٢، ص٥.

(١٢) تفسير الميزان ٢: ٦٧.

(١٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٣٣م، ج٥٢، ص٣١٦.

(١٤) القمي، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه، كمال الدين وتمام النعمة: ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩١م، ص٣٧٢.

مظاهر الأمن والسلام ونبذ الإرهاب

في الأديان الإلهية ومسيرة الأنبياء

❑ الشّيْخ معين دقيق العاملي

تمهيد

لا شكّ أنَّ الأمن والسلام يأتي على رأس دعوة الأنبياء والرسل وجميع الأولياء الَّذِين لهم ارتباطٌ بوحي السماء، وقد برز هذا الأمر المهمّ في تصرُّفاتهم بشكلٍ واضحٍ، وانعكس ذلك على أتباعهم الحقيقيين بما لكلمة الأتباع من مدلولٍ حرفيٍّ دقيق.

وعندما نتكلّم عن الأديان الإلهية بصيغة الجمع فلا يعني ذلك تعدُّد المصدر؛ لأنّ التوصيف بالإلهية يرفض هذا التعدّد المصدري، ويعني أنَّ الأديان الإلهية ترجع حقيقةٍ إِلَى دينٍ واحدٍ نابعٍ من مصدرٍ واحدٍ، هو الله تبارك وتعالى.

وإنّما نشأ التعدُّد الجمعي من تعدُّد الظرف الزماني من جهةٍ، ومن تكثُّر المرسَل (بالفتح) والمرسل إليهم من جهةٍ أُخرى، واختلاف الحاجات المتلائمة مع ذلك الظرف الزماني الخاص من جهةٍ ثالثة.

وهذا يعني أنَّ أيّ فكرةٍ من الأفكار العامّة إذا جاءت على لسان رسول، فهي كذلك في تعاليم الآخر؛ لأنّ المنهل العذب الصافي والمنبع الزلال لا تتعدّد فيه

المشارب، ويمكن أنْ نعبّر عن ذلك بقولنا ـ وإنْ خالفنا اصطلاح العرفاء ـ : لا تكرار في التجلّي..

ومفردة الأمن والسلام لم تشذّ عن هذه القاعدة؛ ولذا رأينا مظاهرها في مسيرة الأنبياء على الرغم من قلّة المادة الواصلة إلينا بالنسبة إِلَى معظمهم.

وبما أنَّه قد كثر في أيامنا ـ من قبل البعض ـ القيام بجملةٍ من الأعمال التي تؤذي الإنسانية؛ يقومون بها باسم الدين، وتقرُّباً إِلَى الله تعالى، وإطاعةً للأنبياء، فكان من اللازم استرجاع مسيرة الأنبياء وتعاليمهم لنعرض على كلّ ذلك ما يدّعيه هذا البعض، وليتضح لنا أنَّ تعاليم الأنبياء المتستقاة من منبعٍ واحدٍ بعيدةٌ كلّ البعد عن هذه الأفعال الهمجية، التي يرفضها العقل والفطرة السليمة والعرف والدين، والتي لا يرضى بها مَنْ كان له قلبٌ سديدٌ ومن ألقى السمع وهو شهيد.

محاور البحث وأسئلته:

لمّا كان البحث عن مظاهر الأمن والسلام في مسيرة الأنبياء وأصحاب الرسالات من جهةٍ، ومن جهةٍ أُخرى كان استعراض هذه المظاهر عند جميع الأنبياء مِمّا يطول به البحث من دون أيّ داعٍ بعد ما تقدّم من وحدة المنبع الَّذِي يستقي منه الأنبياء، فلا بدّ من حصر البحث في بعض المفردات الموجودة عند الأنبياء البارزين.

وقد جاء هذا المقال للإجابة عن سؤال أساسيّ يمكن بيانه كالتالي:

كيف ندلّل على مظاهر الأمن والسلام ونبذ الإرهاب ـ بعد تحديد المفهوم ـ في الأديان السماوية ومسيرة الأنبياء؟

وهذا السؤال الأساس يمكن تفريعه إِلَى ثلاثة أسئلة فرعية:

١. **ما هي مظاهر الأمن والسلام عند أب الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام؟**
٢. **ما هي مظاهر ذلك في الديانة اليهودية، وفي مسيرة موسى عليه السلام؟**
٣. **ما هي مظاهر ذلك في الديانة المسيحية، وفي مسيرة عيسى عليه السلام؟**
٤. **ما هي مظاهر ذلك في الديانة الإسلامية، وفي مسيرة محمد المصطفى ' ؟**

جولةٌ اصطلاحية:

لمّا كانت المفردات المفتاحية لهذا المقال عبارة عن:

الأمن، السلام، الإرهاب.

كان لا بدّ لنا من شرحٍ لهذه المفاهيم الثلاثة؛ إذ كثيراً ما يقع النفي والإثبات بلحاظ مفردةٍ معيّنة، مع كون كلٍّ من المثبت والنافي يقصد من المفردة غير ما يقصد منها الآخر، فيعود النزاع لفظياً ولا يكون حقيقياً.

بل كثيراً ما تلعب السياسة والأطماع دوراً فاعلاً في حرف المفاهيم عن معانيها؛ ليتمّ إدخال المصاديق الداخلة تحت المفهوم المقابل في مقابله.

وهذا الأمر تجلّى بوضوح أكثر في مفردة الإرهاب، والإنصاف يقتضي أنَّ النزاع غالباً لا يكون في المفهوم، وإنّما في درج مصاديق وإبعاد مصاديق أخرى.

ولكن لمّا كان البحث المفهومي ـ خصوصاً في مفردة الإرهاب ـ وبيان سعتها وضيقها المصداقية، لوحده بحاجةٍ إِلَى مقال مستقل، لو أردنا أنْ نفصّل فيه لخرجنا عن الهدف الرئيس المقصود لنا في هذه الورقات؛ لأجل ذلك سوف نختصر في هذه الجولة، مع التركيز على ما ينفعنا للوصول إِلَى النتائج المرجوة، والمتناسبة مع العنوان المبحوث عنه في ضمن المحاور المتقدّمة.

- **الأمن:**

وردت هذه الكلمة في لغة العرب في معنى يقابل الخيانة، قال ابن فارس: «**أمن : الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان، أحدهما: الأمانة التي هي ضدّ الخيانة، ومعناها سكون القلب. والآخر: التصديق. والمعنيان كما قلنا متدانيان. قال الخليل الأمنة من الأمن. والأمان إعطاء الأمنة. والأمانة ضد الخيانة. يقال: أمنت الرجل أمنا وأمنة وأمانا وآمنني يؤمنني إيماناً. والعرب تقول رجل أمان إذا كان أمينا**»[1].

- **السلام:**

وهي كلمةٌ مأخوذة من السلم، وهي كلمةٌ ثلاثية جاءت معظم استعمالاتها بمعنى الصحة والعافية، فالسلامة: أنْ يسلم الإنسان من العاهة والأذى، وقال أهل العلم: الله جلّ ثناؤه هو السلام؛ لسلامته مِمّا يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥]، وقال أيضاً: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. ومن الباب أيضاً: الإسلام، وهو الانقياد؛ لأنّه يسلم من الإباء والامتناع. والسلام: المسالمة[2].

هذا هو المقصود من هاتين الكلمتين في أصل اللُّغة، وذكر السَّيِّد الطباطبائي رحمه الله في استعمالهما في القرآن: «**السلام قريب المعنى من الأمن، والذي يظهر من موارد استعمالها في الفرق بينهما أن الأمن خلوّ المحل مما يكرهه الإنسان ويخاف منه، والسلام كون المحل بحيث كلّ ما يلقاه الإنسان فيه فهو يلائمه من غير أن يكرهه ويخاف منه**»[3].

وأمّا في الاصطلاح السياسي المعاصر، فالظاهر أنَّ المراد من هاتين الكلمتين لا يتجاوز المعنى اللُّغوي لهما، فيراد منهما ما يرادف في اللغة الأجنبية كلمة (Peace)، وهو يعني أنْ تعمّ الطمأنينة والاستقرار والهدوء في بلدٍ أو منطقةٍ،

وقد يكون ذلك على المستويات المتعددة: السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية.

وما دام المعنى الاصطلاحي من المفاهيم الواضحة فنكتفي بهذا المقدار.

- **الإرهاب:**

وهو مأخوذ من كلمة (رهب)، قال ابن فارس: «**رهب: الراء والهاء والباء أصلان، أحدهما: يدلّ على خوف، والآخر على دقة وخفة. فالأول: الرهبة، تقول: رهبت الشيء رهباً ورهباً ورهبة. والترهب: التعبد. ومن الباب، الإرهاب: وهو قدع الإبل من الحوض وذيادها. والأصل الآخر، الرهب: الناقة المهزولة. والرهاب: الرقاق من النصال واحدها رهب. والرهاب: عظم في الصدر مشرف على البطن مثل اللسان**»(٤).

وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]، أي: توقعون الخوف في قلوب أعداء الله تعالى وأعدائكم.

وأمّا في الاصطلاح، فقد ذُكِر تعاريف متعددة، دخلت السياسة والمصالح الخاصّة في تكوينها، ولا يهمّنا في هذا المقال التعرُّض لها، وبيان ما فيها من الخلل، وإنّما المهمّ في المقام الإشارة إِلَى نوعين من الإرهاب، وهما: الإرهاب الابتدائي والإرهاب المضاد.

ونقصد بالإرهاب المضاد ما يصدق على نوعين:

١. الإرهاب الوقائي والردعي، والذي يكون لمنع الإرهاب، وهو الَّذِي أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾، فإنّ الدولة

والجماعة التي تعدّ نفسها عسكرياً وتكنولوجياً وثقافياً وغير ذلك من وسائل القوّة، توقع الرعب والخوف في قلب من يسوّل له نفسه الاعتداء عليها.

٢. الإرهاب المقابل، وهو الإرهاب الَّذِي يصدر من المعتدى عليه ويكون ردّة فعلٍ على الإرهاب الابتدائي الَّذِي يمارسه المعتدي، بقصد الدفاع عن النفس والإبقاء على الحياة، وهو ما يعبّر عنه في أدبيات الفقه الإسلامي بالجهاد الدفاعي.

وهذه التسمية نظير إطلاق المكر على ردّ المكر أو مجازاته، كما قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومسبقاً نقول: إِنَّ الإرهاب المضاد بكلا نوعيه لا ينبغي أنْ يدخل ضمن الإرهاب المذموم والمبحوث عنه، ولكن لا بدّ لنا من أساس من خلاله نعرف الداخل في المفهوم المذموم من الخارج.

هذا، والأساس الَّذِي نتّخذه مقياساً لمعرفة ذلك هو الفطرة السليمة المبتني عليها العقل الجمعي وسيرة العقلاء، والتعاليم الدينية.

وهذه الأُمور بأجمعها تفرّق بين الإرهاب الَّذِي يشكّل اعتداءً على كرامة شخصٍ أو جماعةٍ أو أُمّة أو دولةٍ، وبين الإرهاب الَّذِي ينطلق من رفض الذّل، ومقاومة الاعتداء، والإعداد الَّذِي يشكّل رادعاً لكلّ من تسوّل له نفسه الاعتداء. فالأول تراه قبيحاً مذموماً، والثاني تراه حسناً ممدوحاً.

ولذا اعتبر القرآن الكريم في القصاص حياة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ حيث إِنَّ القاتل إذا عَرِف أَنَّه باعتدائه على حياة الناس سوف يُجازى أشدّ المجازات، فإنّ ذلك يردعه عن الإقدام على ارتكاب جريمته، وفي ذلك حياة له وحياة لمن يُريد أن

يعتدي عليه؛ ولذا نُوّنت كلمة الحياة في الآية للإشارة إِلَى تعظيم الحياة، وهذه الحياة العظيمة هي الحياة التي تنعم بها المجتمعات التي تتبع سنّة العقوبة المناسبة عند الجرم، فليتأمّل أولوا الألباب؛ لعلّهم يصلون إِلَى مقام التقوى.

مظاهر الأمن والسلام عند خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام:

إبراهيم عليه السلام من الأنبياء أُولي العزم، والذي برزت محاربته للشرك، ودعوته إِلَى التوحيد بمظاهره المختلفة في القرآن الكريم.

هذا النبيُّ الَّذِي غدا «أسوة حسنة» لكلّ الأجيال، و«قدوة» لكلّ الطاهرين، وأضحت أعماله سنّة في الحجّ، وستبقى خالدة حتّى تقوم القيامة، إنّه أبو الأنبياء الكبار، وإنّه أبو هذه الأُمّة الإسلامية ورسولها الأكرم محمّد بن عبد الله ' .

هذا النبيُّ العظيم قد انعكست في دعوته ومسيرته مسألة الأمن والسلام بشكلٍ واضح وملموس، وسوف نُشير إِلَى ذلك في ضمن البحث عن الآيات التالية:

ـ ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [البقرة].

حيث نلاحظ في الآية الأُولى من هاتين الآيتين أنَّ الله سبحانه وتعالى جعل بيته العتيق مثابةً ومرجعاً للناس ـ كلّ الناس ـ يتمتّعون فيه بالأمن والطمأنينة النابعة من ذكر الله تعالى في بيته ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، ويعهد إِلَى إبراهيم وابنه ' أن يطهّرا هذا البيت الآمن من كلّ لوثةٍ ماديةٍ أو معنوية.

وفي الآية الثانية يطلب خليل الرحمن عليه السلام من ربّه تبارك وتعالى لهذا البلد الَّذِي فيه البيت العتيق أنْ يمنَّ عليه بنعمتين:

الأُولى: الأمن والسلام.

الثانية: الرزق.

وتقديم الأمن على المنح الاقتصادية فيه إشارة إِلَى أنَّ الاقتصاد السالم لا يتحقّق إِلَّا بعد الأمن الكامل(٥).

وفي الجمع بينهما إشارة إِلَى أنَّ جذب كلّ بلد (دولة) للناس لا يكون إِلَّا بعاملين: السلم والأمن، والرفاهية الاقتصادية.

فانظر أيُّها المتفكّر بعين البصيرة إِلَى دعوة إبراهيم في المكان الَّذِي اتّخذه موطناً وملجأً، لم يطلب الزعامة، ولم يطلب السيطرة، ولم يطلب للناس كلّ الناس إِلَّا أنْ يعيشوا في أمن وسلام ورفاهيةٍ اقتصادية، يستطيعون من خلالها أنْ يتفرّغوا لعبادة ربّهم في كلّ مجالات العبادة بما فيها خدمة الخلق. حتى الكافر بأنعم الله وآلائه نجد أنَّ الباري عزّ وجلّ قد اكتفى بإيكال أمره إِلَيه بعد تنعيمه في هذه الدار الفانية قليلاً. وهل يوجد أكثر من هذا نبذاً للإرهاب وترغيباً في الأمن والسلام.

ـ ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

فانظر ـ يا من تدّعي أنَّك بتفجير نفسك بالناس الأبرياء تجلس على وليمةٍ أعدّها الأنبياء على شرف حضورك ـ إِلَى خليل الرحمن بعد أن استتبّ له الأمر بمكّة، انظر إليه في طلبه من ربّه، الَّذِي يتضمّن تمام الرحمة والعطف والحنان بالأجيال القادمة بعد قرون (التي تسمّى بالأُمّة المسلمة؛ لا لكونها مسلمة وكاملة قبل بعث ذلك الرسول، وإلا لما احتاجت إِلَى رسولٍ يتلو عليها آيات

الله، ويعلمها الكتاب والحكمة، ويزكيها)، طلب من الله أنْ يبعث في مثل هذه الأُمّة رسولاً يهديهم ويتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويربّي نفوسهم على الخير والعطاء.

هذه الرحمة الإبراهيمية، والعطف الخليلي، نحن في هذا الزمن في أشدّ الحاجة إليه، فبدل من أنْ نتناحر فيما بيننا، ويقتل بعضنا الآخر، وبدل من أنْ يحرّض بعضنا البعض على البعض الآخر، تعالوا نتعلّم من هذا الأدب الإبراهيمي، ونتربّى في هذه المدرسة الخليلية؛ لنحبّ الغير، وننفتح عليه، وندعو ربّنا للإصلاح فيما بيننا.

ـ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

فالمتديّن الكامل هو ذلك الإنسان الَّذِي أسلم وجهه لله، وانقاد له في كلّ خطواته وسكناته، ولم يكن متّبعاً للغير، ولم يكن منفّذاً لأجندة الدول المستكبرة، بل لا بدّ أنْ يكون محسناً في عمله، ومتّبعاً لملّة إبراهيم عليه السلام، هذه الملّة المائلة عن الزّيغ والضلال.

ـ ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤].

فلنتأمّل في هذه الآية لنرى كيف كان استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه غير الوالد، على الرغم من كونه على غير ملّته، وعندما تبيّن له أنَّ أباه آزر معادياً لله ومحارباً، امتنع عن الاستغفار له، لا أنَّه أقدم على قتله وأذيّته.

ولنعرف من خلال ذلك أنَّ مجرّد الاختلاف في الفكر والدين والمذهب قد لا يتنافى مع الدعاء احتراماً لحقّ الرّحم، وإنّما يمنع من الدعاء العداوة لله تعالى، والعداوة تدعونا إِلَى البراءة من الفعل والاعتقاد، لا أنَّها توجب ممارسة الإرهاب على الغير. وليس ذلك إِلَّا لأنّ إِبْراهِيمَ أَوَّاهٌ حَلِيمٌ، أيْ: إنّه كثير

الدعاء والبكاء، صبور على الأذى، صفوح عن زلّات غيره، فيا ليتنا نسير على هديه.

ـ ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [هود].

هاتان الآيتان من الآيات المهمّة جداً في بحثنا، وفي إثبات أنَّ النبيّ العظيم خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام كان عاطفته الإنسانية ورأفته الأبوية وحرصه على الإنسان أيّ إنسان كان في أعلى مراتبها.

فالآيتان تحدّثنا عن أنّه لمّا ذهب عن إبراهيم ما اعتراه من الخيفة؛ بتبين أنَّ النازلين به لا يريدون به سوءً ولا يضمرون له شراً. وجاءته البشرى بأن الله سيرزقه وزوجه إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، أخذ يجادل الملائكة في قوم لوط يريد بذلك أن يصرف عنهم العذاب.

والآية الثانية مسوقة لتعليل المجادلة في الآية الأُولى، وفيها مدح بالغ لإبراهيم عليه السلام، وبيان أنّه إنّما كان يجادل فيهم؛ لأنّه كان حليماً لا يعاجل نزول العذاب على الظالمين رجاء أن يأخذهم التوفيق فيصلحوا ويستقيموا، وكان كثير التأثر من ضلال الناس، وحلول الهلاك بهم مراجعاً إلى الله في نجاتهم. لا أنّه عليه السلام كان يكره عذاب الظالمين وينتصر لهم بما هم ظالمون، وحاشاه عن ذلك[٦].

وقد يعتقد البعض أنَّ إبراهيم عليه السلام كان يجادل في خصوص لوط ومن آمن معه، لا في قومه الكافرين، ويستدلّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [العنكبوت].

وهذا الاعتقاد فاسدٌ من جهتين:

الأُولى: أنَّ الاستشهاد بالآيتين في سورة المجادلة لا يدلان عليه؛ فإنّ قوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ لا يدلّ على أنَّ المجادلة من بدايتها كانت في خصوص لوط عليه السلام؛ إذ لعلّه في البداية ناقش في الجميع، ثمّ عندما رُفِض اقتراحه ذكّرهم بوجود لوطٍ فيها. ويمكن أنْ يستفاد ذلك بما ورد في الخبر عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ أَرْبَعَةَ أَمْلَاكٍ فِي إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ جَبْرَئِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَكَرُوبِيلَ** (...) **فَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ لِمَا ذَا جِئْتُمْ قَالُوا فِي إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ فَقَالَ لَهُمْ إِنْ كَانَ فِيهِمْ مِائَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَتُهْلِكُونَهُمْ فَقَالَ جَبْرَئِيلُ لَا قَالَ فَإِنْ كَانَ فِيهَا خَمْسُونَ قَالَ لَا قَالَ فَإِنْ كَانَ فِيهَا ثَلَاثُونَ قَالَ لَا قَالَ فَإِنْ كَانَ فِيهَا عِشْرُونَ قَالَ لَا قَالَ فَإِنْ كَانَ فِيهَا عَشَرَةٌ قَالَ لَا قَالَ فَإِنْ كَانَ فِيهَا خَمْسَةٌ قَالَ لَا قَالَ فَإِنْ كَانَ فِيهَا وَاحِدٌ قَالَ لَا قَالَ فَإِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ قَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ قَالَ لَا أَعْلَمُ هَذَا الْقَوْلَ إِلَّا وَهُوَ يَسْتَبْقِيهِمْ وَهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوط**»[٧]. وعلّق العلامة المجلسي على قول الحسن بن علي: «**الحسن بن علي، أي: ابن فضال كما سيظهر مما سنورده من سند الكافي، أيْ: أظنّ أنَّ غرض إبراهيم عليه السلام كان استبقاء القوم والشفاعة لهم لا محض إنجاء لوط من بينهم**»[٨].

الثانية: أنَّ هذا الاعتقاد لا يتناسب مع الآية الواردة بعد الآيتين اللتين هما محلّ الكلام من سورة هود، وهو قوله: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦ ﴾؛ إذ لو كان إبراهيم عليه السلام يجادل في إنجاء لوط ومن معه من المؤمنين لما صحّ أنْ يؤمر بالإعراض؛ لأنّ المفروض أنّه قد تمّ إنجاء لوط ومن معه من المؤمنين كما يدلّ ما تقدّم في سورة العنكبوت.

ـ ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ

صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾ [مريم].

التأمُّل في هذه الآيات يعطينا أنَّ اختلافه مع قومه ومع أبيه لم يجعله ينسى وظيفته تجاههم كأنسانٍ وكنبيٍّ، على الرغم من كون هذا الخلاف ليس في مسألةٍ جزئيّةٍ من مسائل الدين، بل هو أمرٌ يرتبط بأساس العقيدة وجوهرها، وهو: التوحيد. فتحدثنا هذه الآيات عن حرصه لهداية أبيه وقومه، وعند عدم تقبّلهم لدعوته ولعطفه عليهم، غاية ما قام به أنِ اعتزلهم مع وعده بطلب المغفرة.

وفي هذا المقدار كفاية لبيان مظاهر الأمن والسلام ونبذ الإرهاب في مسيرة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

مظاهر الأمن والسلام عند كليم الرحمن موسى عليه السلام:

من أنبياء الله العظام، والذي تنتسب إليه الديانة اليهودية، موسى الكليم عليه السلام، وهو أكثر الأنبياء تناولاً في القرآن الكريم؛ إذ لا تخلو أكثر السور الطوال عن ذكر له، فقد ذُكِر في (البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، يونس، هود، إبراهيم، الإسراء، مريم، طه، الكهف، الأنبياء، الحج، المؤمنون، الشعراء، النمل، السجدة، القصص، السجدة، غافر، العنكبوت، الأحزاب، الصافات، و...). وقد ذُكِر في بعضها على نحو التفصيل لأهمّ مفاصل حياته ومسيرته.

وفي ضمن قراءةٍ مختصرة لبعض الآيات التي تناولت مسيرة هذا النبيّ العظيم نستخلص أهم المحطات التي تدلّل على ممارسة الأمن والسلام؛ وذلك في ضمن الاستعراض التالي:

- **نهي موسى قومه عن ممارسة الإرهاب وإثارة الفساد في الأرض:**

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]. حيث إِنَّ القرآن الكريم في سياق تذكير بني إسرائيل بنعم الله تعالى عليهم ذكر هذه النعمة العظيمة من النعم التي أغدقها عليهم؛ حيث إِنَّ بني إسرائيل كانوا في أمسّ الحاجة إِلَى الماء، وهم وسط صحراء قاحلة، فاستسقى لهم موسى عليه السلام، واستجاب الله تعالى لطلبه، وأمره أنْ يضرب الحجر بعصاه، فجرت اثنتا عشرة عيناً بعدد قبائل بني إسرائيل، بحيث كانت كلّ قبيلةٍ منهم تعرف العين التي تخصّها.

وبعد تذكيرهم بهذه النعمة العظيمة التي أغدقها عليهم وهم في أشدّ الحاجة لها، أمرهم عن طريق كليمه موسى عليه السلام بأنْ يجتنبوا الفساد في الأرض.

وهذا المقطع من مسيرة موسى عليه السلام ذُكِر في العهد القديم الموجود، ففي سفر الخروج: «**فقال الرب لموسى: مرّ قدّام الشعب، وخذ معك من شيوخ إسرائيل. وعصاك التي ضربت بها النهر خذها في يدك واذهب. ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة في حوريب، فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب. ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل**»[٩].

وكيف كان، فيستفاد من هذا المقطع من مسيرة موسى عليه السلام أنَّ استتباب الأمن والسلام في أيّ مجتمعٍ من المجتمعات بحاجةٍ إِلَى مكوّنات ثلاثة:

١. تهيئة حاجيّات المجتمع، خصوصاً على الصعيد الاقتصادي وبالأخصّ في الأمور التي يحتاجها المجتمع بشكلٍ دائم، من قبيل المأكل والمشرب والمسكن؛ لأنّ ذلك يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحلول الأمن والسلام واستتبابه. ويدلّ على هذا الأمر في الآية المتقدّمة تأخير النهي عن الفساد عن تأمين حاجة بني إسرائيل إِلَى الماء، وترتيب النهي على ذلك.

٢. إِنَّ هذه الحاجيات العامة لا ينبغي أنْ يُقتصر في تأمينها على الَّذِين يسيرون في رحاب إطاعة الله تعالى، بل ينبغي أنْ تؤمّن للناس كلّ الناس. وهذا ما يستفاد من كلمة: ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾، دون أنْ يقول: (لأتباعه) أو (لشيعته) أو (للمؤمنين بالله تعالى)، أو نحو ذلك.

٣. أنَّ مجرّد تأمين الحاجيات الاقتصادية لا ينفع في ابتعاد الناس عن الفساد والإرهاب، بل لا بدّ بعد تأمينها من تنظيم توزيعها، كما يستفاد ذلك من قوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

فكم من دولة في العالم لديها حدّ الكفاية لشعبها من ناحية ما يحتاجون إليه من إنتاجاتها وثرواتها الداخلية، ولكنّ سوء التوزيع يلعب دوراً بالغاً في عدم وصول هذه الإمكانيات إِلَى جميع أفراد الشعب، فيؤثّر ذلك في إيجاد نظامٍ طبقيٍّ في المجتمع، يشقى فيه جماعةٌ على حساب جماعةٍ أُخرى؛ ليدخل المجتمع من خلال ذلك في حالةٍ من انفصام الشخصيّة بل وانمحاقها، مِمّا يؤدّي إِلَى بروز الأمراض الاجتماعية والنفسية التي هي المبدأ لكلّ فساد وعثوٍّ في الأرض.

- **أخذ الميثاق على بني إسرائيل بالقول الحسن والكلمة الطيّبة:**

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

ومحلّ الشاهد فيها قوله: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ الوارد في سياق الموارد التي أخذ الله تعالى ميثاقه من بني إسرائيل فيها عن طريق نبيّه عليه السلام، والميثاق المأخوذ من بني إسرائيل في هذا المورد ليس مجرّد أنْ يصدر منهم القول الحسن والكلمة الطيّبة في حقّ من كان من جماعتهم، أي: إسرائيلياً مثلهم؛ لأنّ هذا التخصيص لا تعطيه مفردة (الناس) الواردة في الآية، بل لا بدّ لكي يحصل تطبيق الميثاق في هذه المفردة من أنْ يكون القول الحسن والكلمة الطيّبة منهاجاً متّبعاً في حياتهم في حقّ الناس كلّ الناس.

فالآية في مقطعها هذا، قد رسمت لبني إسرائيل خطّ التعامل مع كلّ ما يسمّى غيراً، سواء كان من ملّتهم أم من غيرها، في مختلف علاقاتهم مع هذا الغير، سواء منها العلاقات الشخصية أم الاجتماعية أم الاقتصادية أم السياسية أم المذهبية والفكرية، بحيث تكون الكلمة الطيبة، والقول الحسن، والأُسلوب الجميل، والانفتاح المقبول، هو الأساس لكلّ هذه العلاقات.

وهذا ما يؤدّي إِلَى تقوية الروابط بين الناس، والابتعاد عن كلّ معاملةٍ تنفّر وتوقع العداوة في المجتمع. وقد ورد في الخبر في سياق الكلام عن هذا المقطع من الآية عَنْ جَابِرِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «**فِي قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ ـ وَ قُولُوا لِلنّاسِ حُسْناً ـ قَالَ قُولُوا لِلنَّاسِ أَحْسَنَ مَا تُحِبُّونَ أَنْ يُقَالَ فِيكُمْ**»[10].

ولا يخفى أنَّ الكلمة الطيّبة والقول الحسن ورد بعد الأمر بالإحسان إِلَى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين، وهم شريحة معتدٌّ بها من المجتمع، خصوصاً المساكين والطبقة المستضعفة، فإنّه بالإحسان إليهم من قِبل الطبقة المرفّهة يؤدّي ذلك إِلَى عدم نظرة الطبقة الدانية إِلَى الطبقة العليا نظرة الحقد والانتقام، الأمر الَّذِي يخفّف من نوع من أنواع الجرائم التي تصدر من أمثال هؤلاء، وفي هذا سلامٌ وأمنٌ لا يخفى على من ألقى السمع وهو شهيد.

ولكنّ بني إسرائيل لّما لم يمتثلوا هذا الميثاق المأخوذ عليهم، كَثُر بينهم الفساد والاعتداء والأعمال المصنّفة في ضمن دائرة الإرهاب المذموم، فأدّى بهم الأمر إلَى ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [البقرة: ٨٥].

- **من النعم المترتبة على بعثة كليم الله موسى عليه السلام إنجاء الناس من إرهاب السلطة:**

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٦].

من النعم التي أنعم الله تعالى بها على بني إسرائيل بإرسال موسى عليه السلام لهم، أن أنجاهم مِمّا كان يقوم به جلاوزة فرعون من إذاقتهم لألوان العذاب، من قتل الأولاد وإذلال النساء، الأمر الَّذِي كان يسبّب لهم البلاء العظيم.

فإذا كان أحد أهداف بعثة نبيٍّ من أنبياء الله العظام هي النجاة من الإرهاب الممارس من قبل السلطة، وهؤلاء الَّذِين كان يقع عليهم الإرهاب هم جماعةً مستضعفة، ربما يكون الكثير منهم لم يؤمنوا بموسى عليه السلام بعدُ، أو حتّى لم يسمعوا به، إذا كان الأمر كذلك فكيف يحقّ للبعض في زماننا أنْ يفهم من الدِّين تجويزه لقتل من يؤمن بالله، ويصلّي إِلَى القبلة؛ لمجرّد أنَّه يختلف معه في بعض الأفكار.

- **حتى الطغيان والإرهاب المذموم لا يمنع موسى من استعمال القول اللّين:**

قال تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه].

وهذه الآيات تتكلّم لوحدها بلا حاجةٍ إِلَى شرح، ونحن بدورنا ندعو من يقتل الموحدّين والأطفال والنساء إِلَى التدبُّر فيها، ونقول لهم: فلنفترض أنَّ هؤلاء النساء والأطفال والشيوخ الَّذِي تضعون المتفجرات في الطرق لقتلهم قد أخطأوا في انتخاب عقيدتهم، فهل هم أسوأ حالاً من فرعون الَّذِي قال للناس: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤]، ومع ذلك دعاه موسى بالقول اللّيّن، فهلا اتبعتم كليم الرحمن، وتكلّمتم مع الآخر الَّذِي تخالفونه في الرأي وتقولون: ﴿ لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾!!.

- **وصية موسى لأخيه بالإصلاح وعدم اتباع مسيرة المفسدين:**

من مظاهر الأمن والسلام في مسيرة كليم الله موسى عليه السلام ما تحدّثنا عنه بعض الآيات من أنَّه عندما ذهب إِلَى ميقاته المضروب مع ربّه تبارك وتعالى، استخلف أخاه هارون على قومه، وأوصاه بالإصلاح بينهم، والمشي فيهم بطريقة أهل العدل، واجتناب سنّة المفسدين في الأرض.

قال تعالى: ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. ويستفاد هنا التأكيد على الإصلاح واتباع طريق العدل بين الناس من كون هارون عليه السلام نبياً مرسلاً، فيستحيل في حقّه أنْ لا يكون حكمه بين قومه بالإصلاح والعدل، ولكن لأهمية هذا الأمر أكّد عليه موسى عليه السلام من جهةٍ، ولكي يعرف الناس أنَّ ما يصدر من هارون هو لمصلحتهم؛ لأنّه ناشئ من قصد الإصلاح وإجراء العدل بينهم.

وهنا نتساءل: هل أنَّ قتل الناس لمجرّد الاختلاف معهم في الرأي أو العقيدة يعدّ من طرق الإصلاح بين الناس؟ أم أنَّه يندرج تحت سبيل المفسدين؟

نترك الإجابة عن هذا السؤال إِلَى الفطرة النقيّة والعقول السليمة...

شبهةٌ وجواب:

لعلّك تقول: إِنَّ ما ذُكِر من مظاهر الأمن والسلام في مسيرة موسى الكليم عليه السلام يتعارض مع ما ورد في القرآن عنه من قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]؛ فإنّ قتل موسى للرجل المخالف له: من أبرز مصاديق تحليل القتل لأجل الاختلاف في الرأي والعقيدة، الَّذِي أُطلق عليه اسم الإرهاب المذموم.

وعليه، فما تقوم به الفرقة المسماة بالتكفيريين له ما يبرّره في مسيرة موسى الكليم عليه السلام، والقتل هو القتل وإنْ اختلفت وسائله؛ إذ ما دام فعل موسى المعصوم يدلّ على جواز القتل لمن كان من غير شيعتك، وكان مخالفاً لك في الرأي والعقيدة، فلا يفرّق في ذلك بين أنْ يكون بالوكز كما فعل موسى، وبين أنْ يكون بالسلاح أو المتفجرات كما يفعلون في زماننا.

وهذا الشبهة يمكن الإجابة عنها بصياغتين، تختلفان في المبنى كما سيتضح:

الصياغة الأُولى: وهي التي تبتني على أنَّ الأنبياء ليس من الضروري أنْ يتصفوا بالعصمة في جميع أعمالهم وحركاتهم، بل هم معصومون مسددون في ظرف كونهم في مقام تبليغ الأحكام.

وعليه، فإذا بنينا على أنَّ موسى عليه السلام في هذا الفعل الَّذِي عقّبه بوصفه أنَّه من عمل الشيطان كان عاصياً، فليس لأحدٍ حينئذٍ الاقتداء به فيه. فإنّ موسى ـ بناء على هذا المبنى والفهم السطحي ـ قد تكشّف له خطؤه، فيكون تقليده به ـ مع اعترافه ببعده عن الصواب ـ تقليداً بأمر غير مشروع.

فيكون قول موسى عليه السلام المحكي في الآية: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ـ في مقام توصيف الفعل الَّذِي صدر منه ـ صادراً في مقام التبليغ، المقتضي لكونه معصوماً في أدائه بحسب المبنى المشار إليه، فهو الواجب الاتّباع، لا العمل الموصوف به.

وعليه، يكون قياس ما يفعله التكفيريُّون في أيامنا هذه على ما قام به موسى الكليم عليه السلام قياساً مع الفارق؛ حيث إِنَّ موسى قد اعترف بخطئه، بينما التكفيريُّون يصرُّون على أعمالهم التي هي من عمل الشيطان.

الصياغة الثانية: المبتنية على الاعتقاد بعصمةِ الأنبياء في كلّ أفعالهم، وتمام مسيرتهم، قبل بعثتهم وبعدها.

وأصحاب هذه النظريّة المنصورة في محلّها، يفهمون الآية المشار إليها بطريقةٍ لا تجعل عمل موسى مبرّراً لما يقترفه التكفيريين في عصرنا الحاضر، وحاصل الكلام في ذلك:

في ذات يوم، وقبل بعثة موسى عليه السلام دخل إِلَى مصر، ومشى في شوارعها من دون أنْ يشعر به أحد، فرأى رجلين يتشاجران ويقتتلان، وكان أحدهما قبطياً من أتباع فرعون، ويقال: إِنَّه من العاملين في مطبخه، والآخر إسرائيلياً من جماعة موسى. وقد كان الأقباط آنذاك بوجه العموم يضطهدون الإسرائيليين، ويعدّونهم خدماً لهم وعبيداً.

ووفقاً لهذا العموم استظهر موسى أنَّ الإسرائيلي مظلومٌ ومعتدٍ عليه في هذه الخصومة، وقد يكون الأمر كذلك في الواقع، فهبّ موسى عند استغاثته به لنجدته ودفع الظلم عنه، ولهفة المظلوم ونجدة المستغيث من أبرز صفات الكرام، ولم يكن في هذه النجدة قاصداً لقتل القبطي أصلاً.

وكان موسى عليه السلام ـ كما في الخبر[11] ـ قد أعطي بسطة في الجسم، فوكز القبطيَّ بكفّه بقصد ردعه عن البغي، فخرّ على الأرض ميّتاً.

ولو كان موسى عليه السلام قاصداً للقتل لكان حقّ الكلام أنْ يقول: (فاستغاثه الَّذِي هو من شيعته على الَّذِي من عدوّه فقتله موسى) كما لا يخفى على كلّ ممارسٍ للغة العرب.

ثمّ إنَّ اسم الإشارة في قوله: ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ لا يرجع إِلَى عمل موسى عليه السلام، بل هو راجعٌ إِلَى الشجار والقتال الَّذِي وقع بين القبطي والإسرائيلي، فيكون المعنى: أنَّ القتال والمشاجرة مصدرها الشيطان وإغواؤه.

وهذا التفسير المذكور له شواهد من القرآن والأخبار، والسعي لإثباته يخرجنا عن محلّ الكلام ما دامت الشبهة مدفوعة على كِلا احتمالي المعنى.

والوجه في دفعه على هذا التفسير، أنَّه من الممكن أنْ نقتدي[١٢] برسول الله موسى عليه السلام بما قام به من نصرة المظلوم، بمنع الظالم عنه، ولو قُتل الظالم الَّذِي لا يستحقّ القتل بظلمه عن طريق الخطأ فإنّنا لا نعاقب على ذلك.

ومن الواضح بمكان أنَّ الَّذِي يضع المتفجرات في طريق الناس نساء وأطفالاً وشيوخاً لا يعدّ قتله لهم من القتل الخطأ.

وعلى هذا أيضاً يكون قياس أفعالهم على ما صدر من موسى الكليم عليه السلام قياساً مع الفارق.

وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ...

* * *

الهوامش:

(١) ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللُّغة ١: ١٣٣، تحقيق وضبط: عبد السَّلام مُحَمَّد هارون، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤، قم.

(٢) انظر: المصدر نفسه ٣: ٩٠.

(٣)العلامة الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن ١٤: ٢١، نشر: موسسة النشر

الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم، الطبعة الخامسة ١٤١٧هـ.

(٤) المصدر نفسه ٢: ٤٤٨.

(٥) مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ١: ٣٨٠، نشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، الطبعة الأُولى ١٤٢١، قم المقدسة.

(٦) العلامة الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن ١٠: ٣٢٦، مرجع سابق.

(٧) الكُلَيْني، مُحَمَّد بن يعقوب، الكافي ٥: ٥٤٧، كتاب النكاح، باب: اللواط، الحديث: (٦)، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطَّبعة الثّالثة ١٣٦٧ش، دار الكتب الإسلاميَّة، طهران.

(٨) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار ١٢: ١٦٩، نشر: مؤسسة الوفاء، بيروت ١٤٠٤.

(٩) الكنيسة، الكتاب المقدس (العهد القديم): ١١٥، نشر: دار الكتاب المقدس ١٩٨٠.

(١٠) الكافي ٢: ١٦٥، كتاب الإيمان والكفر، باب الاهتمام بأمور المسلمين، الحديث: ١٠، مرجع سابق.

(١١) البحراني، السَّيِّد هاشم، البرهان في تفسير القرآن ٤: ٢٤٧، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية في مؤسسة البعثة، الطبعة الأُولى ١٤١٦، طهران.

(١٢) بشرط أنْ لا نكون في مهمةٍ تقتضي الاستتار كما كان عليه موسى؛ ولذا طلب من ربه أن يمنع عنه تبعات هذا الأمر الَّذِي شاع بين أفراد الجماعات المشايعة لفرعون. ولذا عدّ استغفار موسى من باب ترك الأولى، والتفصيل موكول إِلَى محلّه.

تأمّلات في الوحدة الإسلامية

إطلالة على الواقع الراهن

الشيخ علي ناصر (*)

تمهيد

كثيراً ما يتناول الباحثون مفهوم الوحدة الإسلامية، من جانب نظري، ولم يتم تناوله كثيراً من جوانب عملية، ولا سيما في عصر الفتن المذهبية، التي يعمل الأعداء على زرع حقول ألغام في جسد الأمة الإسلامية المُمَزَّق، فكان لا بد من التأمل في مفهوم الوحدة الإسلامية، وهل هي وحدة عقائدية، أو فقهية، أو سياسية، أو مركبة من العقيدة، والفقه، والسياسة.

ويهدف البحث أيضاً إلى إطلالة على الواقع الراهن من خلال مثالٍ حيٍّ شاهد على تردّي الواقع الراهن، وعلى العمل الدؤوب الذي يقوم به أعداء الأمة للتفريق بين المسلمين، مستفيدين من دراسات لواقع المسلمين، ومجتمعاتهم، ومن تشخيص دقيق لعقلية العصبية المذهبية، وجهل بعض المسلمين في أمور دينهم، وعدم قدرة بعضهم الآخر على التمييز بين ما يُخرج الإنسان عن الإسلام، وبين ما يُخرجه عن المذهب، ويُبقيه مسلماً، بل وقوع

(*) باحث إسلاميّ/ لبنان.

بعض المسلمين في شبهات عقائدية، وفقهية، وسياسية، بعيداً عن المنهجية العلمية، والحوار البنَّاء، إذ أن هناك من لا يسمع إلا نفسه، ولا يحفظ إلا أحاديثه، وما تمّ تلقينه إياه، بعيداً عن منابع الإسلام الأصيل، ولا سيما القرآن، والعقل. وهنا يبرز دور العلماء في بيان حقيقة الأمور، ووأد الفتنة قبل أن تحرق بنيرانها الأخضر واليابس، فهم هداة الدَّرب، وقادة المسيرة.

وتأتي أهمية معالجة هذه الإشكالية، ولا سيما في أجواء ذكرى ولادة الرسول الأكرم ' العطرة، وفي أسبوع الوحدة الإسلامية، التي يجب أن يعمل لها كلّ مؤمن بالدين السماوي الشامل لكلّ مناحي الحياة، والخاتم للرسالات السماوية، الذي أنزله الله تعالى على قلب المصطفى، الصادق، والأمين، خير خلق الله، محمد بن عبد الله ' ، الذي بُعث بالحق بشيراً، ونذيراً، ورحمةً للعالمين.

أ. الوحدة الإسلامية بين العقيدة، والفقه، والسياسة:

١. الوحدة العقائدية :

ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠]. وتذكّرنا الآية الكريمة ببداية نزول الوحي، وانطلاقة الرسالة الإلهية الخاتمة، التي لا رسالة سماوية بعدها، والشاملة لكلّ مناحي الحياة، والعالمية، التي لم تنزل لأجل العرب فقط، ولا لأجل العجم فقط، ولا في بقعة جغرافية محددة، ولا هي صالحة لفترة زمنية محددة، بل هي صالحة لكلّ زمان ومكان. لقد بدأت رسالة الإسلام تأمر بعبادة الإنسان لله الواحد الخالق، القهار، المدبِّر، العادل، الرحيم، العزيز، الحكيم، وتنهى عن عبادة الأوثان، والشرك بالله، وترك ما كان يعبد الآباء، إن كانت عبادتهم لغير الله تعالى، وبالتالي ترك الموروثات، والعادات،

والتقاليد، التي تتنافى مع رسالة الإسلام، وقيمه، وأهدافه، وتشريعاته.

وهذا يحتاج إلى إعمال العقل، وتغليبه على العاطفة، وتقديم الفكر، والعقيدة، أي: ما آمن به الإنسان جازماً، على القرابة النسبية، كالأرحام، والسببية، أي بواسطة المصاهرة، وإلى التفكر في خلق الله تعالى، وفي دينه، وليس في ذات الله تعالى عن كلّ تركيب، ونقص، وضعف، فقد ورد عن أبي عيد الله عليه السلام أنّه قال: «**تفكر ساعة خير من عبادة سنة**»[1].

ويمكن أن نسأل عن المراد من الوحدة الإسلامية، هل هي وحدة عقائدية، بمعنى أن يعتقد المسلمون جميعاً بنفس أصول الدين؟ إذا كان كذلك فهذا أمر واقع، إذ إنَّ جميع المسلمين يعتقدون بأصل التوحيد في الخالقية، أي: أنَّ الله تعالى هو خالق الخلائق دون أن يخلقه أحد، والتوحيد في الربوبية، بمعنى أنَّ الله تعالى هو مدبِّر هذا الكون بما فيه من كائنات حية، بشرية، وحيوانية، ونباتية، وكائنات غير حية، كالأفلاك، والسماوات، وما تحتويه من ماء، وريح، وغيرها. وكذلك يؤمن المسلمون بالتوحيد الذاتي، بمعنى أنَّ الله تعالى لا يمكن أن يُتَصَوَّر له مثيل، وأنه بسيط غير مركب؛ لأنّ المركب يحتاج إلى أجزائه، والحاجة نقص، والله منزَّه عن كل نقص. كما يؤمن المسلمون جميعاً بأصل النبوة، وأنَّ الرسالات السماوية وحدها غير كافية لإحياء دين الله في الأرض، فلا بد من إنسان، يمثل النموذج، والقدوة، للناس، يؤمن بدين الله، ويطبّق أحكامه، إذ لا تتحقق العدالة الاجتماعية بالدستور، والقوانين فقط، بل لا بد من حاكم بهذه التشريعات، والقوانين، يكون حجة على الناس، ويقوم بأمرهم بما يرضي الله تعالى. ويؤمن المسلمون أيضاً بأنّ الإنسان يموت، ويُسأل في القبر عن دينه، وكتابه، ونبيه، وقبلته، فإذا كان الإنسان من أهل الخير أوكل الملكان منكر ونكير أمره إلى ملائكة النعيم، وإذا كان من أهل الشر أوكلا أمره إلى ملائكة الشقاء، إذ إنَّ هناك حياة في عالم البرزخ، تسبق يوم المعاد، أو يوم الحساب، أو يوم القيامة،

يوم يقوم الناس ليقفوا أمام الله تعالى ليقفوا في رهبة تذهل فيها المرضعة عن رضيعها، ولا يغني عنهم مال، ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، فيحاسبون، ويدخل أهل الإيمان الصالح، والعمل الصالح، إلى الجنة ليعيشوا في نعيم أبدي، ويدخل أهل الكفر، والشرك، والنفاق، إلى جهنم، ليعيشوا في تعاسة وعذاب أبدي.

ولكنّ المسلمون الشيعة الإمامية الإثنا عشرية، يؤمنون أيضاً بأنّ الله تعالى عادل، وحكيم، يضع الأمور في مواضعها، ولا يظلم أحداً، فلا يمكن أن يعذِّب المؤمن الذي يعمل الصالحات في النار، أو يحسن إلى المذنب المرتكب للكبائر، الآمر بالمنكر، والناهي عن المعروف، والمفسد في الأرض، فيجعله يعيش في نعيم الجنة، خالداً فيها. ويؤمن الشيعة أيضاً بأصل الإمامة، الذي له نفس فلسفة النبوة، إلا أنَّ الإمام ليس رسولاً، وليس نبياً، فلا ينزل عليه الوحي، إذ لا نبي بعد محمد بن عبد الله ' ، بل إنَّ الإمام هو وصي النبي، وخليفته، ووزيره، من بعده، يبيِّن للناس عقائد الإسلام، وأحكامه المستجدة، ويقود الناس إلى طريق الحق، والصراط المستقيم، ويكون معصوماً عن الخطأ، والنسيان، فلا يرتكب المعاصي، ويكون قدوة لهم، يقضي بينهم بالحق، ويكون كالنبي ' مرجعهم الديني، والسياسي، والاقتصادي، فيستلم الأموال الشرعية من خمس، وزكاة، ويقسِّمها بينهم بالحق، إذ لا بدّ للناس من إمام عادل، يحرص على مصلحة المسلمين العليا، ويحمي أنفسهم، وبلادهم، وأموالهم، وأعراضهم، وعقولهم.

ومن الواضح أنَّ هناك خلافاً بين الفرق الإسلامية، حول مدى تنزيه الأنبياء عن ارتكاب المعاصي، ويعتقد الشيعة الإمامية بأنّ جميع الأنبياء ^ ، والأئمة من أهل بيت الرسول الأعظم صلوات الله عليهم أجمعين، معصومون من جميع المعاصي، صغيرةً كانت أو كبيرة، من حين الولادة حتى الوفاة، فلا تصدر منهم

المعصية حتى سهواً، أو نسياناً، بل إنه قد توفَّرت لديهم ملكة نفسانية قوية، تمنعهم من ارتكاب المعصية حتى في أشد الظروف، وهي ملكة تحصل من وعيه التام، والدائم، بقبح المعصية، وإرادة قوية على ضبط الميول النفسية، فهم يعملون لأجل إنقاذ المجتمع من المفاسد، والضياع. بينما تذهب فرق أخرى إلى عصمة الأنبياء من الذنوب الكبيرة فحسب، وبعضهم من حين البلوغ، وبعضهم من حين النبوة. والمراد من المعصية، التي يُنَزَّه المعصوم عن ارتكابها، هو فعل الحرام، أو ترك الواجب، وهي تُستعمل في أوسع من ذلك، كترك الأَوْلى، وممارسة مثل هذه الذنوب (ترك الأَوْلى) لا تُنافي المعصية. وقد استدلَّ العلماء على لزوم عصمة الأنبياء ^ بأدلة عقلية، فإذا كان هؤلاء السفراء أنفسهم غير ملتزمين بالتعاليم الإلهية، فإن الناس سوف لا يثقون بهم، ونتيجة لذلك سوف لا يتحقق الهدف من بعثتهم، فالأنبياء كما أنهم مكلفون بإبلاغ محتوى الوحي والرسالة للناس، كذلك هم مكلفون بالقيام بتزكية الناس، وتربيتهم، وإصلاحهم، ولا يستحق مثل هذا المقام الرفيع، إلا أولئك الذين بلغوا باختيارهم، وإرادتهم، أسمى درجات الكمال الإنساني، قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]. وتثبت عصمة الأئمة ^ بعد النبي الأكرم ' بالعقل، والنص أيضاً، قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٨]. ولا شك أنَّ من مصادق الظلم ارتكاب المُحَرَّمات؛ لأنّ الإنسان في هذه الحالة يكون ظالماً لنفسه، ولغيره[٢].

ولا تتنافى العصمة مع الاختيار، فلو كان الله هو الذي عصم المعصوم عن فعل الحرام، وترك الواجب، لما كان للمعصوم فضل في ذلك، وفي ذلك يقول أحد الباحثين: «العصمة تلازم ذروة حسن الاختيار، وذروة اكتمال العقل، وذروة الالتزام بالنظام، في بعديه النظري، والعملي. إنّها الاختيار الدائم

للحقيقة (الله تعالى).. ولأنّ العصمة كذلك، استحقّ المعصوم بجدارة أن يكون الدليل، والرائد، والأسوة، والقدوة»[٣]. وعليه فكلَّما زاد مستوى إيمان، ووعي الإنسان، واعتقاده بالله تعالى، وبعلمه بما يضرُّ الإنسان، ويؤدي إلى فساده وفساد المجتمع من حوله، وهذا ما يؤدي إلى جعل الحكم التكليفي تجاه هذا الأمر يدور بين الكراهة في حال كانت المفسدة أكبر من المصلحة بقليل، والحرمة في حال كانت المفسدة أكبر من المصلحة بكثير، كلَّما ابتعد الإنسان عن فعل هذا المنكر، وازدادت حصانته أمام جميع الخطايا، واقترب من درجة العصمة.

ولا تتنافى العصمة مع القدرة على الوصول إلى هذا المقام بحيث لا يعصي الإنسان ربَّه، وإلا لكان تكليف بغير المقدور، فيكون مرفوعاً، ولا يُعقل أن يحاسب الله الإنسان على أمرٍ لا يستطيع الإنسان تنفيذه، وإلا لكان الله غير عادل، وهو بخلاف عقيدتنا، فإذا أمر الله الحكيم، العادل، الإنسان بفعلٍ ما، فلا بدّ أنَّ الإنسان قادر على الامتثال له، ويجب عليه الامتثال في حال علم الإنسان تكليفه تفصيلاً، أو إجمالاً؛ لأن الطلب يتنجَّز في حقِّه.

وما قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء: ٥٩]، إلا أمرٌ بالإطاعة المطلقة، دون قيد أو شرط، وهو دليل على أنَّ الإنسان قادر على الالتزام بأوامر الله تعالى، سواءً كانت أمراً بمعروف، أو نهياً عن منكر، ونحن عندما نراجع أنفسنا نجدها معصومة، أو تكاد تكون معصومةً أمام بعض الخطايا، والأعمال السيئة، وغير المقبولة، فمن الصعب مثلاً أن نجد إنساناً عاقلاً يأكل الجمر، كما أنّنا نجد أنَّ الإنسان الصادق فعلاً، والذي عوَّد نفسه على الصدق من الصعب جداً أن يسرق، وكذلك الأمين لا يسرق. أما (أولي الأمر)، فإنّ المصداق الأبرز هو الأئمة الإثنا عشر، الذين يجب أن يكونوا معصومين عن الخطأ، والخطيئة، مثل النبي ' ، ولهم علم جمٌّ، كي يستطيعوا القيام بالقيادة المعنوية، والمادية، للناس، ويحفظوا الإسلام، واستمراره. ويأتي

من بعدهم الفقيه، العادل، الخبير، في زمن غيبة الإمام المعصوم (عج)، بحسب اعتقاد الشيعة الإمامية[٤].

٢. الوحدة الفقهية:

ويمكن أن نسأل أيضاً عن معنى الوحدة الإسلامية، هل هي وحدة فقهية؟ ونجيب بأنّ هذا الأمر غير ممكن في ظل غياب المعصومعليه السلام؛ إذ أنَّ لكلّ فقيه مبانيه الأصولية، والرجالية، والمتعلقة بعلم الحديث، في استخراج الأحكام الشرعية من منابعها الأصيلة، وأعني بذلك، الكتاب[٥]، والسُّنَّة[٦]، والإجماع[٧]، والعقل، فإذا فقدت الثلاثة، يعني الكتاب، والسنة، والإجماع، فالمعتمد عند المحققين التمسك بدليل العقل فيها[٨]. ولذلك يختلف المجتهدون أحياناً في الإفتاء في المسائل الفقهية، فيُفتي بعضهم بالحرمة، أو الكراهة، أو الاستحباب، أو الوجوب، أو الإباحة، فتجد من يُحَرِّم اللعب بالشطرنج على أساس أنها آلة قمار، ومن لا يحرِّمها على أساس أنها ليست بآلة قمار، مثلاً. فالوحدة في المسائل الفقهية ليست ممكنة في عصر الغيبة، بل إنَّ لكل مجتهد رسالته العملية، التي تتضمن ما وصل إليه اجتهاده في شؤون العبادات، والمعاملات، والمسائل المستحدثة، حتى ضمن المذهب الإسلامي الواحد.

٣. الوحدة السياسية:

أمّا الوحدة الإسلامية على المستوى السياسي، فهي أمرٌ محمود، بل مطلوب، وضروري، ولاسيما في عصر الفتن المذهبية، التي يزرعها أعداء الأمة في كلّ مكان من العالم الإسلامي، معتمدين على مبدأ (فرِّق تسُد)، ومستميلين فريقاً من المسلمين ضدّ فريق آخر، ومكفِّرين لفريق من المسلمين، ما يبيح للفريق الآخر من المسلمين، بحسب تصوُّرهم، دم المسلم الآخر، وعرضه، وماله! ويا له من ابتلاء، يفوق بمصيبته، المصائب العظمى، ويأخذ بالعالم الإسلامي إلى الانحطاط، والجهل، والتخلف، والقتل، والتدمير، والتناحر الداخلي، والغفلة

عن العدو الحقيقي، الغازي لبلادنا، والهاتك لأعراضنا، والطامع في خيراتنا.

وما أصعب ما وصلنا إليه، ولا سيما في زمن الثورات العربية، غير المتطابقة، فلكلّ منها نقاط اختلاف بحسب خصوصيات البلد، والرئيس، أو الملك، والمطالبة بالحريات، والمُعَبِّرة عن الحالة التي يعيشها الشارع العربي هذه الأيام، نتيجة لحالة الاحتقان الذي عاشته وتعيشه العديد من مجتمعاتنا، بسبب غياب المشاركة الحقيقة، وهيمنة المشروع الآخر، المتمثل بأنظمة حكم عسكرية، وجمهوريات وراثية، وحكم ملكي غير دستوري، وإمارات تحمل قيم القبيلة لتطبقها على واقع الدولة... كل ذلك أوجد حالة جديدة أظهرت في إحدى جوانبها أهمية الإعلام في صياغة مفاهيم، كالإرهاب، والأصولية الإسلامية، والإسلام المعتدل، والإسلام الأمريكي، والإسلام المتطرف، والسلفية، والسلفية التكفيرية، ومصطلحات أخرى تقابلها، كالحرية، وحقوق الإنسان، والديمقراطية، وغيرها من المصطلحات، التي حاول بعض المتورطين من داخل الدائرة العربية، وخارجها، استغلاله، وتوجيهه، لتصفية حسابات بين الأنظمة، والالتفاف على الصحوة، أو ما يسمّى بالربيع العربي؛ لأنّهم وجدوا بالنهاية أنَّ يقظة الشعوب ستنتهي إلى زوال عروشهم، ونهاية مشاريعهم ومخططاتهم في المنطقة. وفي هذه الأجواء لا بد لشعوب أمتنا الإسلامية من التفكير المنهجي، والبصيرة فيما يقع حولها من أحداث، وما يصدر من مواقف، من أجل بناء مستقبل أفضل، نتجاوز فيه مشاكل الماضي، وما عانيناه من قهر، واستبداد، وتبعية، وجهل... نفهم أنفسنا أولاً، ونعرف ما يحاول الآخرون فرضه علينا ثانياً، لنختار ثالثاً الرؤية التي توصلنا إلى الغد الواعد الذي ننشده.

وكمثال على ما وصلت إليه الأمة الإسلامية من وضع خطير، وتعارض في المنهج السياسي، نتأمَّل قليلاً في ما تتناوله وسائل الإعلام من (صفقة سياسية استراتيجية) بين الإخوان المسلمين في مصر، وربما في غيرها من البلدان العربية،

كتونس، وبين المشروع السياسي الغربي[٩]، هي عبارة عن مقايضة توصل بعض الحركات الإسلامية السلفية إلى السلطة، مقابل تعهدها بالتزام سياسة الولايات المتحدة، وحلفائها في المنطقة، التي من أولوياتها، تطبيع العلاقات العربية الإسرائيلية، والقضاء على دول الممانعة سواء كانت عربية كسوريا، أو إسلامية كإيران، والقضاء على حركات المقاومة في المنطقة، سواء كانت شيعية كحزب الله، أم سنية كحركة حماس.

ولعلَّ هذا الانحراف الخطير في النهج السياسي الإسلامي المعاصر، ليس وليد ساعته، بل تم العمل على تأسيسه منذ سنوات طويلة، وذلك اعتماداً على مرتكزات دينية، بل مذهبية، حيث تمّ دراسة الخلافات المذهبية بين المسلمين السُّنَّة والشيعة على مرِّ الزمن، وصولاً إلى تحليل نهج الإمام الخميني السياسي، الذي يرى ضرورة مواجهة نهج الهيمنة، و(الشيطنة السياسية) التي تعتمدها الولايات المتحدة، في العالم، ولا سيما في منطقة الشرق الأوسط، التي تضم دولاً عربيةً، وإسلاميةً كثيرةً، وغنيةً في ثرواتها لطبيعية.

وأستشهد على ذلك بحوار معاصر، يعكس صورة الواقع الأليم الذي يعيشه المسلمون، وهو حوار يتسم بالصراحة، بعيداً عن المجاملات، جرى بين مسلم من شيعة النبي ' وأهل بيته ^ ، ومسلم يعتقد أنّه يسير على سُنَّة النبي محمد ' ، وأستفيد فقط من مقطع يتعلق بالشأن السياسي، أنقله حرفياً دون تصرف في النص، تأديةً للأمانة العلمية، وبعيداً عن النقاشات العقائدية، والأحداث التاريخية، إذ لا يسع المقام لذلك:

ـ الشيعي: إنَّ الشيعة يؤمنون أيضاً بالله، وبالقرآن الكريم، وأسباب النزول، وبسُنَّة النبي الكريم الصحيحة، وقرآن المسلمين واحد، وقبلتهم واحدة، ونبيهم واحد، وأصول الدين التي تؤمن بها المذاهب الأربعة يؤمن بها الشيعة أيضاً، وهذه كلها نِعَمٌ من الله تعالى علينا، ولكن أريد أن أسألك من هم أعداء الأمة

الإسلامية برأيك؟ وكيف يجب أن تواجه الأمة الإسلامية أعداءها؟ أرجو أن تجيبني على سؤالي بالتحديد، وباختصار، وشكراً.

ـ السُّنّي: أمّا من هم أعداء الأمة الإسلامية، فقد وضّح الله لنا في كتابه كلّ شيء، فقال سبحانه: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾، وقال سيّدنا عليّ «كفى بالكتاب خصيماً وحجيجاً»، وقال سيدنا عمر الفاروق نفس مقالته «حسبنا كتب الله» يعنى بذلك قوله سبحانه: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾؛ ولذا نعود للأعداء فهم، كما قال سبحانه بالترتيب: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾.. أمّا العدو الثاني فقوله سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾، فعلى مرّ التاريخ كان اليهود يعيشون معنا، وهم أقليات، وما إن تمكنوا وصارت لهم قوة حتى احتلوا القدس، وظهرت لنا عداوة الصهاينة للمسلمين، فالمحاربون منهم لنا أعداء لنا، وأمّا من لا يحاربنا، ومن يعيش مسالماً كقوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾؛ ولذا فالتعبير القرآني جمع لنا بين عداوة اليهود والذين أشركوا، والذين أشركوا لا يقل عداؤهم للمسلمين عن عداء اليهود، وكلّ من أشرك بالله ودعا غير الله، وتقرب لغير الله بالعبادات، فهو مشرك وهو عدو لنا، يعني نحن لا نعادي أحداً، ولكن هؤلاء المشركين سيتخذوننا أعداء لهم، لأننا ندعو للتوحيد وهم يدعون للوثنية، والإلحاد، والشرك بالله، ولن نأمن جانبهم، لأنهم يتربصون بنا، وكلّ من يتربص بنا، ويتحين الفرص للانقضاض على بلادنا فهو عدو، ولذا سماهم الله بالمنافقين، وهم نوع من الكفار، والمشركين، يكتمون الحقد، والبغض، والكفر، كما وصفهم الله تعالى: ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾. وها نحن اليوم نجد إيران تتربص بأمّ القرى ومن حولها، وكثير من علماء الشيعة يصرّحون تصريحات واضحة بأن الوهابية يحتلون مكة، وبأنّ المهدي سيحرّر

مكة، ألم تسمع بروايات المهدي أنه سيزيل مكة، ويمسح مكة، ويقتل العرب؟ بربك ألم تسمع بكتاب علي الكوراني (عصر الظهور)، وهو المؤسس الروحي لحزب الله[١٠]، وكيف يردِّد فى كتابه بأنّ المهدي سيحرِّر مكة بمساعدة الإيرانيين الفرس، يحرّر مكة لماذا؟ لتصبح بركة من الدماء[١١]، ومسرحاً للطم، والتطبير، وتمثيل مسرحيات الطَّفِّ، والجمل؟ هل يرى الكوراني أصناماً حول الكعبة؟ ألا يرى الطواف حول الكعبة، وإيقام الصلاة في وقتها، وتلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار. هؤلاء من يخفون الحقد فى قلوبهم، هؤلاء أعداء أيضاً، فكلّ من يخفي فى قلبه حقداً وتربصاً بالمسلمين، ولبلدنا، فهو منافق غير مؤمن بالله، لأن المؤمن لا يحقد، ولا يتربص، ولا يغدر، ولا يخون، كما قال رسولنا: «**لا تغدروا، ولا تخونوا، ولا تقطعوا شجرة، ولا تقتلوا شيخاً فى صومعة**». فالحقد، والغدر، والتربص، من صفات المنافقين؛ لأنّ ديننا دين الحق، ودين الوضوح، ودين الصراحة، فقد ظهر الإسلام، ولا يجب إخفاء العقائد كما قال سبحانه: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ ﴾، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾، فقد نسخ عهد التقية، والدعوة سراً، بهذه الآيات، وظهر الدين، وها هو قد لاح على صَفَحات وجوه الفرس، وفلتات ألسنتهم من العداوة، مع ما في صدورهم من البغضاء للعرب وللإسلام وأهله، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل؛ ولو شئت لبعثت لك كثيراً من الفيديو لعلمائهم، وهم يصرحون بكره العرب، وسبّ العرب، وما حرب العراق واليمن ببعيد عنا، ولهذا قال: ﴿ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾. وقال القرطبي: «قوله تعالى: (وما تخفي صدورهم أكبر) إخبار، وإعلام، بأنهم يبطنون من البغضاء أكثر مما يُظهرون بأفواههم» (انتهى كلامه)[١٢].

ألا ترى معي أخي القارئ بأنّ المُحاور الثاني قد بدأ نظرياً بشكل سليم، ثم

انحرف عن جادة الصواب، بتأويله للأمور، وتطبيقه الخاطئ للنظرية على أرض الواقع، إلى درجة أضاع معها البوصلة، والأولويات؟ ولم يفقه تشخيص تكليفه؟ ولم يعرف صديقه من عدوه؟ وربما يعود ذلك إلى علماء البلاط، الذين يروّجون دينياً ما يريده الحاكم سياسياً. والطامة الكبرى أنَّ الحاكم في الظاهر إسلامي، وفي الواقع لا يفقه من الإسلام غير القليل، ولا يعمل بما يعلم به، ويضع إمكانيات بلاد المسلمين في أيدي وبنوك أعدائهم. وما يزيد الأمور تعقيداً الأبواق الإعلامية الغربية، والعربية العبرية، التي تقصف العقول، وتشحن الصدور، وتشوِّه الحقيقة، وتركِّب الصور كما تريد، وتطلقها عبر الأثير بالسرعة المطلوبة، والتكرار الذي يعمي القلوب، ويحجب العقول، ويميت الضمائر، فيصبح الإنسان المسلم كالرجل الآلي، الذي يسيِّره عدوُّه على الريموت كونترول!

ونسأل: هل أنَّ عدو المسلم أصبح المسلم الآخر؟ وأذكر في هذا المقام ملاحظة أبداها لي شيخ أفريقي بعدما قرأ مقالة لي تحت عنوان: (الحكام العرب بين الإسلام واليهودية، جدار غزة نموذجاً)[١٣]، قائلاً: «لقد ركزتَ كثيراً على مفهوم العدو، ما قد يدفع القارئ إلى الملل بعض الشيء»، فأجبته بأني ملتفت إلى هذا الأمر، وقاصد له، ومقتنع به، وقد زادني قناعة الحوار الواقعي الذي دار بين المسلمَين، والمذكور أعلاه. إنَّ تحديد العدو الحقيقي، ووحدته بين المسلمين جميعاً، وتمييزه عن الصديق، يساهم في اتحاد جميع قوى المسلمين البشرية، والمعنوية، والمادية، والزمنية، في سبيل معالجة مشاكل الأمة، وتطورها، ليواكب المسلمون العصر، ويستفيدوا من نعمة المستوى الراقي للإسلام، ودوره الأساسي، والجوهري، في مسيرة تكامل الإنسان، والمجتمع، نحو الكمال، والعمل بسياسة التنمية المستدامة، وعلى كلّ الأصعدة الاجتماعية، والثقافية، والسياسية، والاقتصادية، والإدارية، والإعلامية، كما تسهم في تحقيق النصر

المؤزر للمسلمين على أعدائهم، والعزة والسعادة في الدنيا والآخرة، فالإسلام هو دليل العقل، وحياة القلب البصير، ويدعو إلى البرِّ، والعمل به.

ب. الوحدة الإسلامية في أقوال كبار علماء المسلمين:

١. الإمام الخميني رحمه الله:

ما أعظم الإمام الخميني رحمه الله عندما رأى أن (سياستنا عين ديننا)، فأحكام الإسلام، لا تتعلق بالفرد وحسب، بل هي أحكام اجتماعية، واقتصادية، وسياسية، ولا بد لها من حاكم عالم بالقانون الإلهي، وأمين على تطبيقه، وكفء خبير بشؤون العصر الاجتماعية، والسياسية، والإدارية، وهذا ما أطلق عليه تسمية (نظرية ولاية الفقيه)، التي عمل على تطبيقها أثناء وبعد ثورته المظفرة في إيران، وتأسيسه لنظام الجمهورية الإسلامية فيها، فهو الفقيه، العادل، العارف، الخبير، المحنَّك سياسياً، والقادر على تشخيص مصالح الأمة الإسلامية العليا، واتخاذ القرارات المصيرية، والشجاعة، والحكيمة، في اللحظة التاريخية المناسبة. ولا شكّ أنَّ نظرية فصل الدين عن السياسة، تُبعد الإنسان المسلم عن الرؤية الصحيحة لما يجري حوله من أحداث، بل يجعل الالتباسات والشبهات تهجم على العلماء، والمسؤولين، فكيف بعامة الناس؟!

ومن الأمثلة البارزة على مقصد الوحدة الإسلامية، فريضة الحج، التي تجمع بين الدين والسياسة، إذ يجتمع المسلمون في حشد مهيب، يطوفون حول بيت الله الحرام، ويسعون بين الصفا والمروة، ويصلون جماعة في صفوف منتظمة، وحركات متناسقة، يكبرون معاً، ويقرؤون معاً، ويركعون معاً، ويسجدون معاً، ويتشهدون، ويسلمون معاً، والغاية واحدة وهي تحقيق رضا الله عزَّ وجلَّ، وجعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الشيطان هي السفلى، لا فرق بين مسلم سني، ومسلم شيعي، ولا فرق بين غني وفقر، ولا بين رجل وامرأة، ولا بين

كبير وصغير. ولا يتحقق رضا الله عزّوجلّ إلا بالوحدة بين المسلمين، ودفاعهم المشترك عن دينهم، ومالهم، وأرضهم، وعرضهم، في وجه المعتدي، والغازي، والطامع، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٨٧].

هذا الإمام الذي بنى نظام الجمهورية الإسلامية الإيرانية على تفهُّم الشعب للثورة، وتفاعله معها، وعلى نصرة المستضعفين في العالم، في مواجهة المستكبرين، لأيّ دين انتموا، ولأيّ مذهب انتموا، وأوضح معالم الإسلام المحمدي النقي في شتى المناسك، والتقلبات الحياتية، وذاب في الإسلام، وربط نهضته بعاشوراء الإمام الحسين بن علي ‘ ، التي تضمن الحياة والبقاء للإسلام، وتصونه.

كما أكد على يقظة الشعوب، وانتشار الصحوة الإسلامية فيما بينها، والمحافظة على الاعتدال في خط (لا شرقية، ولا غربية)، والإصرار على الاستقلال الحقيقي والشامل للشعب والدولة الإسلامية، وتحقيق الاكتفاء الذاتي، والإصرار على صيانة أصول الدين، والفقه الإسلامي، والتحذير من الغزو الثقافي، أو ما يسمى اليوم بالحرب الناعمة، حيث تدخل الأفكار، والعادات الغربية السيئة، إلى كل بيت وعقل وقلب. كما كان العمل بالتكليف الإلهي المحور الدائم لجهاد الإمام الخميني رحمه الله، ومن هذا المنطلق سعى لتحقيق الوحدة الإسلامية، في سبيل المصلحة العليا للإسلام والمسلمين، ومن أبرز مصاديق ذلك أنّه جعل القضية الفلسطينية ـ علماً أن الغالبية الساحقة لسكان فلسطين هم من المسلمين السنّة ـ من القضايا المركزية والحساسة في أهداف وتطلعات ثورته. كما أكد على احترام حقوق الإنسان، واحترام الحقوق العامة

للشعب، ولاسيما المطالب المخلصة للطبقة الفقيرة في المجتمع، والاهتمام بصنع كيان الإنسان، ولا سيما الشباب المسلم، وطلاب الجامعات، وبدور المرأة الكبير في إيجاد الثورة، واستمرارها، وانتصارها، وتكامل المجتمع الإسلامي، وبلوغه، ورشده.

ولا شك أنّ وجود فقيه يتمتع بهذه المزايا الشخصية، يشكل ضمانة حقيقية، ليس فقط لمقلديه، أو لأتباع نهجه السياسي، بل أيضاً لغير مقلديه، أو أتباعه من المذهب نفسه، ولكلّ المسلمين من المذاهب الإسلامية الأخرى، بل للبشرية جمعاء، إذ تشكل أفكاره التي يطرحها على الساحة العالمية محوراً للتفكر والتباحث لدى مفكري ومثقفي الشرق والغرب، سواء كانت محلَّ تأييد أو نقد.

٢. الإمام الخامنئي (دام ظله):

وها هو الإمام الخامنئي (دام ظله)، خليفة الإمام الخميني رحمه الله، يسير على النهج نفسه، فهو يُحَذِّر من خلال خطاباته وتصريحاته، من محاولات العدو لإثارة الفرقة بين الشيعة والسُّنَّة، التي تهدف إلى إضعاف الشعوب الإسلامية، ووضع العقبات أمامها كي لا تتمكن من الإفادة من مواهبها وقدراتها وشخصيتها، وكي لا تستطيع أن تبلور نموذجاً ناجحاً أمام العالم، فالعدو إذا استكمل مخطّط التفرقة بين السنّة والشيعة، فإنّه سيبدأ بالتفرقة بين مختلف أطياف السُّنَّة. ونذكر مثالاً لذلك، خطابه خلال تفقده مدينة باوه بكرمنشاه، ذات الأغلبية السنية، حيث استقبل بحفاوة بالغة؛ إذ يرى أنَّ الوحدة والتعاون بين طوائف المسلمين من السنة والشيعة، تشكّل ضربة قوية بوجه المتآمرين، قائلاً: «يجب أن يفهم الأعداء أنّه لا مجال لزرع بذور الفتنة الطائفية في إيران، ولا يستطيع أيّ كان أن يبثّ الفرقة بين أبناء الشعب الإيراني، حيث إنَّ الوحدة الموجودة بين الشيعة والسنة في المنطقة قد وجهت ضربة قاضية إلى أعداء الأمة

الإسلامية». وأوضح سماحته «أنَّ هدف الاستكبار هو زرع بذور التفرقة بين الشعوب الإسلامية وإيران لمنع إيران من أن تكون قدوةً ومثالاً يقتدى به من قبل دول المنطقة».

وتابع سماحته «إنّنا ومنذ انتصار الثورة الإسلامية كنّا نسعى من أجل الوحدة الإسلامية، وقد كان القادة من الإسلاميين الشيعة والسنة في المنطقة يشاركوننا الشعور نفسه من أجل توحيد المذاهب الإسلامية». وفي استعراض للوضع السياسي الدولي، والحصار السياسي، والضغوط الاقتصادية، التي تمارسها الولايات المتحدة وحلفاؤها على إيران، وفي تجسيد للعِزَّة التي يجب أن يتمتع بها العالم الإسلامي، تابع الإمام الخامنئي بالقول: «إِنَّ الشعب الإيراني الذي يتمتع بالوحدة، وأيضاً المسؤولون في الدولة الآن وكما في الماضي لن يتراجعوا قيد أنملة، ولن يتنازلوا أمام القوى المستكبرة، ولن يحيدوا عن مواقفهم العادلة تحت أيّ شكل من أشكال الضغوط». وبهدف طمأنة المسلمين المؤيدين لنظام الجمهورية الإسلامية الإيرانية أكّد سماحته على «أنَّ شعبنا العزيز متحد، ومتمسك بمبادئه الإسلامية، وقيم الثورة الإسلامية، وهو حاضر في كلّ المناسبات السياسية والاقتصادية، ويسعى إلى التقدم العلمي، ويأمل أن يكون قدوة للشعوب الأخرى». وما أجمل الفتوى التي أطلقها الإمام الخامنئي (دام ظله)، بتحريم النيل من مقدسات المسلمين، ولاسيما أمهات المؤمنين[١٤].

٣. شيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب:

بدى التغيير السياسي في مصر، بعد عقود من سيطرة السلطة السياسية على المؤسسة الدينية العريقة، مبشّراً بنوع من الانفراج انعكس على رؤية الأمور بمزيد من الواقعية والإنصاف وتحكيم الدين والعقل، بعيداً عن الضغوط السياسية، فقد دعم شيخ الأزهر الجديد الجهود التي ترمي إلى الوحدة الإسلامية، معلناً أنَّ مؤسسة الأزهر لن تقصِّر في دعم هذا النوع من اللقاءات

بين أبناء الدين الواحد، والعمل للسلام في العالم الإسلامي وتطوير العلاقات بين السنّة والشيعة، وانفتاحه على المذهب الجعفري، رافضاً فكرة التكفير من أيّ جهة أتت. وما أجمل فتوى شيخ الأزهر سماحة الشيخ أحمد الطيب باعتبار المذهب الجعفري (نسبةً للإمام جعفر الصادق عليه السلام)، إحدى المذاهب الإسلامية، والدعوة إلى الوحدة بين جميع هذه المذاهب، باعتبارنا أمة إسلامية واحدة، وإعلانه صحّة الصلاة خلف أئمة المذهب الجعفري، وترحيبه بفكرة انعقاد مؤتمر علمائي يجمع علماء السنة والشيعة الكبار برعاية الأزهر في القاهرة. وكلَّف الطيب مستشاره في المذهب الشيعي بزيارة بيروت، والتنسيق مع التجمع لهذه الغاية[15].

وأخيراً، لا بد من توضيح أنَّ الهدف الأساسي لحركة أهل بيت النبي ' ، هو حفظ الإسلام المحمدي الأصيل، بعيداً عن الأحاديث الموضوعة بأمر من الحاكم الظالم، العامل بغير ما أنزل الله تعالى، أو التي تعارض آيات القرآن المحكمات، أو التي تعارض السُّنَّة النبوية الصريحة، والعمل على إقامة الحكومة الإسلامية، بعيداً عن التسلُّط، والملكية، فقد كان النبي ' أوّل من عمل على إقامة الحكومة الإسلامية، بعد هجرته المباركة من مكة إلى المدينة، وكان المرجع الديني، والسياسي، وخاض المعارك، عندما كانت تقتضي الضرورة ذلك، وعقد أول معاهدة سياسية في الإسلام، بين المسلمين ويهود المدينة، وهي الصحيفة، أو دستور المدينة، أو معاهدة المدينة. كما عمل أئمة أهل البيت ^ على إزالة الشبهات الدينية، ولا سيما ما يخصّ العقيدة الإسلامية، كالقول بتحريف القرآن، أو تناقض بعض آياته، وإزالة الشبهات السياسية أيضاً، ولا سيما ما يخصّ مسيرة الأئمة الاثني عشر السياسية؛ إذ كان بعض المعارضين لنهجهم يتهمهم بالمعارضة لأجل الوصول إلى سُدَّة الحكم، وليس لأجل حفظ الدين، وتطبيق الشريعة. أضف إلى ذلك أنَّ من أهدافهم المشتركة عليهم السلام، وإن

تعدَّدت الأدوار بحسب الظروف السياسية لكلّ منهم، هو الحفاظ على المسلمين، وإيجاد ثُلَّةٍ من الشباب المؤمن القادر على إدارة شؤون الأمة، أو على الأقل الاهتمام العملي بشؤون المسلمين، سواء في حضور الإمام المعصوم، أم غيبته، بسبب السجن، أو الحصار، أو الإقامة الجبرية، أو التهديد بالقتل، أو القتل، الذي كان الأئمة ^ يتعرضون له، بسبب خوف الحاكم الظالم من وجودهم الجسدي بين محبيهم، محبي الرسول الأكرم ' .

٤. الأستاذ الأكبر الشيخ محمد شلتوت:

إنَّ المتأمّل في مسألة الوحدة الإسلامية يجد أنّ الأزهر الشريف قد اتّسم بصفة الانفتاح على المذاهب الإسلامية، والتعاون على البِرِّ والتقوى، والجمع بين المسلمين دون التفرقة، وخير دليل على ذلك أيضاً هو فتوى لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد شلتوت، في جواز التعبُّد بمذهب الشيعة الإمامية، يرى فيها أنَّ الإسلام لا يوجب على أحد من أتباعه إتباع مذهب معيّن، بل إنّ لكلّ مسلم الحق في أن يقلِّد أي مذهب من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحاً، والمدوَّنة أحكامها في كتبها الخاصة، ولمن قلَّد مذهباً من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره، ولا حرج في ذلك من شيء. إنَّ مذهب الجعفرية، المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية، مذهب يجوز التعبد به شرعاً كسائر مذاهب أهل السنّة[١٦].

ج. الخاتمة:

بات من الواضح أنَّ من يتربص بالأمة الإسلامية، ويضمر لها الشر، يعمل وفق استراتيجية نشر التفرقة بين السُّنَّة والشيعة في كلّ مكان وزمان، يستطيع فيه تحقيق هذا الهدف، ما يؤكّد على ضرورة الصمود في وجه هذه المخططات، والتركيز على القواسم المشتركة الدينية والعقائدية الكثيرة والراسخة بين

المسلمين، فضلاً عن المصالح المشتركة على المستوى السياسي. فإذا تعذَّر على المسلمين أن يكونوا متحدين في تمام العقيدة، بل في كمالها؛ لأنهم متحدون في جوهرها، ولا يمكن الاتحاد الفقهي الكامل بين المسلمين، فلكلّ مجتهد فهمه للنص، واستدلاله العقلي، وإن كان هناك الكثير من القواعد والمسلمات الفقهية المشتركة، فليتحد المسلمون على المستوى السياسي، وليجنبوا بلادهم فتنةً مذهبيةً، لا تُبقي ولا تذر. وهذا يستدعي أن لا تتحالف دولة ترفع شعار الإسلام علماً لها، مع أعداء الأمة الإسلامية، لا سراً ولا علانيةً.

فليتمسك المسلمون بالإيمان، وبمبادئ الشريعة، وبالوعي، والعقلانية، وليعملوا على نشر تعاليم الإسلام، دين الرحمة، والتسامح، والدفاع عن المقدسات، وهي مشتركة بنسبة كبيرة بين المسلمين. ولا شك أنَّ لعلماء الدين، الذين يتصفون بالنشاط الحثيث، والجهاد، والبصيرة، والوعي، دور كبير في تحديد مسار ومصير الأمة الإسلامية، فهم كالمصابيح التي تضيء طريق الناس. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

* * *

الهوامش:

(١) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ط٢، بيروت-لبنان، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ج ١١، ص: ١٨٣.

(٢) للمزيد من التفصيل راجع: اليزدي، محمد تقي، دروس في العقيدة الإسلامية، ط٢، بيروت-لبنان، دار الحق، ١٤٢٠ه-١٩٩٩م، ج٢، ص: ٢٣٩-٣٦٧.

(٣) راجع: كوراني، حسين، في المنهج-المعصوم..والنص..، ط١، بيروت-لبنان، دار الهادي، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص: ٧٠.

(٤) الشيرازي، ناصر مكارم، أصول العقائد للشباب، ط٣، بيروت-لبنان، دار الهادي، ١٤٢٠ه-٢٠٠٠م، ص: ١١٥-١١٨، و١٥٧.

(٥) عبر استنطاق دلالة الآيات القرآنية، فهي مقطوعة الصدور عن المولى عز وجل، فلا يُناقش في سندها.

(٦) السُّنَّة في اصطلاح الفقهاء: «قول النبي محمد ' ، أو فعله، أو تقريره». أمّا فقهاء الشيعة الإمامية، فقد ثبت لديهم أنَّ المعصوم من آل البيت عليهم السلام، يجري قوله مجرى قول النبي ' ، فيصبح حُجَّةً على العباد، واجب الإتباع، فقد توسعوا في مفهومها لتصبح السُّنَّة باصطلاحهم: «قول المعصوم، أو فعله، أو تقريره»، حيث يرون أن الأئمة ^ منصوبون من قبل الله تعالى، على لسان النبي ' ، لتبليغ الأحكام الواقعية من بعده. فبيانهم للأحكام ليس من قبيل رواية السُّنَّة، ولا نوع من الاجتهاد في الرأي، بل هم مصدر للتشريع، كما قال الإمام علي عليه السلام: «علَّمني رسول الله ألف باب من العلم، ينفتح لي من كل باب ألف باب». راجع: المظفر، محمد رضا، أصول الفقه- في مباحث الألفاظ، والملازمات العقلية، ومباحث الحجة، والأصول العملية، تحقيق: عباس علي الزارعي السبزواري، ط٦، إيران-قم، مؤسسة بستان كتاب، ١٣٨٠هـ ش، ص:٤١٧-٤١٨.

(٧) الإجماع في اللغة «اتفاق الجميع على أمر ما»، والمراد منه في الاصطلاح اتفاق خاص، كاتفاق الفقهاء من المسلمين على حكم شرعي، أو اتفاق أهل الحل والعقد من المسلمين على الحكم. وقد جعله الأصوليون من المسلمين السُّنَّة، أحد الأدلة في مقابل الكتاب، والسُّنَّة. أمّا المسلمون الشيعة الإمامية، فقد جعلوه أيضاً أحد الأدلة على الحكم الشرعي، ولكن ليس دليلاً مستقلاً في مقابل الكتاب، والسُّنَّة، بل بما هو كاشف عن السُّنَّة، أي قول المعصوم. فالإجماع عند الشيعة الإمامية، هو اتفاق اثنين من الفقهاء، أو أكثر، على حكم شرعي، يكشف كشفاً أكيداً عن رأي المعصوم، بحيث يُعلم إجمالاً على نحو القطع، بأن المعصوم هو أحد المجمعين. والإجماع بذلك لا يشكل مصدراً مستقلاً للفقه، بل يستمد حجيته من دلالة قول المعصوم. راجع: فضل الله، صدر الدين، التمهيد في أصول الفقه، ط١، بيروت-لبنان، دار الهادي، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، ص: ٢٩١-٢٩٢.

(٨) الحلي، أبو جعفر محمد بن منصور بن أحمد (المعروف بابن إدريس)، السرائر الحاوي لتحرير الفتاوي، إيران-قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٠هـ ج١، ص:٤٦.

(٩) أعلنت المتحدثة باسم وزارة الخارجية الأميركية فيكتوريا نولاند الخميس ١٢/ ١/ ٢٠١٢ في واشنطن أن جماعة الإخوان المسلمين في مصر قدمت للولايات المتحدة ضمانات بالنسبة إلى احترام معاهدة التسوية مع إسرائيل، وقالت المتحدثة للصحافيين "لقد قطعوا تعهدات لنا بهذا الشأن". وأضافت: "لقد حصلنا بالنسبة إلى هذا الموضوع على ضمانات من جانب مختلف

المحادثين، وسنواصل السعي وراء الحصول على ضمانات أخرى في المستقبل". وقالت نولاند أن الولايات المتحدة تحرص على التذكير بأنها تتوقع من "كل الفاعلين السياسيين (في مصر) أن يحترموا (...) الالتزامات الدولية للحكومة المصرية". وفي أيلول/ سبتمبر الماضي، طلبت جماعة الإخوان المسلمين "مراجعة" العلاقات مع إسرائيل، من دون الذهاب إلى حد المطالبة بإلغاء معاهدة كامب ديفيد الموقعة في ١٩٧٩، أول معاهدة تسوية موقع عليها بين إسرائيل حليفة الولايات المتحدة الكبرى، ودولة عربية.. راجع:

www.albadee.net/index.php/news/١٦٧٩

(١٠)وهذا غير دقيق جملةً وتفصيلاً (التحرير).

(١١)ليس لهذه الدعوى في الكتاب المذكور عين ولا أثر (التحرير).

(١٢) أقول: إِنَّ كثيراً مِمّا ذكره هذا المحاور بعيدٌ عن الصّواب، بل بعضها افتراء محضٌ لا يمتّ إِلَى الواقع بصلة. والحديث عن الفرس والعرب في الروايات الموجودة في كتب جميع المذاهب الإسلامية، لا يقصد من العرب الَّذِين يمثّلون الإسلام الصحيح، ولا يعني أنَّ المسلم الفارسي يريد أن يقضي على المسلم العربي. بل تُشير إِلَى بعض الوقائع التي نلاحظها بأمّ أعيننا في الوقت الحاضر، وكمثال على ذلك حرب لبنان وغزة الأخيرتين، حيث لاحظنا أنَّ حكّام العرب الَّذِين باعوا أنفسهم لأمريكا والكيان الغاصب لم ينصروا إخوانهم من العرب المسلمين، بل تآمروا عليهم، وفي المقابل رأينا الجمهورية الإسلامية قامت بكلّ ما تستطيع لنصرتهم. فهل ترون أنَّ مثل هؤلاء الحكام العرب يمثلون الإسلام، بحيث لو جاء يوم وأُخرجوا من بلاد المسلمين، فهل نعدّ المخرج سواء كان عربياً أم عجمياً من الخارجين على الإسلام والمسلمين، نترك الجواب عن ذلك للعقول اللبيبة في الأمة الإسلامية.

(١٣) تمّ نشرها في العدد (٧٠) من رسالة الثقلين.

(١٤) أصدر الإمام السيد علي الخامنئي فتوى حرَّم بموجبها الإساءة لزوج النبي الأكرم أم المؤمنين السيدة عائشة، أو النيل من الرموز الإسلامية لأهل السنة والجماعة. جاء ذلك في إجابة على استفتاء وجهه جمع من علماء ومثقفي الإحساء، في أعقاب الإساءات الأخيرة التي وجهها المعمّم الكويتي المقيم في لندن ياسر الحبيب للسيدة عائشة. وقال الخامنئي جواباً على ذلك: «يحرم النيل من رموز إخواننا السنة، فضلاً عن اتهام زوج النبي بما يخل بشرفها، بل هذا الأمر ممتنع على نساء الأنبياء، وخصوصاً سيدهم الرسول الأعظم ' ».وتعد فتوى الخامنئي في ظلِّ هذه الأحداث الأرفع مستوى ضمن ردود الفعل الشيعية الواسعة النطاق، استنكاراً للإساءة التي وجهها

الحبيب للسيدة عائشة. وكان العشرات من الرموز الدينية الشيعية البارزة في السعودية، والخليج الفارسي، وإيران، أدانت بشدة في تصريحات، وبيانات، التعرض بالإساءة للسيدة عائشة، أو أي من أزواج النبي الأكرم. راجع: http: / /islamasel.mobi/vb/t٢٩٣٠.html

(١٥) قام وفد من (تجمع العلماء المسلمين) بزيارة شيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب، في القاهرة، وخرج بانطباعات أكثر من طيبة من لقائه هذا، فالرجل يتمتع بحيوية لافتة ويحرص، قولاً وفعلاً، على تعايش المسلمين والمسيحيين في مصر، وعلى السعي الدؤوب إلى وحدة إسلامية حقيقية، والتقريب بين السُّنَّة والشيعة. ورحّب شيخ الأزهر في اللقاء بأعضاء الوفد على طريقته المصرية المحببة. وأشاد بمشروع (التجمع) الذي يضم نخبة من المشايخ السنة والشيعة، مشيراً إلى أنه يشكل إطاراً للوحدة، وأن مؤسسة الأزهر لن تقصِّر في دعم هذا النوع من اللقاءات بين أبناء الدين الواحد. وشدد في بداية اللقاء على نقطتين يضعهما في مقدم أهدافه هما: العمل على رسم قواعد للسلام المحلي بين المسلمين والأقباط في مصر، والعمل للسلام في العالم الإسلامي، وتطوير العلاقات بين السنّة والشيعة، وانفتاحه على المذهب الجعفري في حضور أحد مستشاريه الكبار المهتمين بهذا المذهب، وذكر أنَّ الأزهر منفتح على الجميع بمن فيهم مذهبا الأباضية، والزيدية، أيضاً في دلالة إلى غيرته على وحدة المسلمين، محذراً من الأخطار التي تهدِّدهم من الغرب وإسرائيل. كما أجمع الطرفان على رفض فكرة التكفير من أي جهة أتت، وأن الخطأ لا يواجه بالخطأ. وطرحت خلال اللقاء فكرة انعقاد مؤتمر علمائي يجمع علماء السنة والشيعة الكبار برعاية الأزهر في القاهرة. وكلَّف الطيب مستشاره في المذهب الشيعي زيارة بيروت والتنسيق مع (التجمع) لهذه الغاية. ووصف عبد الله باسم الوفد زيارة الأزهر (بالفتح المبين)، مشيداً بالدور الريادي لهذه المؤسسة والذي يعني المسلمين كافة إلى أي مذهب انتموا. ولم يعارض الطيب الكلام الذي سمعه من ضيوفه على أساس أنَّ اللعبة السياسية الدولية في المنطقة أكبر من بلدانها، بل زاد عليه أنَّ الغرب ومن خلفه إسرائيل لا يريد من المسلمين أكثر من القيام بأمور العبادة، ويرفض أن تتحول هذه الجماعة عنصر قوة وطاقة. وودع الطيب الوفد برسالة إلى نصر الله: «نحن نقدّر هذه الشخصية وأبلغوه تحياتي». راجع: جريدة النهار، العدد الصادر في بيروت، بتاريخ: ٣١/ ٧/ ٢٠١١م.

(١٦) راجع: مجلة رسالة الإسلام، التي تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بالقاهرة، العدد الثالث، من السنة الحادية عشر، ١٣٧٩هـ-١٩٥٩م، ص: ٢٢٧، نقلاً عن الرضوي، مرتضى، ط٢، في سبيل الوحدة الإسلامية، القاهرة- مصر، دار المعَلِّم، ١٣٩٩ه-١٩٧٩م.

أسس العلاقات

وحقوق غير المسلمين

الأستاذ: سعيد كاظم العذاري (*)

تمهيد

الإسلام دين الرحمة ودين السلام جاء من أجل هداية الإنسانيّة وتحريرها من جميع ألوان الانحراف الفكريّ والعاطفيّ والسلوكيّ؛ بتهيئة العقول والقلوب والإرادات للتلقّي والاستجابة الذاتيّة للمفاهيم والقيم الإلهيّة، واستتباعها بالعمل الإيجابيّ الذي يترجم التصوّرات والأفكار إلى مشاعر وممارسات وعلاقات في الواقع دون إكراه أو إجبار، وهو يسعى إلى تغيير المجتمع الإنسانيّ لتكون المفاهيم والقيم الصالحة هي الحاكمة على الأفكار والمواقف، إلّا أنّ هناك معوّقات تقف في طريق حركته ومسيرته وتمنع من امتداده، وكان لأعدائه الدور الأكبر في خلقها؛ لأنّ تقدّم الإسلام والمسلمين له انعكاسات خطيرة على مصالحهم في حال اعتناقه من قبل الأمم والشعوب التي

(*) مسؤول مركز الرِّعاية للدِّراسات التَّربويَّة/ العراق.

يحكمونها، فالأعداء يتربّصون بالإسلام فكراً ووجوداً، ويتآمرون عليه بلا توقّف، وهم يتصيّدون كلّ ثغرة وكلّ حجّة وكلّ شبهة لتشويه سمعته والتشكيك في مفاهيمه وغاياته وأهدافه، ويقودون حرب الشبهات وصراع التشكيك للحيلولة دون انتشاره وقيادته للناس أجمعين. فقد أثاروا عليه شبهة الانتشار بالسيف، وإراقة الدماء، وإكراه الأقلّيّات الدينيّة على اعتناقه، واضطهاد غير المسلمين والتعامل العنصريّ معهم، وعدم اعتبارهم من المواطنين، وقد قرنوا عنوان الإسلام والمسلمين بالقتل والعدوان والتخريب وعدم مراعاة حقوق الإنسان، ونجحوا بعض النجاح واستطاعوا خداع شعوبهم لولا ظهور بعض المنصفين ليدافعوا عن المنهج الإسلاميّ وتعامله الإنسانيّ مع غير المسلمين ومع الأقلّيّات الدينيّة على مرّ العصور.

وفي هذه المقالة أتطرّق الى مبحثين:

الأوّل: النظرة إلى الأقلّيّات الدينيّة ومبادىء العلاقات.

الثاني: الحقوق العمليّة للأقلّيّات الدينيّة

وقد اعتمدنا على استقراء آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، وعلى سيرة رسول الله ' ، وأهل بيته عليهم السلام، وسيرة بعض حكّام المسلمين الذين أحسنوا معاملة غير المسلمين، إضافة إلى الاعتماد على آراء الفقهاء المتقدّمين من مختلف المذاهب الإسلاميّة، وآراء بعض الفقهاء المتأخّرين، وحاولنا جهد الإمكان استخدام العبارات والمصطلحات الواضحة.

النظرة إلى الأقلّيّات الدينيّة ومبادىء العلاقات: المساواة في الخصائص الذاتيّة والتصوّرية

المساواة في غريزة التديّن والانتساب للخالق:

لم ينشأ المنهج الإسلاميّ في فراغ، ولم يتحرّك في فراغ، ولم ينشأ في قوالب

ومظاهر مثاليّة، وإنّما نشأ في الواقع الموضوعيّ للحياة، وينطلق في النفس الإنسانيّة من أعماقها وأغوارها ومشاعرها الباطنيّة، فهو منهج واقعيّ ناظر إلى واقع الإنسان من حيث هو إنسان بما يحمل من غرائز روحيّة ومادّيّة؛ ولهذا فهو يساوي بين الناس في إيداع أهمّ الغرائز في ذواتهم، وهي غريزة التديّن والشخوص نحو المطلق، فهم متساوون في ذلك، ومتساوون في التأثّر الوجدانيّ بعالم الغيب، قال المسيو بوشيت: «إنّ اعتقاد الأفراد والنوع الإنسانيّ بأسره في الخالق اعتقاد اضطراريّ نشأ قبل حدوث البراهين الدالّة على وجوده، مهما صعد الإنسان بذاكرته في تاريخ طفولته، فلا يستطيع أن يجد الساعة التي حدثت فيها عقيدته بالخالق، تلك العقيدة التي نشأت صامتة وصار لها أكبر الآثار في حياته»[1]. والإيمان بالله تعالى مودوع في أعماق الضمير الإنسانيّ، قال برودون: «إنّ ضمائرنا قد شهدت لنا بوجود الله قبل أن تكشفه لنا عقولنا»[2]. وغريزة التديّن مشتركة بين الناس جميعاً كما ورد في معجم لاروس للقرن العشرين: «إنّ الغريزة الدينيّة مشتركة بين كلّ الأجناس البشريّة، حتى أشدّها همجية، وأقربها إلى الحياة الحيوانيّة... وإنّ الاهتمام بالمعنى الإلهيّ وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالميّة الخالدة للإنسانيّة»[3]. وقال باسكال: «كلّ شيء غير الله لايشفي لنا غليلاً»[4].

وقد أكّد القرآن الكريم على هذه الحقيقة بقوله: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }[لقمان:٢٥].

والناس جميعاً مجبولون بفطرتهم على الإيمان بالخالق تعالى، حيث تبدأ تساؤلات الإنسان منذ صغره عن نشوء الكون ونشوئه هو، فلا فرق بين إنسان وآخر في الإيمان بهذه الحقيقة، والجميع متساوون منذ الخلقة الأُولى وإلى يومنا هذا.

والناس متساوون في الانتساب إلى الله تعالى فهو خالقهم وخالق جميع ما في

الكون، وهم متساوون في الشعور بأنّه خالق مطلق له إحاطة تامّة بالعالم كلّه، وبالأرض كلّها، وبالناس كلّهم، يعلم ما يحيط بالإنسان، وهو المهيمن على سكنات النفوس وحركاتها، وما تخفي الصدور، وإليه تعالى المصير، فهو المبدأ وهو المنتهى.

والناس متساوون في موجبات الهداية، وموحيات الإيمان، فهي ممتزجة بكيانهم الذي زوّدته بهم الفطرة والعقل السليم، فكلّ ما في الكون يدلّ على وجوده تعالى، وقد بيّن لهم تعالى ما يدلّ عليه من خلال التفكّر في الكون والحياة وفي أنفسهم.

وهم متساوون في الرأفة والرحمة الإلهيّة قال تعالى: {وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ}[البقرة:٢٠٧]، وقال أيضاً: {ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ}[الشورى:١٩].

وهم متساوون في وصول العطاء الإلهيّ بمقدار ما في الموجود الإنسانيّ من درجة وقابليّة لتقبّل ذلك العطاء. فالخالق الذي يتساوون في الانتساب إليه واحد غير متعدّد، قال تعالى: {وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ}[البقرة:١٦٣].

المساواة في الخصائص الإنسانيّة

الناس متساوون في خصائصهم الإنسانيّة، فقد خلقهم الله تعالى من مصدر واحد، لا فرق بينهم ولا تمييز من حيث النشأة والابتداء، قال تعالى: {وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ}[المؤمنون:١٢]، وقال: {خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ}[العلق:٢].

والناس جميعاً خُلقوا من ذكر وأُنثى، فلا فرق بين عنصر وعنصر، وسلالة وأُخرى، ولا تمييز بين لون ولون، قال تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ}[الحجرات:١٣]، وقال: {وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن

نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ }[الأنعام:٩٨].

فلا موجب للتمييز، فالخالق واحد، والأب واحد، والمصدر واحد، قال رسول الله ' : «**أيّها الناس إنّ ربّكم واحد وإنّ أباكم واحد، كلّكم لآدم وآدم من تراب...**»[٥]. وهم متساوون في الخلق كما قال الإمام علي عليه السلام: «... **فإنّهم صنفان: إمّا أخ لك في الدين، وإمّا نظير لك في الخلق**»[٦].

والناس متساوون في الخصائص الإنسانيّة، فهم جميعاً لهم طبيعة خاصّة متساوية عند الجميع، فهم مركّبون من جسد وعقل ونفس وروح، ومن غرائز وشهوات واحدة، وهم متساوون في الضعف والمحدوديّة، قال تعالى: { يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا }[النساء:٢٨]. وهم متساوون في الصفات المرافقة للضعف والمحدوديّة، قال تعالى: { وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا }[الإسراء:١١]، { وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا }[الإسراء:١٠٠]، { وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا }[الكهف:٥٤]، { وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ }[هود:٩]، { إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا } [المعارج:١٩ـ٢١]. فالناس جميعاً يمتازون بالضعف والمحدودية، والافتقار إلى الخالق تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ }[فاطر:١٥]، والله تعالى هو الذي جعل للإنسان جوارحه: { قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ }[الملك:٢٣]، وجعلهم متساوين في العقول والمشاعر والأحاسيس، بلا فرق بين إنسان وإنسان، ولا ميزة لسلالة على سلالة، ولا لعنصر على عنصر، ولا لعقيدة على عقيدة ينتمي إليها الإنسان، فالجميع متساوون من حيث خصائصهم الذاتيّة، أمّا انعكاس هذه الصفات في الواقع العمليّ فهو متوقف على درجات التفاعل مع المؤثّرات الخارجة عن الخصائص الإنسانيّة.

وهم متساوون في حبّ الشهوات: { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ

وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا } [آل عمران:١٤]. ومتساوون في الموت والحياة والبعث والنشور، وهم لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً، ولا يعلمون ما يجري في المستقبل عليهم من حيث الحياة والرزق والموت، فهم متساوون في جميع ما يتعلّق بالإنسان من خصائص ذاتيّة وطبعيّة، جسديّة وروحيّة، نفسيّة وعقليّة، ومتساوون في الضعف والكينونة المحدودة، بلا فرق بينهم.

المساواة في الحرّيّة

الناس متساوون في الحرّيّة، فالإنسان خلق حرّاً، فلا عبوديّة ولا استعباد ولارقّ، قال تعالى: { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ } [آل عمران:٧٩]، فلا يحقّ للإنسان وإن كان في قمّة التمتع بالخصائص المعنويّة والروحيّة أن يستعبد غيره، فالإنسان مولود ترافقه الحرّيّة في جميع مراحل حياته، وقد خلقه الله تعالى على هذه الشاكلة، قال الإمام عليّ عليه السلام: «**ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً**»(٧)، وقال عليه السلام: «**إنّ آدم لم يلد عبداً ولا أمة، وإنّ الناس كلّهم أحرار**»(٨).

وإذا كانت الظروف الخارجيّة وخصوصاً ظروف الحرب تستدعي استرقاق الآخرين فإنّها ظاهرة استثنائية تعود إلى الأصل فور تغيّر الظروف الخارجيّة وتغير ظروف الإنسان نفسه، ولهذا نهى رسول الله ' عن استخدام مصطلح العبد والأمة في حال الاسترقاق الطارىء، قال ' :«لا يقولنّ أحدكم: عبدي وأمتي، كلّكم عبيد الله، وكلّ نسائكم إماء الله، ولكن ليقل: غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي»(٩).

فالناس أحرار في علاقات بعضهم ببعض، وهم عبيد لله وحده، ومتساوون في هذه العبوديّة التي تستلزم نفي جميع ألوان العبوديّة لغيره تعالى، وإن كان

مقرّباً إليه تعالى طبقاً لموازين ومعايير التقريب، كأن يكون رسولاً منه إلى البشريّة: {وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ .. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ} [المائدة:١١٦ـ١١٧].

وحينما أشكل بعض اليهود على رسول الله ' أنّه يريد منهم أن يعبدوه كما تعبد النصارى عيسى بن مريم، أجابهم ' :«**معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره**»(١٠). فقد أمر الله تعالى الناس أن يعبدوه وحده، كما هو ظاهر في الآيات الشريفة التالية: {وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ} [التوبة:٣١]، {وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ} [البيّنة:٥]، {ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ} [الأعراف:٥٩]. فهم متساوون في العبوديّة لله تعالى التي تستلزم نفي عبادة غيره من عبادة للهوى أو الأنا أو عبادة الأصنام البشريّة، أو عبادة أصحاب المؤهّلات الكبيرة كالأنبياء وأوصيائهم والرهبان والقساوسة أو عبادة الأبطال الذين لهم دور في حركة التاريخ الإنسانيّ.

وعبّر القرآن الكريم عن جميع الشخصيّات النموذجيّة بالعبيد مساواة لغيرهم من بني الإنسان في العبوديّة لله، ونفي العبوديّة لغيره تعالى، وتأكيداً منه لحرّيّة الإنسان والمساواة في هذه الحرّيّة بين جميع أفراده: {لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ} [النساء:١٧٢]، {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [الإسراء:٣]، {وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ} [ص:١٧]، {وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ} [ص:٤١]، {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ} [البقرة:٢٣]، والمساواة في الحرّيّة تستلزم تحرير الإنسان من جميع الأغلال والقيود إلّا ما قيّده الله تعالى بها، تحرّره من أغلال التحجّر العقلي والتقليد الجامد، والتبعيّة اللّاواعية للغير، وتربّي الإنسان على حرّيّة التفكير واستقلال الإرادة.

المساواة في التكريم

الإنسان مخلوق مكرّم من قبل الله تعالى، وقد أكدّ الإسلام هذا التكريم، فهو من خصائص الإنسان الممنوحة له من قبل خالقه، فهو بنفسه وذاته مكرّم دون إضافة صفةٍ خارجيّة عن ذاته قائمة على أساس الاعتقاد أو الانتماء القوميّ أو العنصريّ، فلا تمييز على الأسس الخارجة عن ذاته، فالإنسان يساوي أخاه الإنسان في التكريم بما منحه الله تعالى من روحه، وما أمر الملائكة بالسجود له إلّا لذلك: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}[ص:٧١ـ٧٢]، وقد كرّمه تعالى بأن خلقه في أحسن تقويم: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[التين:٤]، {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ}[الانفطار:٦ـ٨].

وكرّمه الله تعالى بحمله للأمانة: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ}[الأحزاب:٧٢]، والناس متساوون في حمل الأمانة بلا فرق ولا تمييز على أساس عنصريّ أو لغويّ أو أيّة صفة إضافيّة.

والناس متساوون في تكريمهم بالخلافة الإلهيّة: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[البقرة:٣٠]، والناس متساوون في التمتّع بتكريم الله تعالى لهم، بتسخيره لما في الأرض لهم جميعاً: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}[البقرة:٢٩]، {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}[الجاثية:١٣]، فللجميع حقّ الاستثمار والتعمير والاستفادة من الإمكانيّات المسخّرة لهم لإدامة الحياة والحركة التاريخيّة.

فالتكريم في هذا المجال شامل للجميع لافرق بينهم، وقد أكّد عليه الرسول ' : «**أمّا بعد، فإنّ ناساً يزعمون أنّ كسوف الشمس، وكسوف هذا القمر، وزوال هذه النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض،**

وإنّهم قد كذبوا، ولكنّها آيات من آيات الله يعتبر بها عباده لينظر من يحدث له منهم»[11]. فالنّاس مكرمون جميعاً من الله تعالى، وليس هنالك قيمة تعلو على قيمة الإنسان أو تُهدر من أجلها قيمته، فالكرامة ذاتيّة له ما دام إنساناً، فهي ناظرة إلى إنسانيّته الذاتيّة دون أيّ اعتبار لسائر الخصوصيّات الأُخرى، إلّا التكريم الموضوع من قبل الله تعالى.

المساواة في التكليف والجزاء

الناس جميعاً متساوون في التكليف الإلهيّ في الحياة الدنيا، ومتساوون في الجزاء من ثواب وعقاب في الدار الآخرة، دون تمييز وتفريق أو ترجيح، فالجميع مكلّفون بالإيمان بالله وباليوم الآخر، بعد ما تبرز لهم البيّنات، وتتضح لهم البراهين، بأنّهم حادثون ومخلوقون للمطلق العليم، وقد جعلهم الله تعالى متساوين في الاطّلاع على البيّنات والبراهين والأدلّة، فهو يخاطب فطرتهم وعقولهم ليحرّك دفائنها، ويثير كوامن النفس للاستسلام للحقائق التي توصل إلى معرفته تعالى، قال تعالى: {أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ}[النمل:٦٤]، وقال: {وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[الحشر:٢١].

ولم يكلّف الله تعالى الناس حتى بعث النبيّين والمرسلين، وكان آخرهم نبيّنا محمّد ’ ، الذي بعث إلى الناس جميعاً لإرشادهم وإلقاء الحجّة عليهم في الهداية، فهو لم يبعث لقوم دون قوم ولا للون دون لون، وإنّما للناس على مختلف خصائصهم، وصفاتهم الخارجة عن ذواتهم، كما في الآيات الكريمة: {قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}[الأعراف:١٥٨]، {وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}[سبأ:٢٨]، {قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ}[الحج:٤٩].

وبدأ رسول الله ' بتبليغ الرسالة الإلهيّة إلى الناس جميعاً، إلى العرب والعجم، والوثنيّين وأهل الكتاب بلا فرق ولا تمييز. وقال ' : «**أعطيت خمساً لم يعطهنّ أحد من قبلي، كان كلّ نبي يبعث إلى قومه خاصّة، وبعثت إلى كلّ أحمر وأسود...**»[١٢].

والناس متساوون في التكليف حسب الطاقة الإنسانيّة المحدودة، قال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}[البقرة:٢٨٦]، وقال: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}[الحجّ:٧٨]، {يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ}[البقرة:١٨٥]. فالناس متساوون في التكليف في الأصول والفروع، فهم مكلّفون بالعقيدة والشريعة على حدٍّ سواء، وقد جعل الله تعالى هذه الحياة قنطرةً للحياة الأُخرى التي يتساوى الناس فيها في الجزاء، فكلٌّ منهم يجد ما عمله أمامه، وقد خاطب القرآن الكريم الناس جميعاً بذلك: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ}[الانشقاق:٦]. والله تعالى جامع الناس بلا تمييز لليوم الآخر: {رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ}[آل عمران:٩]، فلكلّ الناس جزاؤهم: {وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[الجاثية:٢٢]، فللمحسنين جزاؤهم وللمسيئين جزاؤهم: {لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ}[النجم:٣١]. فهم متساوون في ذلك اليوم بلا تمييز لعنصر على عنصر أو جماعة على جماعة، فالجنّة مثوى المؤمنين الصالحين، والنار مثوى الكافرين والطالحين وإن انتسبوا إلى الأنبياء بأن كانوا أبناءهم أو بناتهم أو نساءهم، أو ينتمون إلى لغتهم أو قوميّتهم أو عنصرهم.

المساواة في الإرادة والاختيار

خلق الله تعالى الناس أحراراً في إرادتهم واختيارهم، في الاعتقاد به والالتزام برسالته، فهم متساوون في حرّيّة الإرادة والاختيار، والله تعالى منحهم العقول

والغرائز ليتوصّلوا من خلال الآيات والبيّنات إلى اتخاذ المنهج الإلهيّ في الحياة، في عقولهم ونفوسهم ومواقفهم، وهم بعد إلقاء الحجّة لهم حقّ اختيار مايرونه من منهج، بلا إكراه ولا إجبار، قال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[الإنسان:٢ـ٣]، وهم متساوون في هدايتهم لنجد الخير ونجد الشرّ: {وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ}[البلد:١٠]، وهم أحرار {فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا}[يونس:١٠٨]، فإذا تمّت للناس عناصر الهداية ثمّ انحرفوا عنها غروراً وطغياناً وكبراً فإنّ الله يتركهم وشأنهم ولا يتدخّل لهدايتهم؛ لأنّهم مخيّرون لامسيّرون.

وهم متساوون في إصلاح نفوسهم وعدمه، فقد ألهم الله تعالى كلّ نفس عناصر الفجور والتقوى، ثمّ رسم لها طريق الصلاح والطلاح، والأمر عائد للإنسان نفسه: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا}[الشمس:٧ـ١٠].

المساواة أمام السنن الإلهيّة

جعل الله للحياة الإنسانيّة سنناً ثابتة لا تتبدل ولا تتغيّر ولا تختلف، فجعل النتائج تستتبع المقدمات، وجعلها حاكمة على حركة الناس، وهم متساوون أمامها دون فرق أو تمييز، فالله تعالى لا يغيّر ما بهم حتى يغيّروا ما بأنفسهم: {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ}[الرعد:١١].

ومن السنن الثابتة التي يتساوى أمامها الناس جميعاً: التمتّع بالبركات والحرمان منها: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ}[الأعراف:٩٦]، وإنّ بلاء الله لا تمييز فيه بين أمّة وأمّة، وقوم وقوم، ولون ولون، لكي يعودوا إلى الإيمان به

والاستقامة على منهجه، قال عليّ عليه السلام: «**إنّ الله يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات وحبس البركات وإغلاق خزائن الخيرات ليتوب تائب ويقلع مقلع ويتذكّر متذكّر ويزدجر مزدجر**»(١٣). والناس متساوون في العقوبة الإلهيّة إن غيّروا حركة التاريخ المتوجّهة نحو الكمال والسموّ، قال تعالى: { إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ }[العنكبوت:٣٤].

عنوان الإسلام ووحدة الأديان

الإسلام في أدبيّات القرآن الكريم ومصطلحاته اللّغويّة ليس اسماً لدين خاصّ، وإنّما هو اسم للدين المشترك الذي تجمعه وحدة المصدر، ووحدة المصير، ووحدة المفاهيم والقيم، ووحدة الأهداف والأساليب، وهو الدين الذي حمل رايته جميع الأنبياء والمرسلين، وانتسب إليه جميع أتباع الأنبياء في جميع مراحل الحركة التاريخيّة، وكانوا في جميع مراحل الصراع والمواجهة الفكريّة والتشريعيّة وأحياناً العسكريّة يواجهون عدوّاً واحداً لايروق له تقرير مبادىء الحقّ والعدالة والفضيلة في أعماق النفس الإنسانيّة وفي واقع الحياة.

قال تعالى: { إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ }[آل عمران:١٩]. أي: أنّ (جميع الملل والشرائع التي جاء بها الأنبياء روحها الإسلام والانقياد والخضوع، وان اختلفت في بعض التكاليف وصور الأعمال، وبه كان الأنبياء يوصون، فالمسلم الحقيقيّ من كان خالصاً من شوائب الشرك، مخلصاً في أعماله مع الإيمان من أيّ ملّة كان، وفي أيّ زمان وجد)(١٤).

والإسلام هو الدين الذي حمله نوح عليه السلام ودعا قومه إلى الإيمان به، وهو الدين الذي أمره بالدعوة والنهوض، ففي قمّة المواجهة بينه وبين قومه كان

يخاطبهم: { فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ }[يونس:٧٢]. ويظهر عنوان الإسلام واضحاً في دعاء إبراهيم واسماعيل، وفي وصايا إبراهيم ويعقوب. قال تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ }[البقرة:١٢٧ـ١٢٨]. وقال: { وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ }[البقرة:١٣٢]. وقد أكدّ أبناء يعقوب عليه السلام له في مرض موته على حقيقة التديّن بالإسلام كما جاء في القرآن الكريم: { أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ }[البقرة:١٣٣].

والإسلام عنوان انتماء قوم موسى عليه السلام: { وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ }[يونس:٨٤]. ولهذا نجد أنّ فرعون في آخر لحظات عمره وحينما أدركه الغرق يعترف بأنّه من المسلمين، كما حكى القرآن الكريم عنه: { حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ }[يونس:٩٠].

وحينما أراد عيسى عليه السلام إعلان الفصل بين الكفر والانتماء الإلهيّ أجابه الحواريّون: {فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }[آل عمران:٥٢].

ونفى القرآن أيّ عنوان آخر غير الإسلام عن دين الأنبياء السابقين وأثبت أنّ الإسلام هو دينهم: {وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ }[البقرة:١٣٥ـ١٣٦]. واعتراف أهل

الكتاب بانتمائهم للإسلام قبل نزول القرآن وقبل البعثة النبويّة الخاتمة: { ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ } [القصص:٥٢ـ٥٣].

وأكّد القرآن على أنّ الدين نزل في أمّة واحدة، فاستعرض مسيرة الأنبياء عليهم السلام في الدعوة والهداية وفي الصراع مع الكفّار وأتباعهم، ثمّ ختم ذلك الاستعراض بخطابه للمسلمين: { إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ } [الأنبياء:٩٢]. وأكدّ أيضاً على وحدة التشريع في منهج وحركة الأنبياء، فالله تعالى لم يشرّع ديناً جديداً بالبعثة النبويّة الخاتمة، وإنّما هو دين واحد وشريعة واحدة منذ القدم، ويظهر هذا التأكيد في خطابه للمسلمين: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ } [الشورى:١٣].

والدين واحد في أصوله وفي غاياته وأهدافه ووسائله، متنوّع في أدوار المكلّفين بحمله، فلكلّ مرحلة تاريخيّة نبيّ خاصّ وكتاب خاصّ ينسجم مع أحوال الناس وظروفهم المادّيّة والروحيّة وطاقاتهم الذاتيّة، ولا تناقض بين الكتب المنزلة على الأنبياء، فلكلّ مرحلة كتاب مصدّق للكتاب الأسبق ومكمّل له: { إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ . . . . وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ . . . . وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ } [المائدة:٤٤ـ٤٨].

والدين في مرحلة بعثة النبي محمّد ' هو المرحلة الأخيرة من المراحل التي مّرت بها البشريّة وبها ختمت الرسالة بعد كمالها وهو الحلقة الأخيرة من حلقات الدعوة والهداية، ولهذا أشار ' : «**مَثلي ومَثل الأنبياء من قبلي كمثل**

رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلّا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاّ وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيّين»[١٥].

والإسلام هو العنوان للدين في جميع مراحله، وقد أخرج القرآن الكريم الديانات المحرّفة من هذا العنوان، فأصبحت اليهوديّة عنواناً لمن حرّف التوراة التي أُنزلت على موسى عليه السلام، والنصرانيّة عنواناً لمن حرّف الإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام، وكذا الحال في بقيّة الديانات المحرّفة، واختصّ عنوان الإسلام بمجموعة المفاهيم والشرائع التي جاء بها رسول الله ' ، والتي هي المرحلة الأخيرة من مراحل مسيرة الأنبياء عليهم السلام، وقد أكدّ ' هذه الحقيقة في حواره مع اليهود. قالو له: يا محمّد، ألست تزعم انّك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنّها من الله حقّ؟فأجابهم: «**بلى، ولكنّكم أحدثتم وجحدتم ما فيها ممّا أخذ الله عليكم من الميثاق فيها، وكتمتم منها ما أُمرتم أن تبيّنوه للناس، فبرئتُ من إحداثكم**»[١٦].

ومن هنا، فإنّه لاتناقض بين الإسلام وبين الديانات السابقة التي اندرجت تحت عنوانه، ولاتضادّ ولامقاطعة ولامفاصلة، ومن هذا المنطلق أقرّ الإسلام المفاهيم والقيم غير المحرّمة ودعا إلى إظهارها وتقريرها في الواقع، وتعامل مع أتباع الديانات المحرّفة ضمن الأُطر والمحاور المشتركة، فأقرّهم على ما يتبنونه من عقائد وتشريعات، ولم يكرههم على التخلّي عنها ما دامت لاتصطدم مع المصلحة العامّة، وجسّد قادة الإسلام وأتباعه جميع مفاهيم وقيم التعاون والرحمة والعفو مع غير المسلمين في العلاقات والمعاملات، ولا زالوا يعيشون مع المسلمين في أغلب بلدانهم محتفظين بجميع حقوقهم الفرديّة والاجتماعيّة، ولا زال الكثير منهم يشهد للإسلام وللمسلمين بحسن التعامل معهم في جميع مراحل المسيرة المشتركة منذ الصدر الأوّل للإسلام وإلى يومنا هذا.

الحقوق العمليّة للأقلّيّات الدينيّة

حقّ الاعتقاد والتديّن

جاء الإسلام لهداية البشريّة وإنقاذها من الضلالة والأوهام، ومن ظلمات الجهل والخرافة، وقد فتح للهداية أبواباً من البيّنات والدلائل العقليّة الواضحة، وحثّ الإنسان على التدبّر في الكون والحياة، وفي آفاق النفس البشريّة ليهتدي بعد التدبّر والاستدلال، وجعله حرّاً في إرادته للإيمان والاعتقاد، مخيّراً لا مسيّراً؛ ولهذا لم يكره أحداً على تبنّي العقيدة الإسلاميّة، قال تعالى: {وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ}[يونس:٩٩]. وصرّح القرآن الكريم بعدم الإكراه في الدين والاعتقاد فقال: { لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ }[البقرة:٢٥٦].

وقد جسّدت السيرة النبويّة وسيرة المسلمين هذه الحقيقة في جميع مراحل التاريخ، فلم يُكرَه أحد على تبنّي العقيدة الإسلاميّة، ولو كان هنالك إكراه لما بقي إنسان على عقيدته وهو يعيش في ظلّ الدولة الإسلاميّة والبلاد الإسلاميّة، فوجود اليهود والنصارى والصابئين وغيرهم في بلاد المسلمين خير دليل على ذلك. وأوّل عمل قام به النبيّ ' بعد الهجرة وتأسيسه للدولة الإسلاميّة هو موادعة أهل الكتاب وإقرارهم على دينهم(١٧).

وفي حوار لليهود معه ' قالوا له: (يا محمّد... فإنّا نأخذ ما في أيدينا، فإنّا على الهدى والحقّ، ولا نؤمن بك ولا نتّبعك)(١٨).

وكان ' يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يكرههم على الإسلام على الرغم من امتلاكه للقوة العسكريّة، فحينما دعا بعض رؤسائهم إلى الإسلام أجابوه: (بل نتّبع يا محمّد ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أعلم وخيراً منّا)(١٩).

وكان المسلمون وكبار الصحابة لا يُكرهون حتى عبيدهم على الإسلام فعن

يوسف الرومي قال: (كنت مملوكاً لعمر بن الخطاب، فكان يقول لي: أسلم فإنّك لو أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين، فإنّي لا أستعين على أمانتهم بمن ليس منهم، فأبيت عليه فقال لي: { لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ })[٢٠].

آراء الفقهاء والمفسّرين

أقرّ جميع فقهاء الإسلام الناس على دياناتهم ومعتقداتهم وإن كانت محرّفة ومن آرائهم (عدم التعرّض لهم في عقيدتهم)[٢١].ولهم الحرّيّة فيما بينهم في التشاجر والاختلاف في معتقداتهم، قال الفرّاء: (وإن تشاجروا في دينهم واختلفوا في معتقدهم لم يعارضوا فيه)[٢٢].فلا إكراه على الاعتقاد والإنسان مخيّر فيه، قال الطبرسي: (ليس في الدين إكراه من الله ولكنّ العبد مخيّر فيه)[٢٣]. وقال الآلوسي: (لا يتصوّر الإكراه في الدين؛ لأنّه في الحقيقة إلزام الغير فعلاً لا يرى فيه خيراً يحمله عليه والدين الخير كلّه)[٢٤].وقال أبو مسلم والقفال: (إنّه ما بنى تعالى أمر الإيمان على الإجبار والقسر وإنّما بناه على التمكّن والاختيار)[٢٥]. وقال الطباطبائي: (إنّ الإسلام لم يبتن على السيف والدم، ولم يفت بالإكراه والعنوة، على خلاف ما زعمه عدّة من الباحثين من المنتحلين وغيرهم أنّ الإسلام دين السيف... إنّ القتال الذي ندب إليه الإسلام ليس لغاية إحراز التقدّم وبسط الدين بالقوّة والإكراه، بل لإحياء الحقّ). وأضاف إلى ذلك قائلاً: (إنّ الآية أعني قوله: { لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ } غير منسوخة بآية السيف)[٢٦].

ولو أُكره غير المسلم على الإسلام لم يترتّب حكم الإسلام، وهو رأي الإمامين (أبي حنيفة والشافعيّ)، كما حكى عنهما ابن قدامة: (وإذا أكره على الإسلام من لا يجوز إكراهه... فأسلم لم يثبت له حكم الإسلام، حتى يوجد منه ما يدلّ على إسلامه طوعاً.. وإن رجع إلى دين الكفر لم يجز قتله ولا إكراهه على الإسلام، وبهذا قال أبو حنيفة والشافعي)[٢٧]. ويرى الإمام مالك ـ خلافاً للمشهور ـ أنّ الإكراه في العقيدة غير مقبول حتى في الموقف مع الكفّار الذين لا

كتاب لهم كما حكى عنه أبو حيان الأندلسي: (ومذهب مالك أنّ الجزية تقبل من كافر سوى قريش فتكون الآية [{ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ }] خاصّة فيمن أعطى الجزية من الناس كلّهم، لا يقف ذلك على أهل الكتاب)[٢٨]. ويقول سيّد قطب: (إنّ الإسلام يتسامح مع أصحاب العقائد المخالفة له، فلا يكرههم أبداً على اعتناق عقيدته ولهم ـ حتى وهم يعيشون في ظلّ نظامه ودولته ـ أن يجهروا بمعتقداتهم المخالفة للإسلام في غيرما دعوة للمسلمين ولا طعن في الدين... وحسب الإسلام أنّه لا يكرههم على اعتناق عقيدته، وأنّه يحافظ على حياتهم وأموالهم ودمائهم، وأنّه يمتّعهم بخير الوطن الإسلاميّ بلا تمييز بينهم وبين أهل الإسلام، وأنّه يدعهم يتحاكمون إلى شريعتهم في غير ما يتعلّق بمسائل النظام العامّ)[٢٩].

شهادات من الواقع واعترافات غير المسلمين

الاعتراف بحقّ الاعتقاد والتديّن من قبل الإسلام والمسلمين من الحقائق البارزة، والتي اعترف بها غير المسلمين إنصافاً منهم في قول الحقيقة لما لمسوه وشاهدوه من ممارسات إيجابيّة في علاقات المسلمين بغيرهم.

في عهد الخليفة الثالث كتب البطريرك المسيحيّ (سيمون) من مدينة مرو: (إنّ العرب الذين أورثهم الله ملك الأرض لا يهاجمون الدين المسيحيّ أبداً... إنّهم يساعدوننا ويحترمون إلهنا وقدّيسنا...)[٣٠]. وقال مونتجومري وات: (كان السبب الأوّل في نجاح محمّد[’] جاذبيّة الإسلام وقيمته كنظام دينيّ واجتماعيّ لسدّ حاجات العرب الدينيّة والاجتماعيّة. كما أنّ بصيرة محمّد ودبلوماسيّته ومهارته الإداريّة لعبت دوراً كبيراً في نجاحه... يُضاف إلى ذلك: أنّ مهارته في إدارة التحالف الذي يرأسه... جعل الكلّ يشعرون، ما عدا أقلّيّة لا أهمّيّة لها، أنّهم يعاملون معاملة حسنة، زادت الفرق بين شعور الانسجام والرضا في الأمّة الإسلاميّة وشعور القلق في مكّة، ولاشكّ أنّ ذلك أثّر في كثير

من الناس وجذبهم إلى محمّد['])[٣١]. وقال أيضاً: (حتى إذا ما بدت علامات التحلّل على الإمبراطوريّة البيزنطيّة والفارسيّة، وشعر الناس بالحاجة إلى شيء متين يتمسكون به، قدّمت الأمّة الإسلاميّة لهم هذا الاستقرار المطلوب)[٣٢]. وقال جوستاف لوبون: (إنّ القوّة لم تكن عاملاً في انتشار الإسلام... والحقّ أنّ الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب [أي المسلمين])[٣٣].

وقال سيرتوماس وأرنولد: (يمكننا أن نحكم من الصلات الودّيّة التي قامت بين المسيحيّين والمسلمين من العرب بأنّ القوّة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام)[٣٤].

وقال توماس كاريل: (إنّ اتّهام محمّد['] بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم)[٣٥].

وقالت الكاتبة الإيطاليّة لورافيشيا فاغليري: (إن الإسلام لا يبيح امتشاق الحسام إلّا دفاعاً عن النفس، وهو يحرم العدوان تحريماً صريحاً... وأباحت الشريعة القتال للمسلمين دفاعاً عن حرّيّة الضمير لإقرار السلم واستتباب الأمن والنظام)[٣٦].

وقال روبرتسون: (إِنَّ المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الجهاد والتسامح نحو أتباع الأديان الأُخرى الذين غلبوهم وتركوهم أحراراً في إقامة شعائرهم الدينيّة)[٣٧].

وكتب يورجا عن لسان واحد من المسيحيّين: (هؤلاء الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم ونساءهم بشتّى الطرق، وسلبناهم أموالهم، وأخرجناهم من منازلهم عراة، تداركونا وسدّدوا خلتنا، وأطعمونا بعد أن أهلكنا الجوع، وما زالوا يحسنون إلينا حتى غمرونا ببرّهم وإحسانهم لما كنّا أسرى في ديارهم وفي قبضة أيديهم فلو ضاع لأحدنا شيء لما أبطأ أن ردّ إلى صاحبه)[٣٨]. وقال المسيو بونه

موري: (الأسباب التي جعلت للإسلام الفوز في إفريقية بين السود، وأهمّ هذه الأسباب بساطة العقيدة الإسلاميّة التي تنحصر في كلمة لا إله إلّا الله محمّد رسول الله... كذلك الإسلام ليس فيه طبقات ودرجات، فالزنجيّ لا يرى نفسه محتقراً في الجماعة الإسلاميّة)[٣٩].

وقال الأب ميشون: (إنّ من المحزن للأمم المسيحيّة أن يكون التسامح الدينيّ الذي هو أعظم ناموس للمحبّة بين شعب وشعب هو ممّا يجب أن يتعلّمه المسيحيّون من المسلمين)[٤٠].

ويرى المؤرّخ شكيب أرسلان: أنّ (الذي منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الإسلام أو الجلاء هو الشرع المحمّدي الذي يمنع الإكراه في الدين ويرضى من المعاهد بالجزية). وقال أيضاً: (ولقد كانت في السلطنة العثمانيّة عشرات ملايين من المسيحيّين يعيشون وافرين مترفّهين كاسبين متمتّعين بامتيازات كثيرة مدّة عمل الأتراك بالشرع الإسلاميّ، فلمّا جاءت الجمهوريّة التركيّة الحاضرة وبطل العمل بالشرع وأخذ الأتراك بأوضاع الإفرنج وقلّدوهم في كلّ شيء... لم يبقَ في جميع الأناضول إلّا فئة قليلة جدّاً من المسيحيّين عدّة آلاف)[٤١].

الحقوق التشريعيّة

بعد إقرار الإسلام حقّ الاعتقاد والتديّن، أقرّ حقّ التشريع المتفرّع عليه، فلكلّ أمّة أو دين تشريع خاصّ لم يتدخّل الإسلام في تغييره أو تبديله، فلم يحرّم عليهم ما أحلّوه، ولم يحلّل لهم ما حرّموه، فحلالهم حلال، وحرامهم حرام في التعامل فيما بينهم، والإسلام يلزمهم بتشريعهم إن أرادوا للمسلمين التدخّل في ذلك، قال الإمام الصادق عليه السلام: «إن كلّ قوم دانوا بدين يلزمهم حكمه»[٤٢].

ومن أهمّ تشريعاتهم التي أقرّهم عليها الإسلام: العبادة، فلهم حقّ التعبد

حسبما يرونه واجباً في شريعتهم، ففي الصدر الأوّل للإسلام، وفد رؤساء نصارى نجران على رسول الله ' بالمدينة، فدخلوا مسجده عليهم ثيابهم الخاصّة بهم، ولمّا حانت صلاتهم، قاموا يصلّون في مسجد رسول الله ' ، فصلّوا إلى المشرق، وهو موضع قبلتهم، فقال ' للمسلمين: «**دعوهم**»[٤٣]، فكانت لهم الحرّيّة الكاملة ولم يعترض أحد على صلاتهم أو قبلتهم.

وما يمارسونه من أعمال طبق تشريعهم فهم أحرار فيه وإن كان محرّماً في الإسلام، (ولم يعترضوا، إلّا أن يتجاهروا به، فيحمل معهم مقتضى شرع الإسلام، ولو فعلوا المحرّم عندنا وعندهم، تخيّر الحاكم بين الحكم بينهم على مقتضى شرع الإسلام، وبين حملهم إلى حاكمهم)[٤٤]. وظاهر ذلك مختصّ فيما لو تجاهروا بالمحرّم، أو ترتب عليه حقّ للغير، وإلّا فالمحرّم المتستّر به لا يؤاخذون عليه إن لم تكن فيه مفسدة عامّة. فلهم حقّ شرب الخمر سرّاً، ولا تترتّب عليهم عقوبة كما تترتّب على المسلم، سواء شربها سرّاً أو علناً، فلا يحرم عليه الخمر لاعتقادهم بحلّيّته، فلهم حقّ الشرب دون معارضة في بيته أو بيعته أو كنيسته[٤٥]. ولهم حقّ التملك للأشياء التي لا يحقّ للمسلم تملّكها حسب تشريعهم، ولا يحقّ لأحد أن يمنعهم من ذلك وإن كانت لا تملك في تشريعنا[٤٦]. ويقرّون على تشريعهم في مسائل الزواج والنكاح إن اعتقدوا صحّته وإن كان فاسداً عند المسلمين، فكلّ ممارساتهم محكوم بصحّتها، ولا يعترض عليهم في ذلك، أو يمنعون منها[٤٧]. ويقرّون في تشريع الإرث والوصايا حسبما يرونه ولا يحقّ لأحد الاعتراض عليهم، وكذلك الحال في أمور الملكيّة[٤٨]. ولا قيود على ذلك إلّا في حدود المساس بمصلحة المواطنين، وهي قيود غير مختصّة بالأديان وأتباعهم، فهنالك قيود على المسلمين على حدٍّ سواء، وهم مقيّدون بالقيود التي تحفظ السلامة العامّة والسلام العامّ، فلا يطغى حقّ الفرد على حقوق المجتمع، ولا حقوق المجتمع على حقّ الفرد. وما عدا بعض

القيود، فهم أحرار في اتّباع تشريعهم دون معارضة.

حرّيّة التفكير وحقّ إبداء الرأي

منح الإسلام حرّيّة التفكير وحقّ إبداء الرأي لأتباع الأديان التي تعيش في ظل الدولة الإسلاميّة، وفي داخل المجتمع الإسلاميّ، وفقاً لمتبنّياته في تحرير العقل والتفكير بإقامة الحجّة والبرهان، فلا يمنع من أن يكون الإنسان حرّاً في تكوّن رأيه غير مقلّد ولا تابع، وأن يعبّر عن هذا الرأي عن طريق الحوار، وبالأسلوب الذي يريده، وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الحقّ وهذه الحرّيّة بالقول: {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ} [البقرة:١١١].

وأمر باستخدام الأسلوب الحسن في الجدال مع أصحاب الديانات، وهذا يقتضي منح الحرّيّة لهم في إبداء وجهات نظرهم في مختلف القضايا والأحداث، قال تعالى: {وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ} [العنكبوت:٤٦].

كما دعا صراحةً إلى حرّيّة الحوار وإبداء وجهات النظر المختلفة، دون إكراه أو إرهاب: {قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٦٤].

فالإسلام لم يمنع غيره من إبداء وجهات النظر بالحوار العلميّ الهادىء الذي يقوم على أسس سليمة عن طريق إقامة الدليل والحجّة والبرهان، وهنالك قيود قيّد بها الإسلام غير المسلمين طبقاً لمعاهدة التعايش السلمي التي اتّفق عليها المسلمون مع من يعيش في ظلّ حكومتهم أو بلادهم، وهذه القيود لا تختصّ بهم بل هي شاملة لهم وللمسلمين حفاظاً على المقدّسات واحتراماً

للحرّيّات العامّة، ومن هذه القيود:

١. أن لا يذكروا كتاب الله بطعن ولا تحريف له.

٢. أن لا يذكروا رسول الله ' بتكذيب له ولا ازدراء.

٣. أن لا يذكروا الإسلام بذمٍّ أو قدح[٤٩].

وهذه القيود قيود موضوعيّة تنسجم مع بديهيّات حقّ إبداء الرأي، وقد عاهد أصحاب الديانات المسلمين بعدم المساس بها، كما قيّد الإسلام المسلمين بها في تعاملهم مع غيرهم، بأن لا يذكروا مقدّساتهم بطعن ولا قدح، ويقتصر إبداء الرأي على طرح الأدلّة والبراهين طلباً للحقيقة بعيداً عن الازدراء والطعن والتشويه البعيد عن أسس الحوار المتبعة في الديانات الإلهيّة والوضعيّة.

حرّيّة الرأي في الصدر الأوّل للإسلام

كان غير المسلمين في عهد رسول الله ' سواء كانوا أهل كتاب أم كفّاراً يتمتّعون بكامل حريتهم في التفكير وإبداء وجهات نظرهم وآرائهم دون ضغط وإكراه، وكان ' يستمع إلى تلك الآراء، سواء كانت اقتراحات أم اعتراضات أم مجرّد رأي، فحينما دعا بعضهم إلى الإسلام أجابه أبو صلوبا الفطيوني: (يا محمّد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية فنتبعك لها). وقال له رافع بن حريملة ووهب بن زيد: (يا محمّد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرأه، وفجّر لنا أنهاراً نتّبعك ونصدّقك)[٥٠].وقال له بعض رؤساء اليهود في موقف آخر: (أتريد منّا يا محمّد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟). فأجابهم ' برفق وهدوء: (معاذ الله أن أعبد غير الله، أو آمر بعبادة غيره)[٥١].

وفي جلسة ضمّت رؤساء اليهود والنصارى، دعا فيه الرؤساء رسول الله ' لاتّباعهم على دينهم، فقال له رؤساء اليهود: (ما الهدى إلّا ما نحن

عليه فاتّبعنا يا محمّد تهتدي)، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله تعالى: {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ}[البقرة:١٣٥](٥٢).

وفي حوار دار بين أبي بكر وفنحاص اليهوديّ، قال له أبو بكر: (اتّقِ الله وأسلم، فوالله إنّك لتعلم أنّ محمّداً لرسول الله). قال فنحاص: (ما بنا إلى الله من فقر، وإنّه إلينا فقير)، فغضب أبو بكر فضرب وجهه ضرباً شديداً، فشكاه فنحاص إلى رسول الله ' ، فعاتبه ' على هذا الموقف، وعلى أثر ذلك نزلت الآية الكريمة: {وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ}[آل عمران:١٨٦])(٥٣).

ولم تقتصر الحرّيّة في الرأي على أهل الكتاب بل شملت حتى المشركين من غيرهم، فحينما قدم وفد بني تميم على الرسول ' نادوه من وراء الحجرات: (اخرج إلينا يا محمّد)، فخرج إليهم، فقالوا: (يا محمّد جئناك نفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا)، فأذن لهما ' فبدأ خطيبهم بتبيان مفاخرهم ومآثرهم، ثمّ قام شاعرهم، فافتخر بشعره، وأمام هذا الموقف أمر رسول الله ' خطيبه وشاعره بإجابتهم، وتبيان فضائل الإيمان والإسلام، فأسلموا إثر ذلك حينما وجدوا تفوق خطيب الرسول ' وشاعره على خطيبهم وشاعرهم، وللمعاملة التي تلقوها من قبل رسول الله ' في مسجده وهو رئيس دولة، حين سمح لهم بإبداء وجهات نظرهم، بكلّ حرّيّة، وبأمثل صور المسامحة والتكريم(٥٤).

واستمرّ الخلفاء من بعده ' على العمل بسنّته مع أتباع الديانات المختلفه، وكان لهم حقّ إبداء الرأي، بل حقّ الاعتراض أحياناً، ففي عهد أبي بكر كانت اللّقاءات مستمرّة بينه وبين رؤساء وأتباع الديانات القائمة، وكانوا يسألونه عن

مختلف القضايا والأحداث فيجيبهم، وإذا عجز عن الإجابة بعثهم إلى غيره من الصحابة[٥٥].

وفي عهد عمر كان لهم مطلق الحرّيّة في إبداء وجهات نظرهم، والاستفسار عن كثير من الآراء والمواقف، وكان يجيبهم عن كلّ شيء بمفرده أو يستعين بغيره من الصحابة في ذلك[٥٦].

واعترض أهل الكتاب من أهل الشام أمامه على بعض المسلمين لتكليفهم فوق طاقتهم فسمح لهم بالاعتراض بكلّ حرّيّة، واستجاب لشكواهم وأمر المسلمين بعدم تكليفهم فوق طاقتهم[٥٧].

وطلب أهل بيت المقدس من أبي عبيدة أن يكون عمر هو المتولّي لعقد الصلح، فاستجاب لذلك وسار بنفسه إلى بيت المقدس[٥٨].

وطالب بعض النصارى عثمان بن عفان بتخفيف الجزية عليهم، فاستجاب لهم وأسقط عنهم مئتي حلّة[٥٩].

وجاء بعض رؤساء النصارى إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام معترضين على بعض المواقف فمنحهم حرّيّة الاعتراض واستجاب لما طلبوه منه[٦٠]. وكان لهم مطلق الحرّيّة في إبداء وجهات النظر، ومن ذلك قول أحد اليهود له عليه السلام: (مادفنتم نبيّكم حتى اختلفتم فيه!)، فأجابه عليه السلام: «إنّما اختلفنا عنه لا فيه»[٦١]. وكان أهل الكتاب يسألونه عليه السلام عن مختلف المسائل، حتى عن الخلافات بين المسلمين فيجيبهم دون تردّد أو إخفاء للحقيقة[٦٢].

وإضافة إلى حرّيّة الرأي كان لهم حقّ تعليم أبنائهم وأتباعهم ما يعتقدونه من عقائد وإن كانت باطلة عندنا، ولهم حقّ مطلق التعليم وفي جميع أصناف العلوم، فكانت لهم بيوت خاصّة يتدارسون فيها أمور دينهم، ففي عهد الرسول ' كانوا يجتمعون في بيت يسمى بيت المدراس، وكان ' يدخل عليهم ويدعوهم إلى الإسلام[٦٣] بالحكمة والموعظة الحسنة.

ونتيجة لحرّيّة التعليم والتعّلم كان بعض العلماء في تاريخ الإسلام من أهل الكتاب، قد ساهموا مساهمة فعّالة في إرساء دعائم العلوم المختلفة بكلّ حرّيّة، يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور: (...ولكنّ هذه الحقيقة في حدّ ذاتها شهادة للإسلام، ودليل على دوره الفعّال في بناء الحضارة، فالإسلام هو الذي وفّر لغير المسلمين جوّاً من الحرّيّة والتسامح والعدالة جعلهم يقبلون على الإسهام في ذلك النشاط الحضاريّ بنفوس مطمئنّة وقلوب راضية)[٦٤]. ولأهل الكتاب حقّ كتابة التوراة والإنجيل وسائر الكتب الخاصّة بهم، ولهم حقّ الطبع والنشر[٦٥].

حقّ الحماية

من مصاديق إنسانيّة الإسلام ورحمته بأتباع الأديان أن تبنّى حمايتهم من كلّ ألوان الاضطهاد والظلم والعدوان بقسميه: الخارجيّ والداخليّ، فهم آمنون على أرواحهم وأعراضهم وممتلكاتهم، وتجلّى هذا التبنّي منذ الأيّام الأُولى لإقامة الدولة الإسلاميّة في المدينة المنورة، حيث كتب النبيّ ' كتاباً حدّد فيه دستور العلاقات بين مواطني المدينة على اختلاف أديانهم، وقد جاء في هذا الكتاب: «...وإنّه من تبعنا من يهود فإنّ له النصرة والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم... وإنّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإنّ بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم...»[٦٦].

وكتب ' أماناً إلى يحنة بن رؤبة صاحب إيلة جاء فيه: «هذه أمنة من الله ومحمّد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل إيلة... لهم ذمّة الله، وذمّة محمّد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر...»[٦٧].

وفي عهد عمر بن الخطاب لم يستطع المسلمون حماية أهل الكتاب لعدم

قدرتهم العسكريّة أمام حشود المعتدين، فكتب أبو عبيدة إلى ولاة المدن أن يردّوا الجزية والخراج إلى أهلها، وأن يقولوا لهم: (إنّا رددنا عليكم أموالكم؛ لأنّه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وأنّكم اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنّا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط...)[٦٨].

وكان أهل الكتاب يتمتّعون بجميع مظاهر الأمن في ظلّ الدولة الإسلاميّة في عهد الخلفاء، حتى وصل الأمر إلى أنّ الإمام عليّاً عليه السلام يتأسّف لاعتداء البغاة على نساء المسلمين وأهل الكتاب على حدٍّ سواء، ففي حثّه على ردع البغاة يقول: «...**وقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأُخرى المعاهدة فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها... فلو أنّ امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً**»[٦٩].

وكتب الإمام محمّد الباقر عليه السلام إلى أحد حكّام بني أميّة حول التعامل مع أهل الكتاب: «... **ومن أقرّ بالجزية لم يتعدّ عليه، ولم تُخفر ذمته، وكلّف دون طاقته**»[٧٠]. وببذل الجزية يكون لهم حقان[٧١]: أحدهما: الكفّ عنهم. والثاني: الحماية لهم ليكونوا بالكفّ آمنين وبالحماية محروسين.

ويرى الفرّاء أنّ لأهل العهد إذا دخلوا دار الإسلام (الأمان على نفوسهم وأموالهم، ولهم أن يقيموا أقلّ من سنة بغير جزية؟ ولا يقيمون سنة إلّا بجزية)[٧٢]. ويرى ابن جماعة وجوب حمايتهم من العدوان الداخليّ والخارجيّ فيقول: (فلهم علينا الكفّ عن أنفسهم وأموالهم ومعابدهم التي يجوز بقاؤها لهم وعن خمورهم مالم يظهروها... وعلينا دفع من قصدهم بسوء من المسلمين وغيرهم إذا كانوا في بلاد المسلمين)[٧٣]. والدفاع عنهم من أجل حمايتهم موضع اتّفاق بين الفقهاء، ففي مذهب الشافعي يجب على الإمام (الذبّ عنهم ومنع من يقصدهم من المسلمين والكفار، واستنقاذ من أُسر منهم واسترجاع ما أُخذ من أموالهم سواء كانوا مع المسلمين، أو كانوا منفردين عنهم في بلدهم... فإن لم

يدفع عنهم حتى مضى حول لم تجب الجزية عليهم)[٧٤]. ويقول النووي: (يلزمنا الكفّ عنهم وضمان ما تلف عليهم نفساً ومالاً ودفع أهل الحرب عنهم)[٧٥]. ويرى ابن قدامة وجوب حماية غير المسلمين من قبل الإمام، وردّ العدوان عليهم فيقول: (وإذا عقد الذمّة، فعليه حمايتهم من المسلمين وأهل الحرب وأهل الذمّة...)[٧٦]. ويستشهد في مقام آخر بقول الإمام عليّ عليه السلام: «**إنّما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا، وأموالهم كأموالنا**»[٧٧].

حق التقاضي والحماية القانونيّة

للمواطنين الذين يعيشون في ظلّ الدولة الإسلاميّة سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين لهم حقّ التقاضي والحماية القانونيّة؛ لذا أوجب الفقهاء على القضاة الاستماع إلى دعواهم، والحكم بينهم سواء كانوا متّحدي الدين أم مختلفين، قال ابن قدامة: (وإن تحاكم مسلم وذمّيّ، وجب الحكم بينهما بغير خلاف؛ لأنّه يجب دفع ظلم كلّ واحد منهما عن صاحبه)[٧٨]. وغير المسلمين مخيّرون في التحاكم إلى حاكمهم أو إلى حاكم المسلمين، فليس لأحد منعهم من التحاكم إلى حاكمهم، وإذا تحاكموا إلى حاكم المسلمين فمن حقّه الحكم بينهم طبقاً لحكم الإسلام، وفي ذلك قال الفرّاء: (وإن تشاجروا في دينهم واختلفوا في معتقدهم لم يعارضوا فيه ولم يكشفوا عنه، وإن تنازعوا في حقّ ارتفعوا فيه إلى حاكمهم لم يمنعوا منه، وإن ترافعوا فيه إلى حاكمنا حكم بينهم بما يوجبه دين الإسلام، وتقام عليهم الحدود إذا أتوها)[٧٩].

وفي إقامة الحدود للحاكم حقّ الاختيار بين الحكم بينهم أو إرسالهم إلى حاكمهم ليحكم بينهم[٨٠]. ويجب الحكم بالحقّ بين المسلم وغيره، أو بين غير المسلمين فيما بينهم، لا تمييز بينهم على أساس الانتماء العقائديّ، فالجميع متساوون أمام القضاء، والدليل على ذلك أنّ جميع الآيات القرآنية الدالّة على

الحكم بالعدل بين الناس لم تخصّص في مورد معيّن، وإنّما هي عامّة بين المسلمين وغير المسلمين، ومن وصيّة الإمام عليه السلام لواليه على مصر يأمره (... **بالعدل على أهل الذمّة وبإنصاف المظلوم، وبالشدّة على الظالم**)[٨١].

وأكّد الإمام عليّ بن الحسين ' على العدالة في الحكم في رسالة الحقوق، فقال عليه السلام: «**وأمّا حقّ أهل الذمّة فالحكم فيهم أن تقبل منهم ما قبل الله وتفي بما جعل الله لهم من ذمّته وعهده، وتكلهم إلى الله فيما طلبوا من أنفسهم وأجبروا عليه، وتحكم فيهم بما حكم الله به على نفسك فيما جرى بينك وبينهم من معاملة، وليكن بينك وبين ظلمهم من رعاية ذمّة الله والوفاء بعهده وعهد رسوله حائل فإنّه بلغنا أنّه قال: من ظلم معاهداً كنت خصمه**)[٨٢].

وكانت سيرة رسول الله ' وسيرة الخلفاء قائمة على أساس العدل في الحكم، ففي عهده ' اتّهم الأنصار اليهود بقتل أحدهم فتحاكموا إلى رسول الله ' ، فقال لهم ' : ألكم بينة؟ فقالوا: لا فقال: أفتقسمون؟ فقالوا: كيف نقسم على ما لم نره؟ فقال: فاليهود يقسمون فقالوا: يقسمون على صاحبنا، وكانت نتيجة الحكم أن برّأ ' اليهود من التهمة وأعطى ديته من عنده[٨٣].

واختصم مسلم ويهوديّ عند الخليفة الثاني، فرأى أنّ الحقّ لليهوديّ فحكم بالحقّ لصالحه[٨٤].

وأروع صور ومظاهر العدل، أنّ الإمام عليه السلام في عهد خلافته، تحاكم مع نصرانيّ عند القاضي شريح، فقال شريح له عليه السلام: ما أرى أن تخرج من يده، فهل من بيّنة؟ فقال عليه السلام: صدق شريح، وحينما لمس النصرانيّ العدالة بأفضل صورها قال: (أمّا أنا فأشهد أنّ هذه أحكام الأنبياء... أمير المؤمنين يجيء إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه)، واعترف أنّ الحقّ للإمام عليه السلام[٨٥].

وبما أنّ القضاء يتطلّب الشهادة، فقد أجاز الرسول ' شهادة غير

المسلمين بعضهم على بعض[٨٦]. وفي حال الضرورة يجوز الشهادة وإن اختلف الانتماء الدينيّ. سئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن شهادة أهل الملل، قال: «**لا تجوز إلّا على أهل ملّتهم، فإن لم يوجد غيرهم جازت شهادتهم على الوصيّة، لأنّه لايصلح ذهاب حقّ أحد**»[٨٧]. ويحلف أهل الكتاب كما يحلف المسلم ويترتّب على الحلف الحكم النهائي بلا فرق بين المسلم وغيره، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**اليهوديّ والنصرانيّ والمجوسي لا تحلّفوهم إلّا بالله عزّوجل**»[٨٨].

وفي قضايا الديات يتساوى المسلمون وغيرهم في ذلك، مع فارق في القدر المأخوذ، وإذا عجز الذمّيّ عن دفع الديّة لقتله للمسلم خطأ، فديته على بيت المال[٨٩] كما لو كان الذمّيّ مسلماً.

وقال الإمام الخميني رحمه الله: (ويحقّ لهم الترافع إلى حاكم المسلمين أو إلى حكّامهم، وإذا ترافعوا إلى حاكم المسلمين فيجب عليه العدل في الحكم سواء كان بين ذمّيّ وذمّيّ أو بين ذمّيّ ومسلم). وتترتب العقوبة على المسلم إن اعتدى عليهم طبقاً للقوانين الموضوعة في أبواب القضاء، ويُردّ الحقّ للمعتدى عليه منهم[٩٠].

نماذج من قوانين الحماية

في القضاء الإسلاميّ هنالك قوانين خاصّة بحماية غير المسلمين من الظلم والاضطهاد والاعتداء، فمن قتل أحداً من غير المسلمين فعليه دفع الدية، في حالة غشهم للمسلمين وإظهار العداوة لهم[٩١]. ويقتل المسلم إذا كان متعوّداً على قتل أهل الذمّة، وإن كانوا مظهرين العداوة للمسلمين[٩٢]. وقد سنّ الإسلام قانون القصاص لردع الجريمة؛ ولذا فإنّ عليّاً عليه السلام كان يقول: «**يقتصّ للنصرانيّ واليهوديّ والمجوسيّ بعضهم من بعض، ويقتل بعضهم ببعض إذا قتلوا عمداً**»[٩٣]. وعن بريد العجلي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل مسلم

فقأ عين نصرانيّ، فقال: «**إنّ دية عين النصرانيّ أربعمائة درهم**»[٩٤]. ووضع الإسلام عقوبات لردع الإعتداء على غير المسلمين من ظلم أو أذى أو سرقة، وفي ذلك أفتى الإمام الشافعي: (ومن سرق لهم من بلاد المسلمين أو أهل الذمّة ما يجب فيه القطع قطعته... وأعزّر من قذفهم، وأؤدب لهم من ظلمهم من المسلمين، وآخذ لهم منه جميع ما يجب لهم مما يحلّ أخذه.. وإذا عرض لهم بما يوجب عليه في ماله أو بدنه شيئاً أخذته منه، واذا عرض لهم بالأذى... زجرته عنه، فإن عاد حبسته أو عاقبته عليه، وذلك مثل أن يريق خمرهم أو يقتل خنازيرهم...)[٩٥]. ويرى الإمام أحمد أنّ جراحات اليهود والنصارى والمجوس على قدر دياتهم من ديات المسلمين[٩٦].

وقال الإمام الخميني رحمه الله: (وهناك ممارسات يقتل فيها المسلم دون الكافر والذمّيّ، وعلى سبيل المثال، العامل بالسحر يقتل إن كان مسلماً، ويؤدّب إن كان كافراً، ويثبت ذلك بالإقرار. وليس بين أهل الذمّة معاقلة فيما يجنون من قتل أو جراحة، وإنّما يؤخذ ذلك من أموالهم، فإن لم يكن لهم مال رجعت الجناية على إمام المسلمين)[٩٧]. وقال الشيخ محمّد أبو زهرة: (يمنع الحاكم الإسلاميّ من التعرّض لغير المسلمين الذين يعيشون في ظلّ الدولة الإسلاميّة)[٩٨].

وهنالك قوانين أُخرى لحماية غير المسلمين سنذكرها في الحقوق القادمة.

الحقوق الاقتصاديّة والمالية

ضمن الإسلام لغير المسلمين حقوقهم الاقتصاديّة والماليّة، وحرّم الاعتداء على أموالهم بالسرقة والغصب والغشّ والاحتيال، ولم يأخذ منهم غير الجزية وهي تدفع من أجل الدفاع عنهم وحمايتهم[٩٩]. وراعى في أخذ الجزية التفاوت الاقتصاديّ بينهم، فقرّر إعفاء العاجزين عن دفعها، وإعفاء الصبيان والنساء والعبيد، والشيوخ المسنّين وأصحاب العاهات الجسديّة والعقليّة، ومطلق

الفقراء فلا تؤخذ منهم، وهذا محلّ اتّفاق الفقهاء من جميع المذاهب[١٠٠]. وأمر بحسن التعامل عند أخذ الجزية والاكتفاء بأخذ اليسير من أموالهم وترك ما يحتاجون إليه، ومن ذلك أنّ عليّاً عليه السلام أمر جباة الجزية بأن لايضربوا أحداً ولايبيعوا لهم رزقاً ولا كسوة شتاء ولا صيف ولا دابّة يعملون عليها، فقال له أحدهم: (يا أمير المؤمنين إذاً أرجع إليك كما ذهبت من عندك)، فقال عليه السلام: «**وإن رجعت كما ذهبت ويحك إنّما أمرنا أن نأخذ منهم العفو [يعني الفضل]**»[١٠١]. وكتب عليه السلام إلى أصحاب الخراج: «...**ولا تمسّنّ مال أحد من الناس، مصلٍّ ولا معاهد، إلّا أن تجدوا فرساً أو سلاحاً يعدى به على أهل الإسلام، فإنّه لا ينبغي للمسلم أن يدع ذلك في أيدي أعداء الإسلام**»[١٠٢]. وروى زيد عن أبيه عن جدّه عن عليّ عليه السلام أنّ مسلماً قتل خنزيراً لنصرانيّ، فضمّنه علي عليه السلام قيمته، وقال: «**إنّما اعطيناهم الذمّة على أن يُتركوا يستحلّون في دينهم ما كانوا يستحلّون من قبل**»[١٠٣]

وفيما يلي نستعرض تلك الحقوق.

أوّلاً: العدالة في أخذ الجزية:

لا يجوز للمسلمين أخذ ما لم يتّفق عليه في عقد الجزية، قال الرسول ' : «**إنّكم لعلّكم تقاتلون قوماً فيتّقونكم بأموالهم دون أنفسهم وأبنائهم، ويصالحونكم على صلح، فلا تأخذوا منهم فوق ذلك، فإنّه لايحلّ لكم**»[١٠٤]. فيحقّ للمسلمين أخذ أموالهم حسب المعاهدة، وما سوى ذلك فلا يجوز، فعن محمّد بن مسلم قال سألت أبا جعفر الباقر عليه السلام في أهل الجزية يؤخذ من أموالهم ومواشيهم شيء سوى الجزية؟ فقال: «**لا**»[١٠٥]. وسئل الإمام الصادق عليه السلام عن حقّ المسلمين في أموال أهل الذمّة قال: «**الخراج، فإن أخذ من رؤوسهم الجزية فلا سبيل على أرضهم، وإن أخذ من أرضهم فلا سبيل على رؤوسهم**»[١٠٦]. وأفتى الفقهاء بذلك، قال المحقّق الكركي: (أرض الصلح وهي كلّ أرض

صالح أهلها عليها، وهي أرض الجزية فيلزمهم ما يصالحهم الإمام عليه من نصف أو ثلث أو ربع أو غير ذلك، وليس عليهم شيء سواه)[١٠٧]. ويجب العمل على طبق الشروط المتفق عليها، قال الإمام الخميني: (لو عيّن في عقد الجزية على الرؤوس لا يجوز بعده أخذ شيء من أراضيهم وغيرها، ولو وضع على الأراضي لا يجوز بعده الوضع على الرؤوس، ولو جعل عليهما لا يجوز النقل إلى إحداهما، وبالجملة لا بدّ من العمل على طبق الشروط)[١٠٨]. ويرتّب الإمام الخميني آثار الصحّة على العقد وإن كان أحد طرفي العقد هو الحاكم الجائر[١٠٩] حفاظاً على حقوق أهل الذمّة.

وهنالك ضرائب إضافيّة يكون فيها المسلم وغيره على حدٍّ سواء مراعاةً للظروف الاقتصاديّة والمصلحة العامّة، فعن زياد بن حدير قال: (أمرني عمر أن آخذ من تجار أهل الذمّة مثل ما آخذ من تجار المسلمين)[١١٠]. وتسقط الجزية في حال عدم قدرة المسلمين على حمايتهم، أو تبنوا بنفسهم الدفاع عن أنفسهم وممتلكاتهم، كما مرّ سابقاً.

ثانياً: الفصل بين الموقف السياسيّ وحقّ الملكيّة:

فصّل الإسلام بين الموقف السياسيّ وحقّ الملكيّة، فالحقّ يبقى لصاحبه وإن اتّخذ موقفاً سياسيّاً معادياً للإسلام والمسلمين، فبعد أن نقض اليهود عهدهم مع رسول الله ' خطب ' المسلمين قائلاً: «**أيّها الناس إنّكم قد أسرعتم في حظائر اليهود، ألا لاتحلّ أموال المعاهدين إلّا بحقّها**»[١١١].

وإذا دخل الحربيّ دار الإسلام بأمان في تجارة أو غيرها ثبت له الأمان في نفسه وماله، ويكون حكمه في ضمان النفس والمال وما يجب عليه من الضمان والحدود حكم المهادن[١١٢]. وإذا دخل الحربيّ دار الإسلام بغير عقد أمان فادّعى أنّه تاجر ووجد معه متاع يبيعه، قبل منه ذلك وكان آمناً على ماله ونفسه[١١٣]. وإذا لحق المعاهد بدار الحرب فيجب إعادة أملاكه إليه وليس

للمسلمين غنيمتها[١١٤]. وإذا دخل المسلم دار الحرب للتجارة، فلا يحلّ له أن يتعرض لأموال المشركين أو المحاربين المسلمين؛ لأنّه ضمن أن لا يتعرّض لهم بالاستئمان[١١٥].

قصة الأسود الراعي

قال ابن إسحاق: وكان من حديث الأسود الراعي: أنّه أتى رسول الله ' وهو محاصر لبعض حصون خيبر، ومعه غنم له، كان فيها أجيراً لرجل من يهود، فقال: يا رسول الله: اعرض عليّ الإسلام، فعرضه عليه، فأسلم، فلما أسلم قال: يارسول الله، إنّي كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم، وهي أمانة عندي، فكيف أصنع بها؟ قال: اضرب في وجوهها، فإنّها سترجع إلى ربّها، فقام الأسود، فأخذ حفنة من الحصى، فرمى بها في وجوهها، وقال: ارجعي إلى صاحبك، فوالله لا أصحبك أبداً فخرجت مجتمعة كأنّ سائقاً يسوقها، حتى دخلت الحصن[١١٦]. فحقّ الملكيّة مفصول عن الموقف السياسيّ والعسكريّ، وهذا ما يجسّد إنسانيّة الإسلام في تعامله مع غير المسلمين فلا يبيح التعرّض لأموالهم وممتلكاتهم وإن أعلنوا العداء ونقضوا العهود.

ثالثاً: إعادة الحقوق المغتصبة:

حرّم الإسلام الاعتداء على أموال أهل الذمّة بل مطلق الناس؛ ولذا سنّ قانون الضمان في حال الاعتداء من غصب أو سرقة أو غشّ أو احتيال، فمن أتلف من المسلمين أو غيرهم مالاً لهم فعليه ضمانه[١١٧]. ويشمل الضمان حتى الملكيّة التي لا اعتبار لها في الإسلام كالخمر والخنزير أو آلات اللّهو، فلو (أتلف لذمّيّ خمراً أو آلة لهو، ضمنها المتلف ولو كان مسلماً، ويشترط في الضمان الاستتار)[١١٨]. و(خمر الكافر المستتر محترم يضمن بالغصب بقيمته عند مستحلّيه، وكذلك في الخنزير)[١١٩].

وكان المسلمون لا يعتدون على أملاكهم وأموالهم وإن حدث ذلك ضمن

من قبلهم، ولم يستثمر قادة الدولة الإسلاميّة الظروف لأخذ بعض أموالهم منهم، وكان النبيّ ' يأخذ بعض ما يحتاج عارية مضمونة وبرضا من صاحبه، فقد طلب ' من صفوان بن أميّة مئة درع، فقال: أغصباً يا محمّد؟ قال ' : «لا، ولكن عارية مضمونة»، قال: لابأس بهذا[١٢٠].

وكانت سيرة الخلفاء قائمة على هذا الأساس، فقد أتى رجل من أهل الذمّة إلى عمر بن الخطاب شاكياً اعتداء بعض المسلمين على عنبه، فخرج حتى لقي رجلاً من أصحابه يحمل ترساً عليه عنب، فاعتذر ذلك الرجل بالمجاعة والاضطرار، فأمر عمر للذمّيّ بقيمة عنبه[١٢١].

وأفتى الفقهاء ببقاء الحقّ وعدم سقوطه ووجوب الضمان في مختلف الظروف والأحوال، فإن (اقترض حربيّ من حربيّ مالاً ثمّ دخل إلينا أو أسلم، فقد قال أبو العباس: عليه ردّ البدل على المقرض؛ لأنّه أخذه على سبيل المعاوضة فلزمه البدل... فإن دخل مسلم دار الحرب بأمان فسرق منهم مالاً أو اقترض منهم مالاً، وعاد إلى دار الإسلام ثمّ جاء صاحب المال إلى دار الإسلام بأمان وجب على المسلم ردّ ما سرق أو اقترض)[١٢٢]. ويبقى الحقّ وإن تغيّر الموقف السياسيّ والعسكريّ فلو (اقترض حربيّ من حربيّ أو اشترى منه ثمّ أسلما أو قبلا جزية دام الحقّ)[١٢٣].

رابعاً: حقّ العمل

غير المسلمين لهم حقّ العمل في بلاد المسلمين ولا يكرهون على اختيار عمل معيّن، فهم أحرار في ذلك، ولا قيود عليهم في العمل، وإن وجدت فهي على حدٍّ سواء بين المسلمين وبينهم ومنها الأعمال التي تضرّ بالمصلحة العامّة، أمّا في الأمور المباحة فهم أحرار، قال أبو يوسف: (ويتركون يسكنون في أمصار المسلمين وأسواقهم يبيعون ويشترون ولايبيعون خمراً ولا خنزيراً)[١٢٤]. وهذا البيع إنّما هو حرام على المسلمين، أما فيما بينهم فلا قائل بحرمته أو منعه، وقد

جوّز الإسلام لهم هذا الحقّ وجوز مشاركتهم للمسلم في الأمور التجاريّة والزراعيّة وغيرها، فعن إبراهيم بن ميمون قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قرية لأناس من أهل الذمّة لا أدري أصلها لهم أم لا، غير أنّها في أيديهم وعليهم خراج فاعتدى عليهم السلطان، فطلبوا إلي فأعطوني أرضهم وقريتهم على أن أكفيهم السلطان بما قلّ أو كثر، ففضل لي بعد ذلك فضل بعدما قبض السلطان ما قبض، قال عليه السلام: «**لابأس بذلك لك ما كان من فضل**»[١٢٥]. فأجاز عليه السلام صحّة العمل مع أهل الذمّة من قبل المسلم. وعن إسماعيل بن فضل الهاشمي قال: سألت الصادق عليه السلام عن رجل اشترى منهم أرضاً من أراضي الخراج فبنى فيها أو لم يبن، غير أنّ أناساً من أهل الذمّة نزلوها، أله أن يأخذ منهم أجور البيوت إذا أدّوا جزية رؤوسهم، قال عليه السلام: «**يشارطهم، فما أخذ بعد الشرط فهو حلال**»[١٢٦].

والمشاركة من قبل المسلم مع غيره جائزة ولكنّها مكروهة، وترتفع الكراهة إذا كانت المعاملة تجاريّةً وحضور المسلم فيها، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كره مشاركة اليهوديّ والنصرانيّ والمجوسيّ إلّا أن تكون تجارة حاضرة لايغيب عنها المسلم**»[١٢٧]. ووجه الكراهة هو عدم التزام كثير من غير المسلمين بأحكام الإسلام في حرمة الربا وسائر المعاملات المحرّمة.

وفي الشفعة قال زيد بن علي: (لا شفعة لليهود ولا النصارى في مدائن العرب وخططهم، ولهم الشفعة في القرى في البلدان التي لهم أن يسكنوها)[١٢٨]. وقد أطبق الفقهاء على ثبوت الشفعة للكافر على مثله[١٢٩]. وكذلك أجمعوا على (ثبوت الشفعة للذمّيّ على الذمّيّ)[١٣٠].

ولم يحرّم الإسلام حتى مهنة الرضاعة بين غير المسلمة والطفل المسلم، فجوّز إرضاع الكتابيّة للطفل المسلم بشرط أن تمتنع من شرب الخمر[١٣١].

وكان أهل الكتاب وخصوصاً اليهود لهم مهن معروفة عند المسلمين، فقد

كانوا خيّاطين وصباغين وأساكفة وخزارين[١٣٢]. وكان لرسول الله ' خادم يهوديّ يخدمه مقابل أجرة[١٣٣]. وكانت الدولة الإسلاميّة تستعين بهم في الأعمال والوظائف التي لم يشترط فيها الإسلام، يقول عبد الكريم زيدان: (إن اختلاف الذمّيّين مع المسلمين في العقيدة لم يقم حائلاً دون إشراكهم في إدارة شؤون الدولة وتكليفهم بوظائفها)[١٣٤].

وقد شهد بعض المستشرقين بذلك ومنهم آدم متز حيث قال: (من الأمور التي نعجب لها كثرة عدد العمّال والمتصرّفين غير المسلمين في الدولة الإسلاميّة)[١٣٥].

خامساً: حقّ الضمان الاجتماعي وتكفّل الدولة الإسلاميّة

تبنّى الإسلام التكافل الاجتماعيّ وإشباع حاجات الفقراء والمستضعفين، سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين، ما داموا يعيشون في ظلّ الدولة الإسلاميّة، وقامت السيرة على ذلك، وكان النبيّ ' يتفقّد أحوال الفقراء والمحتاجين من المسلمين وغيرهم وينفق عليهم، فعن سعيد بن المسيب قال: (إنّ رسول الله ' تصدّق صدقة على أهل بيت من اليهود، فهي تجري عليهم)[١٣٦]. ولم يكن ' يمنع نساءه من التصدّق على غير المسلمين، فقد تصدّقت صفيّة على قرابتها من اليهود بما يقدّر بثلاثين ألف درهم[١٣٧]. وكان ' يحثّ على إطعام الجيران وإن كانوا غير مسلمين، فقد ذبحت له شاة في داره، فلما جاء، قال: أهديتم لجارنا اليهوديّ؟ أهديتم لجارنا اليهوديّ؟ ما زال جبريل يوصني بالجار حتى ظننت أنّه سيورثه)[١٣٨].

وقد خصّص بعض الخلفاء عطاءاً من بيت المال للمستضعفين من أهل الذمّة، فقد روي أنّ عمراً مرّ بشيخ من أهل الذمّة يسأل على أبواب الناس، فقال: ما أنصفناك إن كنّا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثمّ ضيعناك في كبرك، ثمّ أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه[١٣٩]. وروي أيضاً أنّ عليّاً عليه السلام مرّ بشيخ

مكفوف كبير يسأل الناس، فقال عليه السلام: ما هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين نصرانيّ، فقال عليه السلام: «استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه، أنفقوا عليه من بيت المال»[١٤٠]. وعن عمرو بن أبي نصر قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ أهل السواد يقتحمون علينا، وفيهم اليهود والنصارى والمجوس، فنتصدّق عليهم، فقال: «**نعم**»[١٤١]. وكان عمرو بن ميمون، وعمرو بن شرحبيل، ومرة الهمداني، يعطون الرهبان من صدقة الفطر[١٤٢].

وتبنّى القانون الإسلاميّ دفع الدية عن الذمّيّ العاجز من بيت المال[١٤٣] وقد تقدّم أنّ المسلمين كانوا لا يأخذون الجزية من الأطفال والفقراء والشيوخ والمرضى والنساء، وكان الخلفاء يوصون بعدم تكليف أهل الذمّة فوق طاقتهم في دفع الجزية، والتساهل معهم بأخذ ما زيد على مؤونتهم[١٤٤]. وذهب عدد من الفقهاء إلى أنّ ما يؤخذ من زكاة المسلمين يزيد على ما يؤخذ من الذمّيّين في حين يحظى الجميع بحماية الدولة الإسلاميّة ورعايتها على أساس العدل والرحمة والمساواة[١٤٥].

ولو قدّر للإسلام أن يطبق في الواقع، لتمتّع جميع المواطنين، مسلمين وغير مسلمين، بالرفاه والرخاء، ولزال شبح الفقر والعوز، فبالإضافة إلى كفالة الدولة الإسلاميّة، حثّ المنهج الإسلاميّ على التكافل الاجتماعيّ، والمساهمة في إشباع حاجات الفقراء والمساكين، ابتداءاً بالأرحام ثمّ الجيران ثمّ المجتمع، وقد أثبتت السيرة التاريخيّة للمسلمين في القرون الماضية تمتّع أهل الذمّة بكامل حقوقهم في ظلّ الدولة الإسلاميّة حيث تبنّت حقّ الضمان لهم أسوة بالمسلمين.

صيانة الكرامة وحماية الأعراض

الإنسان في نظر الإسلام مخلوق متميّز عن سائر المخلوقات، وهو مخلوق مكرّم مهما كان انتماؤه العقائديّ؛ لذا نجد أنّ آيات التكريم الواردة في القرآن

الكريم لم تكن مختصّة بالإنسان المسلم، بل هي عامّة لجميع أصناف الناس وبمختلف عقائدهم ودياناتهم، ولذا أكّد الإسلام على وجوب صيانة الكرامة، وحرمة الإيذاء الأدبيّ للإنسان، ووضع تشريعاته وقوانينه لحماية الكرامة والأعراض، وكان الناس يتمتّعون في ظلّ الدولة الإسلاميّة ومجتمع المسلمين بكراماتهم، وحماية أعراضهم.

قال رسول الله ' : «**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وإن خالفكم**».[١٤٦] وكانت سيرته قائمة على تكريم غير المسلمين، فقد أكرم ' بنت حاتم الطائي حينما وقعت في أسر المسلمين، وكساها وأعطاها نفقة وأطلقها من الأسر،[١٤٧] وحينما قدم عدي بن حاتم رحّب به ' ، وأضافه في بيته، وأحسن ضيافته وهو لم يسلم في حينها[١٤٨].

وكانت سيرة الخلفاء قائمة على أساس تكريم الإنسان، فحينما وقعت بنات الملوك في الأسر قال عليّ عليه السلام لعمر: «**هؤلاء لا يكرهن على ذلك ولكن يخيّرن ما اخترنه**»[١٤٩] فاختارت كلّ واحد منهنّ شخصيّة من شخصيّات المسلمين من الصحابة وأبناء الصحابة، ولم يكن التكريم مخصوصاً بمن له جاه في أتباع دينه، وإنّما كان تكريماً عامّاً لجميع من ارتبط بعلاقة مع المسلمين.

وحرّم الإسلام جميع المظاهر التي يفهم منها الحطّ من كرامة الآخرين، كالسخرية والاستهزاء والتحقير والتنابز بالألقاب والتعيير، والحرمة مطلقة لم تُقيَّد بانتماء الإنسان إلى الإسلام، فجاءت الآيات والروايات مطلقة. وحرّم الخداع والمدالسة؛ لأنّها استهانة بالكرامة، فقد أوصى عليّ عليه السلام أحد ولاته بأهل الذمّة خيراً فقال: «... **وقد جعل الله عهده وذمّته أمناً أفضاه بين العباد برحمته وحريماً يسكنون إلى منعته ويستفيضون إلى جواره، فلا خداع ولا مدالسة ولا إدغال فيه**»[١٥٠].

وفيما يلي نستعرض بعض مظاهر صيانة الكرامة وحماية الأعراض في المنهج

الإسلاميّ:

أوّلاً: حرمة دخول البيوت دون استئذان

لا يحلّ للمسلم أن يدخل بيتاً دون استئذان من أهله سواء كانوا مسلمين أم لا، وقد جاءت الآية الكريمة مطلقة، قال تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ }[النور:٢٧]. وقال النبيّ ' : «**إنّ الله عزّ وجلّ لم يحلّ لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلّا بإذن منهم، ولا ضرب نسائهم**»(١٥١). فللبيوت في الإسلام حرمة، لذا نجد أنّ الكثير من أحكام القضاء تجيز استخدام القوّة في حال التعرّض لحرمة البيت، ولم يختص الجواز بالمسلم، فلغير المسلم حقّ الدفاع عن حرمة بيته. ويلحق بحرمة دخول بيوتهم دون استئذان: حرمة دخول أماكنهم الخاصّة بهم، كدور العبادة وغيرها إلّا بإذنهم، إلّا في الضرورات؛ لأنّها تبيح المحظورات، وليس لأحد من المسلمين أن يتبع شيئاً من أمورهم الخاصّة بهم(١٥٢).

ثانياً: حرمة قذف غير المسلمين

حرّم الإسلام التعرّض للأعراض بقذف وشبهه، ولا فرق في ذلك بين المسلم وغيره، عن أبي الحسن الحذّاء قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فسألني رجل ما فعل غريمك؟ قلت: ذاك ابن الفاعلة، فنظر إليّ أبو عبد الله نظراً شديداً، فقلت: جُعلت فداك إنّه مجوسيّ أمّه أخته، فقال: أوليس ذلك في دينهم نكاحاً؟!(١٥٣).

وقد جعل عليه السلام قذف غير المسلم مصداقاً لنفي الورع عن القاذف، عن عمر بن عجلان قال: كان لأبي عبدالله عليه السلام صديق لا يكاد يفارقه، فقال يوماً لغلامه: يا ابن الفاعلة أين كنت؟ فرفع أبو عبد الله عليه السلام يده فصكّ بها جبهة نفسه ثمّ قال: «**سبحان الله تقذف أمّه، قد كنتُ أرى أنّ لك ورعاً، فإذ ليس لك ورع**»، قال: جعلت فداك إنّ أمّه سنديّة مشركة، فقال: «**أما علمت أنّ لكلّ أمّةٍ**

نكاحاً، تنحّ عني...»[١٥٤].

ونهى أحمد بن حنبل عن قذف اليهوديّ والنصرانيّ[١٥٥].

ووضع الإسلام عقوبات على قذف الغير تأديباً للناس وتحجيباً لهذه الظاهرة السلبيّة، فمن قذف كافراً بالزنا عُزّر سواء كان القاذف مسلماً أم كافراً[١٥٦]. ومنع القذف مطلقاً، ووضع العقوبات في شأنه للحيلولة دون انتشاره بين غير المسلمين فإذا (تقاذف أهل الذمّة أو العبيد أو الصبيان بعضهم في بعض، لم يكن عليهم حدّ، وكان عليهم التعزير)[١٥٧]. وإذا قذف الكافر امرأته فعليه الحدّ[١٥٨] سواء كان من أهل الذمّة أم من أهل الكتاب أم من غيرهم من سائر أصناف الكفّار. فالإسلام حفظ لغير المسلمين كرامتهم وعرضهم؛ لإيمانه بصيانة كرامة مطلق الإنسان، وحصانة عرضه.

ثالثاً: الحماية القانونيّة للأعراض

تكّفل الإسلام حماية أعراض المسلمين وصيانتها من كلّ دنس، ومن انحرافات الفسّاق والمنحرفين والمعتدين، ووضع العقوبات القاسية بحقّ المتمرّدين على الثوابت السلوكيّة في صيانة الأعراض، سواء كانوا من أهل ملتهم أم من المسلمين بلا فرق، فإذا زنا المسلم بذمّيّة مطاوعة له، عوقب بالجلد أو الرجم تبعاً لإحصانه وعدمه، ويتخيّر الحاكم الإسلاميّ بين تسليم الذمّيّة إلى أهل دينها ليحكموا فيها بحكمهم، أو يحكم فيها بحكم الإسلام، وإذا كان الزاني غاصباً مغالباً للمرأة على نفسها فيقتل صبراً سواء كان مسلماً أم كافراً[١٥٩]؛ للحيلولة دون الاعتداء على الأعراض.

ولم يتهاون المسلمون في إقامة الحدود على المعتدين، ففي عهد الإمام عليّ عليه السلام سأله واليه على مصر عن عقوبة مسلم فجر بنصرانيّة فأجابه: «**أن أقم الحدّ على المسلم... وادفع النصرانيّة إلى النصارى يقضون فيها ماشاؤوا**»[١٦٠]. وإذا زنا غير المسلم بأهل ملّته كان الحاكم الإسلاميّ مخيراً بين إقامة الحد عليه بما

يقتضيه شرع الإسلام، وبين تسليمه إلى أهل دينه أو دين المرأة ليقيموا عليهم الحدود على ما يعتقدونه[١٦١]. وكان أهل الذمّة يتحاكمون لدى حاكم المسلمين في مثل هذه القضايا، إضافة إلى التحاكم لدى حاكمهم، ففي عهد الرسول ' رجعوا إليه فحكم فيهم بحكم الإسلام المطابق لحكم التوراة غير المحرّفة[١٦٢].

وبالحماية القانونيّة كان غير المسلم يتمتّع بالأمان في حفظ عرضه وصيانته، ولم تحدث حالات انتهاك لنواميس وأعراض غير المسلمين في بلاد المسلمين إلّا قليلاً بالقياس إلى امتداد القرون التي تعايشوا فيها مع المسلمين.

رابعاً: حسن المعاملة

جاء الإسلام لإتمام مكارم الاخلاق وتقريرها في الواقع المعاشي؛ لذا فهو يأمر المسلمين باستبقاء أسباب الودّ في القلوب والنفوس بطهارة السلوك وحسن المعاملة مع جميع بني الإنسان، ولا يجعل للفواصل العقائديّة دوراً في الفصل بين المسلمين وغيرهم أو في تبادل النظرة السلبيّة، فجاءت توجيهاته وتعاليمه لإشاعة القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة في التعامل مع بني الإنسان، وقد جسّد النبيّ ' تلك القيم في تعامله مع غير المسلمين، فعاد غلاماً يهوديّاً في جواره وجلس عند رأسه[١٦٣]، ومرّت به جنازة فقام لها، فقيل له: إنّها جنازة يهوديّ، فقال: أليست نفساً[١٦٤]؟!وفي موقف آخر غضبت إحدى زوجاته على اليهود الذين قالوا له: السام عليك، بدلاً من السلام عليك فأجابها: «**إنّ الفحش لو كان ممثلاً لكان مثال سوء، إنّ الرفق لم يوضع على شيء قط إلّا زانه، ولم يرفع عنه قط إلّا شانه**»[١٦٥].

وفي عهد الإمام عليّ عليه السلام لواليه على مصر أوصى بالرحمة مع الناس مسلمين وغير مسلمين «**وأشعر قلبك الرحمة للرعيّة والمحبّة لهم واللّطف بهم، ولاتكوننّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنّهم صنفان: إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك**

في الخلق»[١٦٦].

وحينما وجد أهل الكتاب وغيرهم أنّ كرامتهم مصونة اندمجوا مع أبناء المجتمع الإسلاميّ وامتزجوا معهم، وهنالك شواهد عديدة على هذا الاندماج وعلى سلامة العلاقات القائمة على الودّ والوئام والتآلف، ففي مجلسٍ ضمّ المسلمين والنصارى عطس رجل نصرانيّ، فقال له المسلمون: هداك الله، فقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: قولوا: «**يرحمك الله**»، فقالوا له: إنّه نصرانيّ! فقال: «**لا يهديه الله حتى يرحمه**»[١٦٧]. وعن عبد الرحمن بن الحجاج قال: قلت لأبي الحسن موسى عليه السلام: أرأيت إن احتجت إلى الطبيب وهو نصرانيّ أن أُسلّم عليه وأدعو له؟ قال: «**نعم**»[١٦٨].

وقد أباح الفقهاء مشاركة أهل الذمّة في الأعمال والممارسات الاجتماعيّة وغيرها، فلم ير الإمام أحمد بن حنبل بأساً في خروجهم مع المسلمين للاستسقاء طلباً للرحمة الشاملة[١٦٩]، ولم يرَ بأساً في أن يكون المسلم أجيراً لهم[١٧٠].وأوجب على المسلمين دفن النصرانيّ الذي يموت بينهم[١٧١].

وأوصى أئمّة أهل البيت عليهم السلام بحسن السيرة مع أهل الكتاب، فعن الإمام محمّد الباقر عليه السلام أنّه قال: «**وإن جالسك يهوديّ فأحسن مجالسته**»[١٧٢]. وكان الإمام الصادق عليه السلام يروي سيرة من سبقه من الأئمّة في علاقاتهم مع أهل الكتاب، فقد ذكر أن عليّاً عليه السلام صاحب رجلاً ذمّيّاً في طريق، وحينما أرادا الافتراق شيّعه الإمام عليه السلام قبل المفارقة، فقال له الذمّيّ، لم عدلت معي؟ فقال عليه السلام: «**هذا من تمام حسن الصحبة أن يشيّع الرجل صاحبه هنيئة إذا فارقه، وكذلك أمرنا نبيّنا**»، فقال الذمّيّ: (لا جرم إنّما تبعه من تبعه لأفعاله الكريمة...)[١٧٣].

وانعكست السيرة الحسنة للمسلمين على مواقف أهل الذمّة، فكانوا عوناً لهم على أعدائهم، ففي الصدر الأوّل للإسلام، وفي عهد الخلفاء الأوّلين

خصوصاً، بعث أهل الذمّة من جميع مدن الشام رجالاً من قبلهم يتجسّسون أخبار أعداء المسلمين، وما يخطّطون له للكيد من الإسلام وأهله وفاءاً منهم لحسن السيرة التي تلقّوها من المسلمين[١٧٤].

ورحب قبط مصر بالمسلمين لإنقاذهم من ظلم حكوماتهم[١٧٥].

ولا زال أهل الأديان يعيشون بأمن وسلام في ربوع الإسلام وفي ظلّ تعاليمه السمحة، لا يعانون ظلماً ولا اضطهاداً، فكراماتهم مصونة وحرّيّاتهم قائمة حتى في ظلّ بعض الحكومات الجائرة التي تزعم تبنّي الإسلام دستوراً لدولتها.

* * *

الهوامش:

(١) وجدي، محمّد فريد، دائرة معارف القرن العشرين١: ٤٨٣، دار المعرفة، بيروت ١٩٧١، ط٣.

(٢) م.ن ١: ٤٨٣.

(٣) محمد عبد الله دراز، الدين: ص٨٢، دار القلم، الكويت،١٣٩٠هـ

(٤) دائرة معارف القرن العشرين١: ٤٨٢.

(٥) ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول: ٢٤، المطبعة الحيدرية،النجف ١٣٨١هـ.

(٦) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة١٧: ٣٢، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٧٨هـ، ط١.

(٧) تحف العقول: ٥٢.

(٨) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي ٨: ٦٩، دار صعب، بيروت،١٤٠١هـ،ط٤.

(٩) مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم٤: ١٧٦٤، دار الفكر،بيروت،١٣٨٩هـ،ط٢.

(١٠) ابن هشام، السيرة النبوية٢: ٢٠٢.

(١١) السيوطيّ، الدر المنثور٣: ٣٢٩، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ،ط١.

(١٢) صحيح مسلم١: ٣٧٠.

(١٣) شرح نهج البلاغة٩: ٧٦.

(١٤) أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي٣: ١١٩، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٥م.

(١٥) البخاريّ، صحيح البخاري٥: ٢٢٦، دار احياء التراث العربي، بيروت،١٣١٣هـ.

(١٦) ابن هشام، السيرة النبويّة٢: ٢١٧.

(١٧) م.ن٢: ١٤٧.

(١٨) ابن هشام، السيرة النبوية٢: ٢١٧.

(١٩) المصدر نفسه٢: ٢٠٠.

(٢٠)الدرّ المنثور٢: ٢٢.

(٢١)الموسوعة الفقهيّة٧: ١٢٧، وزارة الأوقاف، الكويت،١٤٠٦هـ،ط٢.

(٢٢)الماوردي، الأحكام السلطانية:١٦١، مكتب الإعلام الإسلاميّ، قم،١٤٠٦.

(٢٣)الطبرسيّ، مجمع البيان١: ٣٦٤، منشورات مكتبة المرعشي، قم١٤٠٣هـ.

(٢٤)الآلوسي، روح المعاني٣: ١٢، دار إحياء التراث، بيروت، بدون تاريخ.

(٢٥)أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط٢: ٢٨١، دار الفكر، بيروت،١٤١٢هـ.

(٢٦)الميزان في تفسير القرآن٢: ٣٤٣.

(٢٧)ابن قدامة، المغني١٠: ٩٦، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٧هـ.

(٢٨)تفسير البحر المحيط٢: ٢٨١.

(٢٩)سيّد قطب، في ظلال القرآن٢: ٤٨١، دار إحياء التراث١٤٠١هـ، ط٤.

(٣٠)سيّد أمير علي، روح الإسلام:٢٦٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧م، ط٤.

(٣١)مونتجومري وات، محمّد في المدينة:١٠٣، ١٠٤، المكتبة العصريّة، بيروت.

(٣٢)م.ن.ص٢٢١.

(٣٣)جوستاف لوبون، حضارة العرب:١٤٦،١٤٥، طبعة عيسى البابي، القاهرة، ١٩٦٩م.

(٣٤) سير توماس وأرنولد، الدعوة إلى الإسلام:٦٥، القاهرة،١٩٧١، ط٣.

(٣٥)حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: ٢٢٧.

(٣٦) دفاع عن الإسلام:١١، ١٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٠م، ط١.

(٣٧)شوقي أبو خليل، الإسلام في قفص الاتهام:١٢٥، دار الفكر، ط٢.

(٣٨)الشريعة الإسلاميّة والقانون الدولي العام: ٢٩٣.

(٣٩)لو ثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي٣:٣، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٤هـ

(٤٠)المصدر السابق٣: ٢١١.

(٤١)المصدر السابق٣: ٢٠٩، ٣٢٨.

(٤٢)الاستبصار٤: ١٨٩.

(٤٣)ابن هشام، السيرة النبويّة٢: ٢٢٣، ٢٢٤.

(٤٤)محمّد بن مكّي العامليّ، غاية المراد١: ٤٩٩، مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، قم، ١٤١٤.

(٤٥)النهاية:٧١١، المهذّب في فقه الإمام الشافعي٢: ٢٥٦.

(٤٦)روح الله الخميني، تحرير الوسيلة٢: ٦٤، دار الصراط المستقيم، بيروت، ١٤٠٣هـ.

(٤٧)محيي الدين أبو البركات، المحرر في الفقه:٢٧، دار الكتاب، بيروت.

(٤٨)المبسوط٦: ١٨٢، الكافي في الفقه: ٣٧٥.

(٤٩)الأحكام السلطانيّة:١٤٥، فقه الإمام جعفر الصادق عليه السلام٢: ٢٦٩.

(٥٠)ابن هشام، السيرة النبويّة٢: ١٩٦، ١٩٧.

(٥١)المصدر نفسه٢: ٢٠٢.

(٥٢)المصدر نفسه٢: ١٩٨.

(٥٣)المصدر نفسه٢: ٢٠٧، ٢٠٨.

(٥٤)المصدر نفسه٢: ٢٠٧، ٢٠٩.

(٥٥)أحمد بن عبدالله الطبري، ذخائر العقبى:٨٠، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠١هـ.

(٥٦)الصدوق، الخصال:٤٥٦،جماعة المدرسين، قم، ١٤١٤هـ.

(٥٧)المهذّب في فقه الإمام الشافعي٢: ٢٥١.

(٥٨)ابن الأثير، الكامل في التاريخ٢: ٥٠١، دار صادر، بيروت، ١٣٨٥هـ.

(٥٩)المصدر نفسه٢: ٢٩٣.

(٦٠)الخراج:٥٢.

(٦١)نهج البلاغة:٥٣١.

(٦٢)الخصال:٣٦٥ ـ ٣٨٢.

(٦٣)عبد الرحمن السهيلي، الروض الآنف٤: ٣٥٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٢.

(٦٤)سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ الحضارة الإسلاميّة:١١، دار السلاسل، الكويت، ١٤٠٦هـ.

(٦٥)تحرير الوسيلة٢: ٥٠٧.

(٦٦)السيرة النبويّة٢: ١٤٨، ١٤٩.

(٦٧)المصدر نفسه٤: ١٦٩.

(٦٨)يعقوب بن إبراهيم(أبو يوسف) الخراج: ١٣٩، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩هـ.

(٦٩)الكافي٥: ٥.

(٧٠)الكافي٥: ٣.

(٧١)الأحكام السلطانيّة، ١٤٣.

(٧٢)الأحكام السلطانيّة للفراء:١٦١.

(٧٣)ابن جماعة، تحرير الأحكام: ٢٥٣، دار الثقافة، قطر، ١٤٠٨هـ.

(٧٤)المهذب في فقه الإمام الشافعي٢: ٢٥٦.

(٧٥)يحيى بن شرف النووي، منهاج الطالبين: ٣١٤، مكتبة الثقافة، عدن، ١٤١٢هـ.

(٧٦)المغني١٠: ٦٦٣.

(٧٧)المغني١٠: ٤٨٩.

(٧٨)المغني١٠: ١٩١.

(٧٩)الأحكام السلطانية:١٦١.

(٨٠) النهاية:٦٩٦، الكافي في الفقه:١٩٥، غاية المراد١: ٤٩٩.

(٨١)تحف العقول:١١٨.

(٨٢)تحف العقول:١٩٥، ١٩٦.

(٨٣)من لايحضره الفقيه:٤: ٩٩.

(٨٤)مالك بن أنس، الموطأ٢: ٧١٩، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت.

(٨٥)مختصر تاريخ دمشق١٠: ٢٩٦.

(٨٦)سنن ابن ماجة٢: ٧٩٤، ح٢٣٧٤.

(٨٧)وسائل الشيعة٢٧: ٣٩٠.

(٨٨)الكافي٧: ٤٥١.

(٨٩)النهاية:٧٤٩، الكافي في الفقه:٣٩٥.

(٩٠)تحرير الوسيلة٢: ٤٠٩، ٤٦٤، ٥١٩.

(٩١)من لايحضره الفقيه٤: ١٢٤.

(٩٢)م.ن.٤: ١٢٤، الاستبصار٤: ٢٧٢.

(٩٣)الكافي٧: ٣٠٩.

(٩٤)الكافي٧: ٣١٠.

(٩٥)محمّد بن إدريس الشافعي، الأم ٤: ٢٠٨، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٣هـ.

(٩٦)أحكام أهل الملل:٣٢٥.

(٩٧)تحرير الوسيلة٢: ٤٧٧، ٦٠٠.

(٩٨)محمّد أبو زهرة، الأحوال الشخصيّة:٢٥٩، دار الفكر العربيّ، القاهرة، ١٣٧٧هـ.

(٩٩)تحرير الأحكام:٢٥٣.

(١٠٠)الكافي٣: ٥٦٧، الكافي في الفقه:٢٤٩، الوسيلة:٢٠٥، المهذب في فقه الإمام الشافعي٢: ٢٥٢، المحرّر في الفقه٢: ١٨٤، المغني١٠: ٥٧٢، تحرير الأحكام:٢٥٢.

(١٠١)السنن الكبرى٩: ٢٠٥.

(١٠٢)نهج البلاغة:٤٢٥.

(١٠٣)عبد العزيز بن إسحاق البغدادي، مسند الإمام زيد: ٢٦٧، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٠٣هـ.

(١٠٤)أبو عبيد القاسم بن سلام، الأموال:١٥٧، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٠٦.

(١٠٥)الكافي٥: ٥٦٨.

(١٠٦)الكافي٥: ٥٦٧.

(١٠٧)رسائل المحقق الكركي١: ٢٤٢.

(١٠٨)تحرير الوسيلة٢: ٤٩٩.

(١٠٩)تحرير الوسيلة٢: ٥٠١.

(١١٠)الأموال: ٥٣.

(١١١)كنز العمال٤: ٣٦٣.

(١١٢)المهذب في فقه الإمام الشافعي٢: ٢٦٣.

(١١٣)المحرر في الفقه٢: ١٢٨.

(١١٤)الأم٤: ١٨٣، ١٨٤.

(١١٥)علي بن أبي بكر المرغيناني، الهداية٢: ١٥٢، مطبعة مصطفى البابي، مصر.

(١١٦)السيرة النبوية٣: ٣٥٨.

(١١٧)المغني١٠: ٥٧٣.

(١١٨)شرائع الإسلام٤: ٢٨٦.

(١١٩)اللمعة الدمشقية:٢٣٤.

(١٢٠)إعلام الورى:١١٩.

(١٢١)كنز العمال٤: ٤٩٠.

(١٢٢)المهذب في فقه الإمام الشافعي٢: ٢٦٤.

(١٢٣)منهاج الطالبين:٣١٠.

(١٢٤)الخراج:١٢٧.

(١٢٥)الكافي٥: ٢٧٠.

(١٢٦)الكافي٥: ٢٨٢.

(١٢٧)الكافي٥: ٢٨٦.

(١٢٨)مسند الإمام زيد:٢٥٠.

(١٢٩)منهاج الصالحين٢: ٩٩، المسائل المنتخبة:٢٤٢، هداية العباد١: ٣٤٦.

(١٣٠)مفتاح الكرامة١٤: ٢٧٤.

(١٣١)الكافي٦: ٤٢.

(١٣٢)الخراج:٢٥٦.

(١٣٣)محمد بن علي الشوكاني، نيل الأوطار ٨: ٢٢٧، دار الجيل، بيروت.

(١٣٤)أحكام الذمّيّين:٨٢.

(١٣٥)آدم متز، الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري١: ١٠٥، القاهرة، ١٩٦٧م.

(١٣٦)الأموال:٦٠٥.

(١٣٧)م.ن.

(١٣٨)مجمع الفوائد٣: ١٠٣، ح٨٢٧٧.

(١٣٩)الأموال:٥٠، ٥١.

(١٤٠)تهذيب الأحكام٦: ٢٩٣.

(١٤١)الكافي٤: ١٤.

(١٤٢)الأموال:٦٠٦.

(١٤٣)الكافي فى الفقه:٣٩٥.

(١٤٤)الأموال:٤٨.

(١٤٥)محمد مهدي علاّم، دائرة المعارف الإسلاميّة١: ٥٩، دار المعرفة، بيروت، ١٩٣٣م.

(١٤٦)مستدرك الوسائل١١: ١٣٢.

(١٤٧)السيرة النبويّة٤: ٢٢٦.

(١٤٨)المصدر نفسه٤: ٢٢٧.

(١٤٩)مستدرك الوسائل١١: ١٣٢.

(١٥٠)تحف العقول:٩٧.

(١٥١)السنن الكبرى٩: ٢٠٤.

(١٥٢)أحكام اهل الملل:١٢٢.

(١٥٣)الكافي٧: ٢٤٠.

(١٥٤)وسائل الشيعة١٦: ٣٧.

(١٥٥)أحكام اهل الملل: ٢٦١.

(١٥٦)الهداية٢: ١١٦، اللباب٣: ١٩٨.

(١٥٧)النهاية:٧٢٥.

(١٥٨)عبد الغني الغنيمي الدمشقي، اللّباب٣: ٧٥، دار الحديث، بيروت، ١٩٧٩م.

(١٥٩)الكافي في الفقه:٤٠٦.

(١٦٠)وسائل الشيعة٢٨: ١٥٢.

(١٦١)النهاية:٦٩٦.

(١٦٢)الروض الانف٤: ٣٦٩.

(١٦٣)المهذب في فقه الإمام الشافعي٢: ٢٩٢.

(١٦٤)اللؤلؤ والمرجان:١٩٥، تحقيق فؤاد عبد الباقي، المطبعة العصرية، الكويت،١٩٧٧م.

(١٦٥)الكافي٢: ٦٤٨.

(١٦٦)نهج البلاغة:٤٢٧.

(١٦٧)الكافي٢: ٦٥٦.

(١٦٨)الكافي٢: ٦٥٠.

(١٦٩)أحكام أهل الملل:٤٩.

(١٧٠)المصدر نفسه:١١٨.

(١٧١)المصدر نفسه:٢١٧.

(١٧٢)أمالي المفيد:١٨٥، جماعة المدرسين، قم، ١٤١٥هـ.

(١٧٣)الكافي٢: ٦٧٠.

(١٧٤)الخراج:١٣٩.

(١٧٥)الدعوة إلى الإسلام:١٢٣.

الحكمة العملية

في فكر ونهج الإمام عليّ عليه السلام

مقاربة فكرية في تجربة حكمه

□ الأستاذ: نبيل علي صالح(*)

مقدمة حول شخصية أمير المؤمنين عليّ عليه السلام

لا شكّ أنَّ الحديث عن شخصية فذّة في حجم شخصية أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام قد يوقعنا في ما يشبه الحيرة والارتباك الشديدين، خاصة عندما نحاول الاقتراب عملياً ـ وليس نظرياً فقط ـ من العالم الذاتي الداخلي لهذه الشخصية الفريدة لنفهمها ونعيها ونتأسى بقيمها وأخلاقيتها الإنسانية السامية.. وبمعنى آخر: لنحوّلها إلى كائنٍ حيٍّ ملموس في سلوكنا وممارساتنا وأفعالنا الحياتية، أيْ: أن نحاول الاستنارة والاستهداء بها، والعمل بآفاقها على مستوى التطبيق العملي من خلال ما امتاز به علي عليه السلام من خلقيات وشمائل وفضائل ذاتية وأخرى موضوعية على صعيد الحكم الممتدة والمتسعة برحابة الوجود الإنساني

(*) باحث وكاتب سوريّ مهتمّ بشؤون وإشكاليّات الثقافة العربيّة، بكالوريوس في هندسة الطاقة الكهربائيّة.

كله.. والتي لم تتمكن أيّة شخصية في التاريخ الإنساني كلّه من أن تبلغ مبلغ هذا الإمام الكبير، أو تتجاوزه في حجم الروح الكبيرة وعظمة المبادئ والخصال النفسية الرفيعة، سوى حبيب عليّ ورفيقه وسيّده وقدوته رسول الله محمد ' .. الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].. والذي كان يجسّد نموذج الإنسان الكامل أسوة عليعليه السلام في الأخلاق والممارسة..

والحديث عن عليٍّعليه السلام هو حديث عن جانب مشرق وبهيّ من هذا التاريخ الذي عرفناه بأعمال وأفكار وقيم وحكم الرسول ' والإمام عليعليه السلام، وباقي الأئمة الكرام، وهو حديث نحاول فيه أن نثير حركية التفكير الموضوعي في محاولةٍ لاكتشاف طبيعة هذه التجربة الحيّة الغنية من خلال استنطاق مفردات النصّ في حركة الواقع الإسلامي ككلّ، ولا سيّما في وعي الإمام عليعليه السلام ـ الذي نتحدّث عنه في هذه الدراسة ـ في تجربته الإنسانية المعطاءة والغنية الرائدة، أو للانفتاح على الدلالات الموحية في المعنى الذي يختزنه النصّ كقاعدةٍ فكريّةٍ مفتوحة على كلّ مواقع الحكم في المسيرة الإسلامية الطويلة الممتدة في ساحات الفكر والواقع.

ونحن عندما قلنا بأنّنا نعيش حالة من الحيرة عندما نتحدّث عن هذا الإمام العظيم، فإن الحيرة ـ حقيقةً ـ ليس لها أيّة دوافع أو أسباب ذاتية، بل علّتها وسببها كائن في عدم وجود سفينة يمكن أن تقلّنا للإبحار في محيط بحر هذا الإمام العظيم المتسع والمتلاطم الأمواج.. ولكننا مع ذلك سنحاول في هذا المبحث تلمّس بعض الأفكار والمعارف التي نطق بها ومارسهاعليه السلام، مع الوقوف عند بعض الحكم العملية (ودراستها ووعيها ومحاولة إعادة دراستها على ضوء معطياتنا الراهنة وآفاقنا الحاضرة) التي قالها وطبّقها هذا الإمام العظيم الذي «أخفى مبغضوه فضائله طمعاً، وأخفاها محبّوه خوفاً، فظهر من

بين ذين ما ملأ الخافقين»...

مع علي منذ بداية عهد الرسالة

وُلد الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام في مكّة المكرّمة في البيت الحرام، يوم الجمعة الثالث عشر من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل.

أبوه أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

بقي علي عليه السلام في رعاية أمّه إلى أن بلغ الثامنة من عمره، واتفق في ذلك الوقت أن أصابت قريشاً أزمة شحَّت فيها موارد العيش، وكان وقعها شديداً على أبي طالب؛ لأنَّه كان كثير العيال، وفي قلّةٍ من المال لا يفي بنفقة رجل مثله، فقال محمَّد ' لعميه الحمزة والعباس: ألا نحمل ثقل أبي طالب في هذا المحل؟ فجاؤوا إليه وسألوه أن يسلّمهم ولده ليكفوه أمرهم، فقال: دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم. فأخذ العباس طالباً، وأخذ حمزة جعفراً، وأخذ محمَّد ' عليّاً. وجاء عنه أنَّه قال: لقد اخترت من اختاره اللهّ لي عليكم، وكان عليّ يوم ذاك في الثامنة أو السادسة من عمره، وظلّ معه في رعايته يرعاه وينفق عليه ويتعهَّده بالتعليم والتوجيه، ويبثّ في روحه دقائق الحكمة وأسرار الكون والمعرفة، حتَّى أدرك من الحقائق ما لم يدركه بعد رسول الله أحدٌ غيره، ولم تكن فيه صفة إلاَّ وهي مشدودة إلى صفة من صفات النبيّ ' .

وكان النبي محمد ' قبل البعثة يتأمّل في آفاق الله وآفاق الكون، وينفتح في ذلك على الله قبل تبلّغه الرِّسالة، وكان يُشرك عليّاً في أجواء ومناخات هذه التأمّلات، ويركّز في نفسه كلّ أخلاقه التي ميّزت شخصيته، فكان رسول الله الصَّادق الأمين، وربّى عليّاً على أن يكون الصَّادق الأمين.

وهذا ما أشار إليه الإمام جعفر الصادق عليه السلام، عندما قال له بعض أصحابه: أريد أن تعلّمني شيئاً أبلغ به المنزلة العليا عندك، قال: انظر إلى ما بلغ به عليّ من

المنزلة عند رسول الله فافعله، فإنَّ عليّاً بلغ ما بلغ لأنَّه كان الصَّادق الأمين.

كان صدقه عليه السلام هو الذي ربطه بالحقّ، فلم ينحرف عن الحقّ أبداً في الأمور الصغيرة والكبيرة... وكانت أمانته هي التي تربطه بالمسؤولية؛ لأنَّه كان يشعر بأنَّ المسؤولية الإسلامية تمثِّل أمانة الله عنده، في علاقته بكلِّ الواقع الذي حوله، وفي حركته في كلِّ المراحل التي عاشها، وفي كلّ المواقع التي تحرّك فيها.

ذلك هو عليّ عليه السلام الذي عاش مع الله سبحانه، حتَّى إذا بُعث رسول الله ' ، دعاه إلى الإسلام، فاستجاب له وهو في التاسعة أو العاشرة من عمره.

ويذكر بعض المؤرخين، أنَّ عليّاً عليه السلام كان أوَّل من أسلم من الصبيان، يريدون من ذلك أن يوحوا بأنَّ عليّاً كان إسلامه إسلام صبي. ولكنّ رسول الله ' عندما دعاه، كان يجد في عقله عقل رجل كبير، وإلاَّ كيف يدعوه؟ وكيف يخاطبه؟..

وهكذا عندما انطلق الإمام عليه السلام في حياته العملية، والتي لم يسجد فيها إلا لله عز وجل، كان متفرداً في كلّ شيء، وكان يمتلك روحاً كبيرة وثابة منطلقة، كما كان عليه السلام يستصغر كلّ من حوله أمام الله، ولهذا لم يكن يخشى أو يخاف من أحد سوى ربه؛ لأنّ محبة الله قد شغلته عمّا عداه من أعمال وسلوكيات، ولأنّ شعوره بعظمة الله جعله ينشغل عن النظر في عظمة الآخرين. ولذلك كان يقول ويؤكد بأنه «**ما نظرت إلى شيء إلا ورأيت الله معه وقبله وبعده**».. وأنّه «**لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً**».

ومنذ بداية تفتّحه على الحياة والوجود، أراد ابن عمه رسول الله ' أن يتعرّف المسلمون على عمق المعرفة عند علي عليه السلام، وسعة العلم والمعرفة الحقّة لديه، وعلى مواهبه وقدراته السلوكية الفريدة التي نحتتها تعاليم ومبادئ الإسلام العظيم.. حيث كان يقول لهم: «**أنا مدينةُ العلْم وعليّ بابها، فمن أراد**

المدينة فليأتها من بابها».. ذلك لأنّ علياً عليه السلام عاش علم رسول الله كلّه، ومن ثَمَّ كان الوحيد من بين الصحابة الذي لم يُسأل عن مسألة أو قضية ما إلاّ وأجاب عنها بكلّ ثقة ووعي وإيمان. وكان الوحيد الذي لم يحتج أن يسأل أحداً عن مسألة أو قضية تبحث عن حل، بل كان المرجع الذي يرجع إليه الصحابة في كلّ أمورهم الدينية والدنيوية.. حتى قيل للخليل بن أحمد الفراهيدي أستاذ سيبويه في النحو ومخترع علم العروض ومؤلف أول قاموس في اللغة العربية، قيل له: لم آثرت أو فضلت علياً عليه السلام على غيره؟ وكان الخليل يلتزم ولاية الإمام علي عليه السلام.. فقال: «إنَّ احتياج الكلّ إليه (أي لم نجد أحداً لم يحتج لعلي) واستغناؤه عن الكل (لم نجد علياً محتاجاً لأحد)، فذلك دليل على أنّه إمام الكل».

طبعاً لم تكن كلمات رسول الله ' التي قالها في حقّ عليّ، ومنها قوله المذكور أعلاه «**أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها**»، وقوله «**علي أولى بالمؤمنين من أنفسهم**»، وقوله: «**علي مع القرآن والقرآن مع علي.. اللهم أدر الحق معه كيفما دار**».. لم تكن عنواناً تشريفياً وخصوصية للذات، بل هي عنوان المسؤولية في الدور من خلال خطِّ الحاكمية في حركة الحاكم في الإسلام.. كما لم تكن واردة أو منطلقة على أساس وجود علاقة حالةٍ ذاتية عاطفيّة، بل كانت منطلقة من موقع إظهار آفاق تلميذه الذي تتلمذ عليه في كلِّ شيء، فكان عليّ عليه السلام من رسول الله بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنّه لا نبي بعده كما جاء في الحديث. وقد جاء عن عليّ عليه السلام: «**علّمني رسول الله ألف بابٍ من العلم ينفتح لي من كلِّ باب ألف باب**»، فكان عليه السلام يعتزّ بأنّه تلميذ رسول الله وتلميذ القرآن الكريم، ولهذا كانت حياته كلّها قرآناً يتحرّك في كلِّ خطوة من خطواته. وكان عليه السلام يعيش الإسلام بكلّ صفائه ونقائه وحركته وانفتاحه، وكان يواجه الحياة على أساس أنّ الإسلام لم يترك في نفس المسلم أيّ فراغٍ يمكن لشيء آخر أن يملأه،

وذلك ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

كما لم تكن تلك العلاقة بين الرسول والإمام أيضاً منطلقة من وجود وشائج قربى بينهما، بل كانت مبنية على قاعدة صلبة هي قاعدة الرسالة وقاعدة القرآن الكريم الذي كان أيضاً هو الأساس البنائي الأول لها، وكانت أسها اختيار الحاكم الخليفة بعد رسول الله ' .. وهذا الاختيار كان مبنياً على: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]؛ حيث وقف النبيّ ' ليبلّغ ما أنزل إليه من ربّه؛ ليضمن للرسالة معنى الثبات والامتداد والاستمرارية في معنى الفكر الذي يحمل كلّ فكر الرسالة في مواقع القمة، وفي عمق الروح التي تعيش روحية الرسالة في عمق الحب لله والإخلاص له، وفي قوّة الحركة، في صلابة الإرادة وشجاعة الموقف وانفتاح القرار على المسؤوليّة كلِّها.

وبقدوم عليّ إلى مواقع الفكر والعمل، وبالحجم والتأثير النوعي الكبير له في حركة التاريخ العربي والإسلامي، شعّت أنوار العلم والمعرفة والهداية والحكم العملية التي تجسّدت في كلّ ممارساته وأساليب إداراته للمجتمع والدولة التي حكمها خلال فترة وجيزة لم تتجاوز السنوات الخمس، وقد كان عليه السلام رجل دولة بامتياز، حتى عندما كان خارج الحكم ـ أيْ: وهو في صفوف المعارضة البناءة ـ كنت تراه يشارك في بناء الدولة واستقرار الحكم وتطوّر المجتمع.. هذا ما كان خلال فترات حكم الخلفاء الأوائل ابتداء من أبي بكر وانتهاء بعثمان بن عفان.. حيث رأيناه ناصحاً وناقداً ومرشداً وهادياً ومسدداً للرأي أو ناقداً له، ومشاركاً بالحكم ـ بصورة غير مباشرة ـ من خلال آرائه وأفكاره ومعارفه حول السياسة والمجتمع والحكم والقيادة والفتوحات وغيرها..

وكان عليه السلام يسالم عندما يرى أنّ قضايا المسلمين تفرض عليه أن يسالم، ويحارب عندما يرى أنّ حياة المسلمين ومصلحة الإسلام تفرض عليه أن

يحارب، أيْ: كانت حربه كانت منطلقة في طريق الله بهدف نيل رضاه، وكان سلمه متحركاً في طريق الله أيضاً.. ولذلك رأيناه يقول بعد ما حدث من تحوّلات وتغيرات في المجتمع الإسلامي الوليد خلال الفترة التي أعقبت رحيل الرسول ' : «**والله لأسلمن (لأسالمن) ما سلمت أمور المسلمين، ولو لم يكن فيها جور إلا عليّ خاصة**».. إنّه يريد أن يحافظ على وحدة الصفّ الإسلامي، ووحدة المسلمين في مواجهة صعوبات وتحديات نشر الإسلام، ورعاية بيضة الدين، والحفاظ على عوده الذي لا يزال غضاً طرياً يحتاج للرعاية والسقاية كما المولود الصغير في بداية تفتحه على الحياة.. ولذلك فهو عليه السلام لم يكن يريد أن يفسح في المجال أمام المصطادين في الماء العكر ـ وما أكثرهم في كلّ عصر ودهر ـ لإثارة الفتن والمشاكل والأزمات التي ستعطل حتماً انتشار واتساع رقعة هذا الدين العظيم إلى الآفاق الكونية كلها.. وهو ـ وإن كان يشعر بينه وبين نفسه بأحقيته للحكم والقيادة والرئاسة واستلام مقاليد رئاسة الدولة ودفة الحكم الإسلامي ـ لكنّه رفض أن يأتي إلى موقع القيادة مع وجود مناخ الفتنة والانقسام الحاصل بين صفوف المسلمين، وعدم قدرة الكثيرين على التمييز بين الحق والباطل، واشتباه الأمور على الناس.. ولهذا تنحى جانباً عن موقع القيادة الفعلية العملية، مع بقائه إماماً للقلوب والعقول، ووافق على أن يكون جندياً في جيش هذه الدولة الفتية، خادماً للإسلام والمسلمين في أي موقع كان..

طبعاً لا بد أن نلاحظ هنا بأنّه وعلى الرغم من ذلك كلّه فقد بقي الإمام يثير قضية الحكم وأحقيته في خلافة الرسول ' في مدى الفترة التي عاشها قبل خلافته وفي أثنائها بأساليب متنوعة متعددة على أساس النص، وعلى أساس الكفاءة، ومن خلال الخلل في الموقف الآخر، وكان لا ينطلق في ذلك من عقدة الذات التي تبحث عن موقع، لتؤكد موقعها بالدفاع عن الحقّ الذي تملكه فيه، بل كان ينطلق من المبدأ في الانفتاح على قضية الحكم في شخصية الحاكم، وعلى

رسالة الحاكم في خطِّ حكمه، ولذلك كانت المسألة لديه أن يقيم الحقّ ويدفع الباطل، كما جاء في حديثه مع ابن عباس، وهو يحدثه عن النعلّ التي كان يخصفها بنفسه، وهو خليفة: «**إنّها أعظم عندي من إمرتكم هذه إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً**».

والواضح أمامنا هنا أَنَّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام استطاع ـ بوعيه الإسلامي العميق المنفتح الحريص على الإسلام الرسالي ـ أن يعي ويدرك عملياً أَنَّ على المسلمين أن يتحركوا في خلافاتهم بناءً على الطريقة القرآنية التي تمثِّل المنهج الموضوعي، الذي يجعل الفكرة في مواجهة الفكرة، ويحوّل الخلاف إلى تنافس في الوصول إلى الحقّ من خلال الأسس التي يرتكز عليها الحق، أيْ بأدوات الحجة والبرهان، ليكون الجدال بالتي هي أحسن، والدفع بالتي هي أحسن، وليقول الناس كلّهم الكلمة التي هي أحسن، فذلك هو السبيل للتفاهم.

وفي هذا الجوّ، يمكن لهم أن يطرحوا كلّ وجهات النظر التي تختلف فيها الأفكار، من دون أن يخافوا الوقوع في سلبيات العداوة والبغضاء والتقاتل، فلا تبقى هناك حقيقة غامضة، ولا قناعة قلقة، بل كلّ ما هناك الوضوح والثبات والانفتاح على الإسلام كلّه.

وهذا هو النهج الذي أراد للناس أن ينتهجوه في حياتهم لاحقاً؛ ليكون كلّ همّهم وطموحهم إطفاء الباطل وإحياء الحق، لا بلوغ لذّة أو شفاء غيظ، كما جاء في كتابه لابن عباس: «**أمّا بعد، فإنَّ المرء ليفرحُ بالشيء الذي لم يكن ليفوته، ويحزن على الشيء الذي لم يكن ليصيبه، فلا يكن أفضل ما نلت في دنياك بلوغ لذّة أو شفاء غيظ، ولكن إطفاء باطلٍ وإحياء حق، وليكن سرورك في ما قدّمت وأسفك على ما خلَّفت، وهمّك في ما بعد الموت**».

ولا عجب في ذلك كلّه، فقد كانت تربية علي عليه السلام ـ كما ذكرنا ـ في حضن الرسول ومهبط الوحي وبيت الرسالة، وهو ترعرع وشبّ منذ نعومة أظافره في

منزل ابن عمه رسول الله ' ، مما سمح له بأن يعايش أجواء نزول الوحي، وينفتح على أخلاقيات الرسالة وقيمها ومبادئها في المهد، وأن يتشرّب قيم ومعارف القرآن الكريم، ويعرف عن قرب، بل ويشارك في السيرة النبوية، ليتعرّف عملياً على أخلاقيات الرّسالة من نبعها الحقيقي الصافي، وما تبناه الرسول الأكرم ' من أساليب الفكر والممارسة والحكم..

وهذا ما ظهر لاحقاً ورأيناه جلياً في التطبيق العملي والتجسيد الواقعي خلال فترة حكم الإمام علي عليه السلام، والتي كان عنوانها الحقيقي (مبادئ المواطنة والحكم الصالح) الذي دعا إليه ومارسه وطبقه أمير المؤمنين علي عليه السلام خلال خمس سنوات، هي فترة وجوده العملي كقائد للدولة والمجتمع.. وهذه المبادئ التي تصلح لنهضة أيّ مجتمع وأيّة قيادة أو دولة حاكمة له، هي:

ـ العمل على إقامة دولة العدل والقانون والنظام.

ـ احترام التعددية الفكرية والسياسية والاعتراف بالآخر المختلف.

ـ احترام حرية الاعتقاد وقبول الآخر، والتسامح مع الآراء المختلفة والمتعارضة مع مبدأ الدولة طالما بقيت في نطاق الدعوة السلمية.

ـ احترام حقّ الإنسان في المشاركة السياسية وصنع القرار ومشاورة الناس.

ـ احترام مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات.

ـ احترام كرامة الإنسان وحفظ هويته وثقافته الخاصة.

إذاً هنا يكمن سرّ علي عليه السلام وجوهر نجاحه الإنساني والرسالي الكبير.. إنّه في هذه المحبة الفياضة اللامتناهية لله والإخلاص للدين والرسالة الإسلامية.. وهذا ما نجده واضحاً في كلّ مسيرته العملية منذ أن انطلق في بداية الدعوة مع الرسول الكريم ' ؛ ليؤكد على أهمية أن يكون هذا الدين حاضراً بقوة في قلوب ونفوس الناس الذين كان يريدهم أيضاً، أن يفتحوا قلوبهم على الله تعالى، وعلى محبّة الله والخوف منه والابتهال إليه، وذلك من أجل نيل رضاه؛

لأنّ الله تعالى هو الغاية وهو المنتهى، ولا بد أَنْ يكون سبحانه حاضراً في كلّ ممارسات وأعمال الناس، وقبل ذلك في فكرهم وحسّهم وشعورهم وضميرهم؛ ليشعروا بحضور الله في كلّ مواقع وامتدادات حياتهم المتنوعة. كان يؤكّد هذا المعنى في كلِّ مجال يتحرّك فيه، وعندما كان يخاطب الناس، كان يذكّرهم بالله قبل أن يذكِّرهم بمشاكلهم في الحياة وبحلولها، كان عندما يخطب بجنوده في الحرب، يذكّرهم بالله قبل أن ينفتحوا على الحرب، حتى ينطلقوا إليها من موقع إحساسهم بالمسؤولية أمام الله، كي لا يظلموا الناس فيها..

وهذه الروح المسؤولة الواعية لم تقتصر على حالة الحرب، بل كان يطلب عليه السلام من محبيه ومريديه وشيعته ومن كلّ المسلمين بأن يلتزموا بها حتى في دقائق وتفاصيل حياتهم، في حبهم وبغضهم، في موالاتهم ورفضهم، في سلمهم وحربهم.. ومن باب الاستشهاد التاريخي على ذلك يروى عنه عليه السلام، أنّه عندما سمع قوماً من أهل العراق يسبّون أهل الشام، اندفع إليهم والمعركة محتدمة، وأراد أن يخطّ لهم الخطَّ الّذي يربطهم بالآفاق الروحية التي لا تتحرك من مواقع الحرب، بل من مواقع الرسالة، فقال لهم: «**إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنّكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إياهم: ربّنا احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغيّ والعدوان من لهج به**».

فهو لم يكن يريد أن يثير الحقد في نفوس الذين يقاتلون ليقوِّي الحقد موقفهم، بل كان يريد أن يقوِّي الإيمان الواعي موقفهم، حتى يحاربوا من موقع الوعي الرسالي لحركة السَّاحة في الحرب، لا من موقع الحقد الذاتي الأعمى الذي لا يرى صاحبه إلا من خلال عين الثأر وعقلية الحقد الشخصي المنطلق بعيداً عن كلِّ رؤية واضحة مبنية على الإيمان والوعي الموضوعي لحركة الفكرة

في الواقع.

وهذا إن دلنا على شيء فهو يدلنا على وجود إدارة متوازنة عقلانية هادئة عند الإمام علي عليه السلام لحلّ المشاكل والخلافات وعدم تحويلها إلى عناصر ذاتية من أجل تصحيح الوعي القاصر أو الضعيف، وتركيز المفاهيم الصحيحة، واستقامة الخطّ الأصيل، وذلك لكي يتمكن المسلمون من العيش بوعي ومسؤولية تجعلهم قادرين على اتخاذ القرارات الصحيحة والحاسمة، وبحيث لا تكون القضية لديهم في أمثال هذه الأمور قضية شيء في الذات، لينفعل الإنسان به من خلال عناصره الذاتية في الإثارة الشعورية المضادّة، بل تكون قضيته هي قضية الخطِّ في معنى الخصوصية الإسلامية، وفي عمق المشاعر الإيمانية، فيتعامل معها بمسؤولية الإيمان في موضوعية النظرة والحوار؛ ليتعرف وجه الحق والباطل في احتمالاتها المتعدّدة، تماماً كأية فكرةٍ مجرّدة تتحرك في العمليات الفكرية للإنسان.

إنَّ القضية هنا ـ كما أشار العلامة الراحل السَّيِّد فضل الله ـ تعيش في نطاق تربية الذهنية الموضوعية في الحسّ النقدي للإنسان المسلم؛ ليواجه الحياة بطريقة عقلانيةٍ لا بطريقةٍ انفعاليةٍ، فيحاكم الأمور بالمنطق لا بالعاطفة. وبذلك، لا يستطيع الآخرون أن يفرضوا على المسلمين الرساليين أيّة معركةٍ لا يختارونها من خلال عناصر الإثارة، واستناداً إلى هذا التوجه، سيمتلك الرساليون صلابة الأرض وقوّة الموقف ووضوح الأفق واستقامة الطريق وواقعية النظرة إلى التجربة.. وهذا ما يمكن أن نستوحي من حركة الخلاف في جانب الخلافة في النطاق المذهبي، أَنَّ المسلمين كانوا يواجهونها بطريقة متوازنة بعيداً عن حالة التشنّج والتعقيد بالشكل الذي نواجهه الآن، ولذلك فقد نلاحظ في ذلك أنّ المسألة في وعي الذين عاشوا تجربة العناصر الأولى للخلاف كانت أكثر انفتاحاً مما يعيشه المسلمون الذين ورثوا الاختلاف الآن.

ولو نظرنا حالياً إلى واقعنا العربي والإسلامي الراهن لرأينا العجب العجاب في أقوال وممارسات رؤوساء وزعامات وقيادات هذا الزمان حيث يتم تظهير الخلافات بصورة شبه حربية، وتعميم حالة الانقسام والتنابذ بين أبناء المجتمع الواحد، وهيمنة أفراد وأحزاب أحادية معينة على مقاليد الحكم وإدارة الدول والمجتمعات منذ فترات زمنية طويلة، وعدم تحمل هؤلاء لمسؤولياتهم التاريخية الجسيمة عند أيّ منعطف حادّ قد يتعرض له بلدهم أو مجتمعهم.. وهذا أمر للأسف عجيب غريب حيث إنَّ مسؤولينا العرب ومعظم قادة المسلمين حالياً لا يسمحون لأحد في أن يشاركهم القرار والسلطة، ولا يشركون الآخرين في الحكم ليشاركوهم تحمُّل مسؤولية الأخطاء والخطايا، ولكن عند حدوث الانفجارات الشعبيّة وخروج الناس للاعتراض على سياساتهم الاقتصادية المدمرة التي أدّت بمجتمعاتهم إلى الخراب والهلاك فهم يرفضون تحمل المسؤولية، لا بل يلقونها في أحضان من ليس لهم حول ولا طول، ومن لا علاقة له بالمسؤولية لا من قريب أو بعيد.

وكلّنا يعلم بأنّ موضوع (مسؤولية) مالكي السلطة وأصحاب القرار، ومن يدير دفة قيادة المجتمعات هو من أهم المواضيع والمباحث الفكرية والمعرفية المهمة التي بُحثت ودُرست في كثير من مراجع الفكر السياسي على مستوى الأفكار والشخصيات، وهو من الموضوعات الخلافية بالنسبة للموازين والقيم التي تحكم المسؤولية، بل وحتى بالنسبة لأهداف تلك المسؤولية.

وترتبط المسؤولية هنا بموضوع آخر، وهي المحاسبة والمساءلة وتعزيز روح وحسّ النقد البناء في المجتمعات أفراداً وتيارات وأحزاباً.. حيث إنّه من وضع نفسه أو وضعه أبناء مجتمعه في مواقع صنع القرار ومواضع المسؤوليات الكبرى المفضية لبناء وتطوير الدول والمجتمعات وازدهارها ونجاحها وخدمتها للناس، لا بد وأن يكون قادراً على القيام بأعباء السلطة بروح واسعة، وصدر

رحب، وأخلاق عالية، وحسٍّ قانوني رفيع، ولكنّ المشكلة عندنا في حياتنا السياسية العربية هو غياب أيّ واقع أو بعدٍ عمليّ واضح ومحدّد لمفردة المسؤولية واختلاط الحابل بالنابل كما يقولون، وسير المجتمعات بشكل أقرب ما يكون للتخبّط الأعمى العشوائي، وضياع أو تضييع المسؤوليات.. والسبب في ذلك هو عدم وجود حياة سياسية واضحة ومقوننة.. فلا ديمقراطية ولا تعدّدية سياسية ولا مساءلة أو محاسبة حقيقية يمكن أن تجري في مجتمعاتنا العربية.. بل هناك شبه غياب كامل لنظام تقاسم وتوزيع للسلطة، الأمر الذي يؤدّي بالضرورة إلى عدم وجود توزيع واضح ودقيق للمسؤوليات على اختلاف المواقع والمستويات.. ممّا يضيع على الناس فرص تفعيل وجودها وتطوير حياتها على النحو الأفضل والأرقى..

علم وحكم الإمام عليه السلام وعلاقتها بالعمل والممارسة

نماذج للدراسة والاعتبار من حكمه ومواعظه:

لقد تمكن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام ـ بالرغم من فترة حكمه المحدودة زمنياً والغنية فكرياً وعملياً على مستوى الإدارة والقيادة ونظم الحكم وإدارة شون الناس ـ من تجسيد أفضل نموذج لتطبيق مبادئ وأفكار الدين الإسلامي التي تشرّبها ووعاها وتعلمها من خلال الرسول والرسالة.. حيث رأيناه ينطلق محاولاً تنفيذ رؤيته الإسلامية في الكثير من القضايا الحياتية على مستوى تطبيقات أفكاره ورؤيته لمفهوم نظام الحكم والإدارة، وأسس بناء الدولة العادلة والقادرة، وتشكيلات القضاء، والجيش والعسكر وغيرها..

ولم يكن باستطاعة عليّ عليه السلام أن يتحرّك في هذا الخط ـ خط بناء الدولة وتأصيل قيم الإسلام المحمدي الأصيل الذي حاول الكثيرون دمجه ومزجه بالأفكار والطبائع القبلية الجاهلية ـ لو لم يكن ممتلكاً لعلوم ومعارف نظرية

وعملية دفينة، ومسؤوليات رسالية جسيمة.. أيْ: إنّه لم يكن من الممكن له ـ وهو وصيّ رسول الله ' وخليفته وزوج ابنته الوحيدة ـ أن يصل إلى ما وصل إليه من حكم عملية عالية ومعرفة حقيقية يقينية (لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً) لو لم يمتلك ذاته، ويسيطر على هواه، ويتجرّد من قوى المادة، وشراك المزاج والنفس الخاطئة، ويتخلّى عن مكتسبات ومغانم وأهواء الدنيا (يا دنيا غري غيري..)، ويهب نفسه ووجوده كلّه لله والإنسان (ما وجدت شيئاً إلا وكان الله قبله وبعده ووو..)..

وقد ظهرت أمامنا تلك المعارف والرؤى ومناهج التفكير العملية من خلال حكمه وخطبه العملية (وليس القولية فقط، فقد كان فعله يسبق قوله) في نهج البلاغة على وجه الخصوص؛ حيث رأيناه كيف يعالج كلَّ شيءٍ يُطرَحُ عليه أو يواجهه من موقع الإسلام؛ لأنّه يعتبر أنّ الله بعث رسوله برسالة الإسلام ليجيب عن كلِّ ما يتعلق بتنظيم حياة الناس وبحركة حياتهم.

ولهذا كان عليه السلام لا يكتفي بأن يبدأ الناس بالتعليم، بل كان يستنهضهم ليسألوا، فكان عليه السلام يقول لهم: «**سلوني قبل أن تفقدوني**»، وقد قالها مراراً في مسجد الكوفة، من أجل أن ينفذ إلى عمق تفكير كلِّ شخص ليخرج منه كلّ علامات الاستفهام، ليقدِّم لهم الجواب عنها. وهو بهذا كان يريد أن يؤكّد للناس أنّهم ليسوا معذورين في أن يبقوا جاهلين أو حائرين وهو بينهم، فكان يقول لهم: «**إن هاهنا لعلماً جماً لو وجدت له حملة**»، كان يشعر بمسؤولية أن لا يبقى المجتمع الذي يعيش فيه جاهلاً يبحث عن العلم، أو حائراً يبحث عن الهدى، أو ضالاً يبحث عن الطَّريق، بل كان يرى أنّ من واجبه أن ينفذ إلى كلّ فرد ليحقّق له شيئاً ويرتفع بمستواه بحسب ما يستطيع. ومن هنا نفهم أنّه لا يمكن لأيِّ عالم أن يكون حيادياً أمام قضايا الجهل والتخلّف، بل لا بدّ لكلِّ عالم، في أيّ موقع من مواقع العلم الذي يرتبط بحياة الناس، من أن يعرِّفهم

إيّاه، وعليعليه السلام كان يرى أنّ من واجب العلماء أن يلاحقوا النَّاس حتى يفرضوا عليهم العلم، ويفتحوا قلوبهم على العلم؛ لأنّه ليس لأيّ مثقف أو صاحب خبرة الحرية في أن يجلس في بيته ويقول لا شغل لي ولا مسؤولية؛ لأنَّ علياًعليه السلام يفهم من موقع الإسلام، أنّ علم الإنسان ليس ملكه، وأن خبرته ليست ملكه، كما أَنَّ قوّته ليست ملكه، فعلم الإنسان هو أمانة الله عنده للآخرين، وخبرته وكلّ طاقاته له وللآخرين.

وقد جاء في الحديث: «**ما أخذ على أهل الجهل أن يتعلَّموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلِّموا**»، إذا سألك الناس فأجبهم، وإذا لم يسألك فابتدئهم، وإذا لم يأتوا فاذهب أنت إليهم وحاول أن تُهيّىء لهم الجوّ لكي يتعلّموا. لهذا لا يمكن أن نحلّ مشكلة العلم ومشكلة الهدى في حياة الناس إذا جلس كل واحدٍ منّا في بيته. ولم يتصدَّ لمسؤولية تعليم الناس وحلّ مشاكلهم. وعليعليه السلام كان يفكّر بهذه الطريقة من أجل أن يتحمّل كلّ إنسان مسؤوليته في الحياة.

وسنحاول في هذه الدراسة الوقوف الواعي المدروس والمتأمّل عند بعض حكمه ومواعظه العملية التي جادت بها نفسه الكبيرة على الناس في كلّ زمان ومكان.. مع إجراء تحليل معاصر لبعض تلك الأفكار والمعارف العظيمة..

ثقافة التقوى من خلال نظرة على بعض حكمهعليه السلام

إذا عدنا إلى خطب أمير المؤمنين الإمام عليعليه السلام، وأقواله ـ التي جمعت في كتاب نهج البلاغة، وغيره من الكتب والمظان التاريخية الأخرى ـ فسنلاحظ بدايةً أَنَّ هناك وجوداً قوياً، وحضوراً غنياً وواسعاً لـ (ثقافة التقوى)، والدعوة إلى الالتزام بها، واعتبارها جوهر الحركة الإيجابية الفاعلة للإنسان في الحياة.. ولذلك حاول إمامنا أن يزرع هذه الملكة النفسية في تربة المجتمع الإسلامي آنذاك.. وكانعليه السلام يدرك ـ انطلاقاً من عمق إيمانه بالإسلام ـ أَنَّ بناء الإنسان

المسلم بناء حقيقياً يقتضي تغيير محتواه الداخلي من كلّ الترسبات والتراكمات الذاتية المعيقة لتكامله ونموّه المبدع.. أيْ: أنّه عليه السلام كان يؤمن بأنّ تأسيس الإنسان من الداخل هو القاعدة الراسخة لقيام أيّ مشروع حضاري إسلامي في الأمة.. لأنّه عندما يتصالح الإنسان مع ذاته، وينسجم إيجاباً ـ وعن وعي وقناعة صحيحة ـ مع ما يعتقده من أفكار ومفاهيم وقيم، وينطلق بقوة إلى مواقع التطبيق العملي في مساحة الحياة كلّها من دون أن يجد أيّ تباين أو ازدواجية بين ما له وما عليه، فإنّنا نكون عندئذ قد وصلنا إلى مرحلة صنع الإنسان المنتج والفاعل في مجتمعه وأمته.

ويبدو لنا أَنَّ تركيزه عليه السلام على مفردة التقوى ـ واستخدامه لأغنى المفاهيم وأغزر الكلمات والمعاني في تعبيره عن ثقافة التقوى ـ لم يكن أمراً اعتباطياً، بل كان عليه السلام يريد من خلال ذلك (وهو الإمام المعصوم واجب الطاعة والاتباع، والذي كان يرى الأمور بمنظار العصمة والرسالة المختلف كلياً ،في جوهره وحقيقته، عن رؤية كل الخلفاء والزعامات التقليدية الذين عاصروه، أو سبقوه، أو حتى عن أولئك الذين حكموا الأمة لاحقاً) كان يريد أن يتصدّى بقوّة للنزعة المادية الصنمية، ويواجه ما يحدث في أمّته من (طغيان الرؤية المادية) والنزعة الحياتية اليومية، على واقع المجتمع كله.. خصوصاً وأنّها أدّت إلى اضمحلال مشاعر التديّن الصحيح بين الناس، وانحراف تصوراتهم الإسلامية العملية القائمة أساساً على قاعدة التقوى.

ولذلك كان من الطبيعي ـ تبعاً لمبدأ أَنَّ النتائج تأتي بحسب المقدمات ـ أن تنتج هذا الرؤية المنحرفة مجتمعاً إسلامياً (شكلاً لا مضموناً) مفككاً، وملوثاً بالدوافع والاتجاهات غير الدينية التي لا تحمل شيئاً من همّ وطموح بناء الأمة الحصينة والمقتدرة.. أيْ: أَنَّ المجتمع آنذاك كان غارقاً حتى الثمالة ـ كما يقولون ـ بهموم اكتساب المال، وجمع غنائم الفتوحات، وحصد أكبر ما يمكن حصده من

جوائزها المادية التي دفعه (أولو الأمر!) إليها دفعاً تحت ستار (نشر الدعوة والرسالة) بين الناس جميعاً.. والواقع أَنَّ نظرة الإمام علي عليه السلام كانت على طرفي نقيض من نظرة القائمين بالأمر في ذلك الوقت، حيث لم يرد عليه السلام للخلفاء (والأمة ككل) أن ينساقوا وراء عواطفهم وأمانيهم على طريق (الفتوحات الإسلامية)، وتوسعة رقعة الدولة الإسلامية الفتية، في ظلّ وجود مجتمع إسلامي طريّ العود، وحديث العهد بالإسلام، ولا يمكنه ـ بالتالي ـ تنفيذ مثل هذه المهام الحضارية الجسيمة، خصوصاً وأنّ هذا المجتمع كان يعاني من تفشّي مظاهر الفساد السياسي والتنظيمي، ولذلك كان الإمام علي عليه السلام يهدف إلى تنظيم أمور البلاد على صورة الإسلام الأصيل والنقي، الإسلام الذي لم تدخل فيه رواسب الجاهلية الأولى.. وهو عليه السلام لم يكن مستعداً أن يتنازل قيد شعرة عن تحقيق هذا الطموح الإسلامي الكبير إدراكاً منه لحقيقة أساسية، هي أَنَّ توسيع رقعة البلاد الإسلامية ـ وتوافر غنائم وموارد الحروب بين أيدي الناس ـ سيضعف الشعور الديني عندهم على حساب ارتفاع نزعات الاستغراق في الدنيا، وحب التملّك، وسيطرة مفاهيم الطمع والفردانية والذاتية، والحصول على المكاسب والرفاه المطلوب بأيّ شكل وثمن كان.

من هذا المنطلق ركّز الإمام علي عليه السلام في كل خطبه ومواقفه العملية على ضرورة استرجاع عقيدة الإيمان بالله تعالى إلى النفوس، وإزالة حجاب (الانشداد إلى الدنيا) عنها. أيْ: التركيز على ضرورة عدم الانغماس في الدنيا، والتحذير من طلبها، والسير وراء زخارفها وأمانيها.

لقد جاءت كلماته ـ في هذا الإطار ـ غنيةً بمفهوم التقوى، من حيث كونها ملكة روحية مقدسة تمنع الإنسان ـ من خلال قوّة الإيمان بالله تعالى ـ عن سلوك طرق الانحراف عن خطّ الاستقامة والعدل في الحياة..

يقول عليه السلام: «**إِنَّ تَقْوَى اللهِ حَمَتْ أَوْلِيَاءَ اللهِ مَحَارِمَهُ وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ حَتَّى**

أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ»[1].. إنّه يؤكّد على أهمية الالتزام بحقيقة التقوى قولاً وعملاً بما يؤدّي إلى التأسيس لتلك الحالة المعنوية العالية التي يصل إليها الإنسان من خلال عمق انفتاحه على الله، وإيمانه بقيمه، والالتزام بأوامره ونواهيه التي تمنعه من إتباع الهوى والانحراف عن جادة الحق والصواب.. وهو يشير أيضاً إلى أَنَّ مخافة الله أثرٌ إيجابيٌّ كبيرٌ من الآثار العملية لحركية الالتزام بجوهر التقوى. والخوف الوارد في هذا الحديث لا يساوي التقوى، ولا يعبّر عنها أبداً.. وإنما التقوى تجعل مخافة الله تلازم القلب على الدوام، لتكون حاضرة مع الإنسان في كلّ مواقعه، وحركاته.

وفي قولٍ آخر يعتبر الإمام علي عليه السلام أَنَّ التقوى «**دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ وَبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ وَصَلَاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ وَطَهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ**»[2].والواضح هنا أَنَّ الإمام عليه السلام يُرجع شقاء البشر ومعاناتهم، وآلامهم، وابتلاءاتهم إلى عدم فهم القيمة العظيمة للتقوى، ومن ثمّ عدم الالتزام بها.. وهو بذلك يكرّس وجود الإنسان في الحياة، وطبيعة الدور الرسالي الملقى على عاتقه، والأهداف الكبرى التي يُراد له أن يحققها في حياته.

وتقوم تلك النظرة على اعتبار أَنَّ المحتوى الداخلي للإنسان هو الأساس في حركة الوجود الإنساني كلّه، من حيث ضرورة ابتنائه على قيمة ومعنى التقوى، والإيمان بالله تعالى. والإسلام نفسه سمّى عملية بناء المحتوى الداخلي للإنسان ـ على قيم ومبادئ الإسلام الأصيل ـ بالجهاد الأكبر.

من هنا يكون التغيير الداخلي للإنسان ـ استناداً إلى ركيزة التقوى ـ هو القاعدة الأساسية المطلوبة لتغيير سلوكه الخارجي على صورة معطيات ومضامين هذا الداخل، كما يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. وعندما يصل الإنسان إلى مرحلة التقوى الذاتية الداخلية، فإنّه يكون مقتنعاً بحدوده، وراضياً بحقوقه، ومالكاً لروح مطمئنة، هادئة

ومستقرة، وقلب سليم معافى.. أيْ: أنّه يكون متصالحاً مع نفسه ووجوده، ومنسجماً مع توجهاته الفكرية، ولا يعيش مع ذاته حالة التناقض والانفصام، ولا تشغله الأطماع والغرائز، بما يؤثّر سلباً على حياته، وعمره، وسلامة جسده.. وحتى على عمله، وإنتاجه في الحياة.

وعندما ندرس ونحلل الحوادث والمتغيرات البشرية الكبيرة، الحافلة بالصراعات والتناقضات والابتلاءات، فإنّنا نجد أَنَّ السبب الأبرز لوجودها وظهورها هو عدم تصالح وانسجام الإنسان مع ذاته، وبالتالي عدم توافر القدرة والإرادة عنده، والتي قد تدفعه باتجاه احترام القوانين والتشريعات، والأنظمة العملية، والحدود التي تضعها المجتمعات والأمم.. أيْ: أَنَّ الطريق الصحيح هنا ينحصر في وعي الناس، وفي إيمانهم، وفي تقواهم العملية.. ونحن هنا لا نريد أن نبسّط الأمور، ونشير فقط إلى وجود سبب واحد لتلك المتغيرات والمشاكل، فهناك أسباب أخرى كثيرة ساهمت في وصول البشرية إلى هذه الحالة المزرية التي نعيشها الآن من سيطرة مفاهيم العنف والقوة والصراع والتنابذ والقهر والظلم على مجمل العلاقات بين الأمم والحضارات.

وعلى كلّ حال نحن نعتبر أَنَّ التقوى ـ سواء كانت هذه التقوى دينية إلهية أم غير ذلك ـ لها آثار معنوية ومادية كثيرة على الإنسانية إذا ما التزمت بها؛ لأنّها لازمة ضرورية من لوازمها في مسيرتها التكاملية في الحياة، باعتبار أنّها تستلزم الترك والمنع والاجتناب.. ومن يريد أن يتكامل تقوائياً في مسيرة الحياة يجب ألا يسمع دائماً كلمة الـ(نعم)، بل لا بدّ أن يسمع إلى جانب ذلك كلمة الـ(لا).. حيث يمكن لهذه الـ(لا) أن تكون مفيدة وفي محلّها الصحيح أكثر من كلمة الـ(نعم).

والتقوى نفسها ـ كقيمة عملية ـ تلزم الإنسان في أكثر الأوقات،إذا أراد بناء ذات مستحكمة وموثوق بها، بسلوك الصعاب، واقتحام التحديات، خصوصاً

بالنسبة لأولئك الذين اعتادوا على العيش في النعيم والملذات والحياة الرغيدة.. وهي ـ أي: التقوى ـ عندما تمنع الإنسان عن الكثير من هذه الملذات التي تحجبه عن الحق، فإنّها ليست قيداً أو سجناً، وإنّما هي صيانة له إذا عرف كيف يصون نفسه من خلالها، وكذلك كيف يصون قيمة التقوى ذاتها من الأخطار التي تتهددها في المجتمع.. ولهذا قال عنها الإمام علي عليه السلام: «**أَلَا فَصُونُوهَا وَتَصَوَّنُوا**»[٣].. «**فَإِنَّ تَقْوَى الله مِفْتَاحُ سَدَادٍ وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ ونَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ وَيَنْجُو الْهَارِبُ وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ**»[٤].

أجل إنَّ التقوى تمنح الإنسان القوة العملية التي يحتاجها في مواجهة عبودية الهوى والرغبة الجامحة، كما وأنّها ترفع عنه قيود الحرص والطمع والحسد والشهوة.. أيْ: أنّها تطلق روح الإنسان وفكره وعقله إلى رحاب الحرية والمسؤولية، بعد أن تُحرّره من أسر العبودية النفسية والمادية التي تتجسد في عبودية المقام والجاه والثروة. وفي هذا يقول عليه السلام: «**وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ**».

من هنا يمكن التأكيد على أَنَّ اهتمام الإمام علي عليه السلام ـ في سياق هذا النمط المتطوّر من التفكير الإنساني العميق ـ بمسألة شديدة الصلة بجوهر وجود الإنسان في الحياة، يدلّنا دلالة قاطعة على أَنَّ التزام جانب التقوى هو الذي يمكن أن يحفظ للإنسانية وجودها المعنوي الحقيقي الذي يشكّل القاعدة الصحيحة المتينة لوجوده المادي العضوي. ولذلك عليها (على الإنسانية) أن تبذل قصارى جهدها لبلوغ ذاك المعنى وتلك الحقيقة الوجودية الرائعة من خلال السعي والعمل والحركة.. يقول عليه السلام: «**أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ لَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ وَلَا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ**»[٥]..

ويقول عليه السلام: «**أوصيكم** ـ وهو هنا يوصي الإنسانية كلّها ـ **عِبَادَ الله بِتَقْوَى الله فَإِنَّهَا حَقُّ الله عَلَيْكُمْ وَالْمُوجِبَةُ عَلَى الله حَقَّكُمْ وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِالله وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى الله**»[٦]؛ لأنّها تنير لكم البصر والبصيرة والفؤاد، وتنزع عنكم

الخوف والمعاناة، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩].. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

والحاصل: إنَّ للتقوى تأثيراً كبيراً في حياة الإنسان من حيث كونها الطريق الأسلم للخروج من الشدائد والأزمات، ومواجهة الصعاب والتحديات والمصائب التي تعترض حياة الإنسان، وتسلب منه كل سعادة دنيوية وأخروية.. وهذا ما يؤكد عليه الإمام علي عليه السلام في قوله: «**وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ الْفِتَنِ وَنُوراً مِنَ الظُّلَمِ**»(٧). وقوله عليه السلام: «**فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا وَاحْلَوْلَتْ لَهُ الْأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا وَانْفَرَجَتْ عَنْهُ الْأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا وَأَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا**»(٨).. وآية ذلك هو أَنَّ الإنسان المتقي ـ الذي بنى كيانه النفسي والروحاني على توجيه طاقاته وقواه في طريق الخير والعمل الصالح ـ هو الأكثر قدرة على تحمل الصعاب، ومواجهة التحديات والمحن والشرور، وهو الأكثر قدرة حركية على اتخاذ القرارات المصيرية الصائبة والحاسمة؛ لأنّه وفّر ـ من خلال تقواه العملية ـ طاقاته وقواه النفسية لأوقات الشدة والمتغيرات الشائكة.

يتضح من كلّ ما تقدم أَنَّ الإمام علياً عليه السلام ـ الذي لم ترد حكمة أو خطبة أو نص له إلا وكانت التقوى (تقوى الله في العاطفة والفكر والحياة) حاضرة فيه، ومتجذّرة في بنيانه ومفرداته كلها ـ لم يتعرّض لبحث مسألة التقوى داخلياً. أيْ: أنّه لم يصفها من خلال بنيتها الذاتية، وإنما اكتفى بوصفها خارجياً، وتبيان ميزاتها، وفضلها، وثمارها، والتشويق إليها، والاعتصام بحبلها.. كما جاء في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة].. وقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ

﴿ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران].

ويريد الإمام عليه السلام من الناس أن يتقوُّوا عملياً بتقوى الله؛ لأنّها هي الأساس في أعمالهم ونشاطاتهم وممارساتهم الحياة، ولأنّها تعني مراقبة الله في دواخلهم، وكلما راقبنا الله أكثر كلما ضبطنا مواقع خطواتنا في الحياة أكثر. يقول عليه السلام في وصيته لولده وأهله ومن بلغه كتابه: «**بِتَقْوَى الله وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ**»[9].. إنّه يخاطب النّاس بضرورة أن ينهجوا نهج التقوى العملية من خلال محاولتهم تنظيم أمورهم وعلاقاتهم وأوضاعهم في القضايا الّتي يختلفون فيها، وأن يعملوا على نظم أوضاعهم في القضايا التي يتفقون فيها، حتى يتمكنوا من مواجهة علاقاتهم ببعضهم البعض، من موقع التنظيم الواعي لأمورهم، في كلّ ما يلتقون عليه، وفي كلّ ما يفترقون فيه.

وهكذا فقد حاول الإمام علي عليه السلام تقديم ثقافة تقوائية للأمة كلها، تصلح للعيش في امتداد الحياة الإنسانية؛ لأنّه استمدّها عليه السلام من الإسلام، وكلّ فكره من فكر الإسلام الذي عاشه عليه السلام ـ في كلّ تجاربه ومواقعه ـ قوة والتزاماً ووعياً حركياً دائماً.. وكان عليه السلام يعمل ـ على هذا الصعيد ـ على تثقيف الأمة والناس بالإسلام.. حيث كان يشعر دائماً ـ من خلال مسؤوليته الشرعية، وإيمانه العميق بالله والإسلام ـ بأنّ علمه ليس ملكاً له، وإنما هو ملك الله، والحياة، والأمة التي تحتاجه في مسيرتها الحضارية والتكاملية إلى من يعلمها، ويربيها، ويقوم حركتها باستمرار. ولذلك نجده عليه السلام لا يترك فرصة سانحة إلا ويبادر إلى استثمارها في تعليم الناس، وتثقيف الأمة بقيم الإسلام، ومبادئ الرسالة السمحاء من أجل أن يزيل عنهم شبهة هنا، أو يفتح لهم باباً إلى الحق والعدل هناك، أو يخطط لهم منهجاً، أو ينقذهم من طريق الضلال والانحراف.

وقد كان عليه السلام من القادة النادرين الذين بادروا ـ عن وعي وإدراك كاملين ـ إلى التركيز الشديد على تعليم شعوبهم، وتثقيفهم، ورفع المستوى الثقافي لهم،

على عكس أولئك الحكام الذين كانوا يلعبون على عواطف الناس، ويستثيرون مشاعرهم ورغباتهم ليرتبط الشعب بهم، وبخطهم، ومنهجهم فقط، حتى لو تكلفت الأمة ـ نتيجة ذلك ـ كثيراً من الدماء والدموع.

وهذا ما يبدو أمامنا واضحاً وجلياً ـ كما ذكرنا ـ في خطب نهج البلاغة، حيث كان عليه السلام يستفيد من كلّ مناسبة هنا وهناك ـ حتى وهو مسجى على فراش الموت ـ لتوعية أبناء المجتمع بكلّ ما تعجّ به الساحة من هموم وقضايا وتحديات.. وهذه هي مسؤوليتنا الكبيرة ـ نحن جمهور المثقفين، والعلماء، وأصحاب الدعوة والتبليغ الذين يدركون جميعاً حاجة الناس للعلم والمعرفة الإسلامية الصحيحة ـ في ضرورة أنْ نلاحق قضايا الأمة، وهموم الناس. ونتابع مشاكل الحياة الخاصة والعامة، من خلال انفتاحنا على الواقع الذي يعيشه أبناء المجتمع، لتعليمهم وتثقيفهم، وانتهاز كلّ الفرص لرفع مستواهم الفكري والروحي، لا سيما أنّنا نعيش اليوم في أجواء الفتن والاضطراب والتخلل في الفكر والعمل، وفي كثير من المواقع والامتدادات، الأمر الذي يتطلّب منّا جميعاً أن نواجه ذلك بعقول مسؤولة وقلوب واعية، حيث إنّه لا يجوز مطلقاً أن نخوض، ونتجادل، ونتحاور ـ سواء كنا في موقع المسؤولية الرسمية أم الشعبية ـ مع بعضنا البعض في مواقعنا الذاتية، والآخر يقتحم علينا وجودنا، ويعمل باستمرار على بث أفكاره ومفاهيمه وثقافاته إلى داخل مجتمعاتنا، وعقول أبنائنا.

وهذا هو الأساس في سلامة كلّ مجتمع من المجتمعات، إنّه في أن تكون علاقته ببعضه البعض، علاقات ترتكز على أساس القواعد الّتي تنظّم للمجتمع دوره في حركة أفراده، ودوره في علاقات أفراده ببعضهم البعض.

وهذه هي المشكلة الّتي لا يزال المسلمون يعيشون فيها على مستوى كلّ مجتمعاتهم، فإنّهم يتحرّكون كأفراد، ولا يتحرّكون كمجتمع، بحيث إنّ كل

فريق يتصوّر نفسه كلّ شيء، أو كلّ شخص يتصوّر نفسه أنّ الحياة له، وليس لأحدٍ حقّ الحياة معه، وأنّ السّاحة له وليست لأحد غيره.

هذا على مستوى الأفراد، وعلى مستوى العشائر، وعلى مستوى الأحزاب، وعلى مستوى الطوائف.. الكل يريد أن يلغي وجود الطرف الآخر، وبذلك يتصرّف كما لو كان الطرف الآخر ليس موجوداً.

الأخلاق وتغير الزمان (الثابت الأخلاقي والمتغير الزمني):

يقول الإمام علي عليه السلام: «**ولا تخلّقوا أولادكم بأخلاقكم، فإنّهم خلقوا لِزَمانِ غير زمانكم**»[١٠].. وهو يعني بهذا أَنَّ هناك كثيراً من الأمور والأشياء لا تبقى على حالها كما كانت في بداية وجودها بل تتغيّر بتغير الأيام والأزمان، وذلك من خلال ما يكتشفه الناس، وما يمكن أن تستحدثه المجتمعات من طرق وأساليب في اللباس، والأكل والشرب، والتدفئة والتبريد، ومختلف أنماط وسلوكيات البشر في طبيعة العلاقات الّتي يتحرّك فيها النّاس، فهذه أمور قابلة للتحول والتغير، والثابت الوحيد فيها هو المتغير والانتقال من حال إلى آخر.. وهذا ما يؤكّده عليه السلام من حيث إنّه يوجّه الناس إلى ضرورة عدم إلزام بعضهم البعض ـ خاصة من هم في مواقع الإشراف والتوجيه الأسري من آباء وأمهات ـ على الالتزام بعادات وتقاليد محدّدة، بل ويجب على الأب عدم تعويد ابنه على عاداته، أو قسره على طريقته وعمله. ولكن عليه أن يترك له الحرية والاختيار في اتخاذ القرار الملائم فيما يخص طريقته في تحديد كثير من أنماط سلوكه وعاداته، خاصة على مستوى طريقته في اللباس وفي الأكل؛ لأنّه عاش في زمن يحتاج إلى ما هو فيه، ولكن ولده يحتاج إلى طريقة مختلفة في الكلام والتخاطب والآداب والعلاقات الحياتية. ولهذا ليس من الضروري أن يكون الأبناء على صورة آبائهم في الأشياء المتحرّكة في الحياة التي تختلف حتماً من جيل إلى آخر، ومن بلد

إلى آخر..

أمّا القيم والمبادئ فالأمر يختلف تماماً معها؛ لأنّ المبادئ والقيم الأخلاقية العليا ثابته لا تتغيّر مع تغير الزمن، فحرام الله لا يتغيّر؛ لأنه لم ينطلق من حالة زمنية محدودة، حتى إذا تقدَّم الزمن انتهت تلك الحالة، وكذلك الحلال لم ينطلق من حالة زمنية محددة، حتى إذا تغيّر الزمان تغيّرت تلك الحالة..

كذلك قيمة العدالة والحرية والخير ـ وغيرهما من مبادئ الوجود الإنساني الأساسية في الحياة ـ لا تتغير أبداً، وإنّما الذي يتغير هو أشكال وأنماط وسبل ومعاني التعبير عن تلك القيم والأخلاق العليا..

ويمكن أن نعطي مثالاً واضحاً هنا على بقاء وثبات القيمة كفكرة وكمبدأ ثابت وتغير طريقة التعبير عنها، وهو ذكرى كربلاء التي لا يزال المسلمون يحتفلون بها منذ قرون طويلة.. فهذه الذكرى والحادثة التاريخية التي تقدّم لكلّ الأجيال الإنسانية كثيراً من معاني الحق والعدالة والحرية والشجاعة، أضحت هوية ثابتة وقيمة ثابتة لا تتغير، ولكن طرق وآليات التعبير ومعاني الالتزام بها تختلف من جيل إلى آخر، وهي لا تزال تعيش وتحيا وتزداد اشتعالاً في نفوس كثير من الناس، لتبقى كذلك مشعلاً يضيء الطريق أمام الأجيال المتلاحقة.. وصرخة وعيٍ قوية في وجه الظالمين في كلّ زمان ومكان.. وهزة تنبعث في جسد الأمة متى ما اعترى هذا الجسد خمود وركود وتقاعس.

بعض حكمه وعمله على المستوى السياسي في فترة حكمه عليه السلام:

لا شك بأنّ الإمام علياً عليه السلام كان صاحب مشروع سياسي عقائدي جذري غير توقيفي خاص بعملية بناء دولة عادلة مقتدرة قوية، أساسها بناء الإنسان المسلم الواعي والواثق والمستنير الذي يعيش أهداف وطموحات الرسالة الإسلامية في كلّ وجوده وحياته.. ويبدو أَنَّ هذا المشروع كان من الطبيعي أن

يكون على طرفي نقيض مع مشروع آخر تمّ تعميمه على الساحة الإسلامية من خلال دارة الندوة وأجواء السقيفة، الأمر الذي جعل المواجهة مع هؤلاء، المعركة المركزية لهذا المشروع الأول، خلافاً لحركات التمرّد الأخرى التي واجهها الخليفة بمنهاج مختلف. فقد اعتبر حركة البصرة مجرّد نزوة وانقضى أمرها بعد مقتل قائديها (طلحة والزبير) على غير رغبة منه، بينما كان لحركة الخوارج بعض التسويغ لديه، وهذا ما يمكن أن نلحظه في وصيته الأخيرة لابنه الحسن التي أكد له فيها على ضرورة «**أَلَا لا تقاتلوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ**»[11]، وذلك في معرض المقارنة مع حركة معاوية.

وإذا ما أردنا أن نضع بعض ملامح وعناصر هذا المشروع الجذري للإمام علي الخاص بناء المجتمع الإسلامي، فيمكن القول بأنّ أولى عناصره كانت متركزة على محاولة الإمام عليه السلام إعادة بناء الفرد والمجتمع، بعد حدوث تغيّرات كبيرة على الفرد المسلم من خلال الاختلال الذي أحدثه العهد السالف وأدّى إلى تعميق حالة القلق السلبي لدى المسلم، والرغبة في الانسلاخ عن واقعهم ومجتمعاتهم نتيجة السياسات الفئوية الضيقة والتفاوت في العطاء، وإثارة العصبيات، وإطلاق العنان للأقلية في حكم المجتمع والتسلط على الناس.. أيْ: باختصار شديد دخل الإمام في مواجهة مع أصحاب الخطّ الجاهلي الذين ضعف الإسلام الرسالي في نفوسهم على حساب تصاعد وطغيان العوامل والعناصر والسلوكيات الشخصانية والذاتية في أفكارهم وقناعاتهم ومجمل أعمالهم. ويبدو أَنَّ دخولهم في الإسلام ـ الذي آمنوا والتزموا ظاهرياً به في بداية الدعوة ـ لم يكن أكثر من وسيلة ظاهرية أو محاولة مكشوفة منهم لإعادة الاعتبار بعد ذلك لقيم ومناخات الجاهلية والقبلية والعصبية العشائرية التي رفضها وحاربها وواجهها الإسلام بقوة. ولكنّهم حاولوا إحياءها وإعادة

تظهيرها من جديد بصورة جديدة كان لا بدّ للإمام من أن يواجهها ويسقطها في مهدها خاصة من خلال محاولته إعادة النظر في نظام العطاء الذي كان قائماً في العهد السالف على غير قاعدة المساواة والبلاء.

يقول عليه السلام: «**إِنَّ آدَمَ لَمْ يَلِدْ عَبْداً وَلَا أَمَةً وَإِنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ أَحْرَارٌ وَلَكِنَّ الله خَوَّلَ بَعْضَكُمْ بَعْضاً فَمَنْ كَانَ لَهُ بَلَاءٌ فَصَبَرَ فِي الْخَيْرِ فَلَا يَمُنَّ بِهِ عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ أَلَا وَقَدْ حَضَرَ شَيْءٌ وَنَحْنُ مُسَوُّونَ فِيهِ بَيْنَ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ**»[١٢].

إنّه يريد أن يُفهم الناس بأنّهم أحرار وأخيار ومتساوون أمام القانون.. إنّه يوجّه كلامه للفرد في محاولة منه لبناء تصورات وقناعات إسلامية رسالية عنده، باعتبار أَنَّ بناء هذا الفرد هو العنصر الأساس في بناء المجتمع النموذج الرسالي المطلوب، فلم يتوقف فيه عند الموروث الراشدي الذي بدّده الخليفة عثمان، وإنّما كان ينطلق من التجربة الرائدة في المدينة، حيث اتّخذ كلّ مسلم دوره الكامل في المجتمع.

من هنا يمكن القول بأنّ انطلاق الإمام عليه السلام في محاولته تعميق المنهج التربوي الأصيل عند الناس خاصة على الصعيد السياسي، كان ينمّ عن رؤية واقعية لطبيعة الأجواء السلبية السائدة وانخفاض قيم وحرارة الرسالة في نفوس الناس.. وها هو يقول لابن عباس: «**فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرْكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ وَيَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ وَإِنْ جَهَدَ فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ فِيمَا قَدَّمْتَ مِنْ حُكْمٍ أَوْ مَنْطِقٍ أَوْ سِيرَةٍ وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مَا فَرَّطْتَ لله مِنْ ذَلِكَ وَدَعْ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا فَلَا تُكْثِرْ بِهِ حَزَناً وَمَا أَصَابَكَ فِيهَا فَلَا تَبْغِ بِهِ سُرُوراً وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ**»[١٣]..

ولم يكن الإمام يرغب في أن يضيع جهده سدى في إعادة تأهيل الناس وأبناء المجتمع على قيم الدين الصحيح بعد ما مرّوا بعهود ومناخات انقسامية عصبية.. ولهذا حاول أن يكون منهجه التربوي السياسي مبنياً على العلم

والمعرفة؛ ليكون أكثر قدرة على تحقيق الفائدة، ومميزاً بين نهج يقوم على العلم والمعرفة والقانون والرسالة، وبين نهج يعتمد التجهيل والتضليل والعصبية الجاهلية.. يقول عليه السلام: «**الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ فَلَا يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ إِلَّا بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ**»(١٤).

من هنا فقد جسّد الإمام عليه السلام حالة القائد الملتصق بهموم الناس والمجتمع وذلك من أجل أن يجعلهم على معرفة كاملة بالإسلام، وفي حالة وعي متجدد وتام لحقيقة الإسلام وجوهره ومناهجه وغاياته، ليكون المسلم المستنير بالمعرفة ـ على حدّ قول العلامة الراحل شمس الدين ـ في حصانة من الحيرة والتضليل وعلى بيّنة من أمره، وليكون الإسلام بمنجاة عن التشويه والتحريف، ويكون كلّ مسلم مستنيراً على دينه الذي هو معنى وجوده وشرف وجوده.. وكان عليه السلام لا بد أن يُسقط الخليفة هذا النهج التربوي على عمّاله ومعاونيه الذين كانوا على معرفة تامة بأمور العقيدة، ولا تعوزهم الصلابة في الدفاع عنها، ولا المقدرة على تثقيف الناس وتوجيههم الوجهة الصحيحة، كما يتجلى ذلك في رسالة إلى عامله على مكة قثم بن العباس: «**أَقِمْ لِلنَّاسِ الْحَجَّ وَاجْلِسْ لَهُمُ الْعَصْرَيْنِ فَأَفْتِ الْمُسْتَفْتِيَ وَعَلِّمِ الْجَاهِلَ وَذَاكِرِ الْعَالِمَ**»(١٥).. كما أوصى عامله على مصر مالك الأشتر في عهده المشهور: «**وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ وَمُنَاقَشَةَ الْحُكَمَاءِ فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلَادِكَ وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ**»(١٦).

إنّه يريد أن يعمّق لدى عماله وقادة أمصاره رؤية رسالية تربوية تقوم على قاعدة تعليم الناس وتنشئتهم وتربيتهم وتوجيههم من جديد الوجهة الإسلامية الرسالية الصحيحة، لا أن تقتصر مهامهم ـ كقادة ـ على إدارة شؤون مجتمعاتهم الإدارية والسياسية والاجتماعية وغيرها.. وأن لا ينسوا أهمية تعميق الجانب العلمي والقيمي الأخلاقي في نفوس الناس بعد ما أصابه الوهن والضعف

الشديدين نتيجة السياسات الظالمة والجائرة التي انتهجها رموز وحكام وأمراء وزعامات الخطّ الجاهلي المستعاد والمتلبس بلبوس الدين الإسلامي ذاته!..

ويمكن أن نلاحظ ـ بالعودة إلى الواقع الفكري والسياسي الذي أفرز مثل تلك القيادات المنحرفة منذ عهد السقيفة الأول ـ أَنَّ الإمام علياً عليه السلام حاول ومنذ بداية عهد الانحراف والتضليل، أن ينطلق في خطِّ الانفتاح والترشيد السياسي والفكري على الواقع الذي أبعده عن موقعه في الخلافة، فلم يتعقَّد من ذلك، بل درس المسألة على أساسٍ واقعيٍّ، فليس هناك أيّ مجال للمطالبة بحقّه، أو للحصول عليه، أمام التطورات المتلاحقة التي أدخلت القضية في مرحلة جديدةٍ صعبةٍ، ورأى أَنَّ هناك أوضاعاً طارئة في الأجواء الإسلامية تفرض عليه أن يواجه الموقف من خلال المصلحة الإسلامية العليا، في ما تقتضيه من إعطاء الرأي وحلّ المشاكل، وتحريك الجهد في خطِّ التعاون مع هؤلاء، الذين تقدّموه في تجربتهم الإسلامية في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية، بحيث إِنَّ القضية لم تكن قضيتهم في مركزهم من الناحية الذاتية، بل هي قضية الإسلام في الأوضاع الجديدة التي فرضت نفسها على الواقع، ووضعت القيادة الحقيقية في مواجهة الحاجة الإسلامية إلى حركتها في الاتجاه السليم المنفتح على المستقبل في قضية المصير.

ولكن المسألة أن الإمام علياً عليه السلام ـ الذي لم يكن مقتنعاً باستخدام القوّة وإعلان الحرب، والذي كان معروفاً عنه انفتاحه وتسامحه ورغبته الجامحة في اعتماد الحوار السلمي الهادئ إخلاصاً لقضية الإسلام وللمصلحة الإسلامية العليا ـ أدرك استحالة حدوث التغيير المطلوب من دون خيار القوة، مما اضطره إليه لاحقاً للجوء إلى هذا الطريق كخيار وحيد بعدما سدّت كلّ الأبواب السياسية في طريقه، وأعلن الطرف الآخر الجاهلي الحرب ضدّ المجتمع والقيادة الإسلامية المنتخبة المتمثلة فيه..

والمعروف أَنَّ الإمام كان قد حدّد منذ بداية تسلّمه للقيادة واستلامه لمقاليد الخلافة عناصر الأزمة التي أصبحت أشدّ تعقيداً من قبل، وفي ذلك يقول: «**فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى وَفسق آخَرُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا الله سُبْحَانَهُ يَقُولُ ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بَلَى وَالله لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا وَلَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا**»[17]... «**فَيَا للهَ وَلِلشُّورَى مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ**»[18].

من هنا كان خيار القوة والحرب صعباً للغاية، وربما كانت الصعوبة الكبرى فيه هو في إدراك إمامناعليه السلام سلفاً وعورة الطريق ومشاق المهمة، ومع ذلك بقي عليه السلام متشبثاً به، رافضاً أيّ دعوة للمساومة ولو كانت مرحلية.

وقد يقول قائل: إنّ هذا الخيار يبقى نظرياً وليس له حظّ من النجاح؛ إذ يؤدّي بصاحبه إلى العزلة وإلى العبور عكس التيار. ولكن علياً عندما تصدى للمهمة، لم يكن مجرّد داعية يتوخى التنظير فقط، وإنما كان يراهن على تأسيس المجتمع الملتزم بفكره والمنخرط في مسيرته، ربما انطلاقاً من مساحة صغيرة، إلى المساحة الأوسع للمجتمع، كما عبّر عن هذه الهواجس في صفين: «**فَوَالله مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِي وَذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا**»[19]..

طبعاً الإمام عليعليه السلام الذي فرض عليه القتال مع عدم قناعته به واختياره كهدف كما ذكرنا.. كان يملك البرنامج الدقيق في قضية تنظيم كلِّ الواقع الإسلامي سياسياً وإدارياً وما إلى ذلك، وكان يريد للمسلمين أن يعيشوا السلام والأمان والاستقرار، وهذا (نهج البلاغة) يدلُّنا كيف كان الإمام عليعليه السلام يهتمُّ بأن يصنع الإنسان المسلم من الداخل، بالطريقة التي يجسِّد فيها الإسلام عملياً، فكانعليه السلام يريد أن يرفع من مستوى المسلمين علمياً، وكان

يقول: «**إِنَّ هَاهُنَا لَعِلْماً جَمّاً (وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ) لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً**»[٢٠]، ولكن لم يكن هناك من يحمل العلم، بل كان عليٌّ عليه السلام يعتبر أنّ قيمة الإنسان هو ما يملكه من العلم: «**قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ**»[٢١]. ولكنّ الحرب فرضت عليه، حتى أنّه عندما تمرّد القوم عليه، لم يبدأهم بقتال، ولم يذهب إلى محاربتهم، ولكنَّ الحرب كانت عنصر ضغط ليرجعوا إلى الخطِّ المستقيم، وإن كان عليٌّ عليه السلام قد خاض الحروب بأقسى ما يكون منذ صدر الإسلام، واستطاع في حربه ضدّ المشركين أن يحمي الإسلام كلّه من كلِّ عدوان المشركين، وكان الفارس الأول، في بدر، وأحد، والأحزاب وغير ذلك، إلا أنّ مسألة الحرب لم تكن عنده مسألة مزاج، ولكنها كانت رسالةً يتحمَّل فيها المسؤولية في الدفاع عن الإسلام، وهذا ما اعترف به المؤالف والمخالف[٢٢].

ويمكن أن نلاحظ أَنَّ الإمام علياً عليه السلام كان وهو في طريقه للحرب والقتال يحاول أن يدفع بكل أخلاقياته ـ ومختلف أساليبه التربوية الراقية لتعليم الناس على الحقّ والعدل ووزن الأمور بميزان رضى الله تعالى ـ ليضغط على تلك العناصر والحركات الجاهلية المنحرفة، ولذلك لاحظنا في مسيرته نحو (صفين)، أنه كان يربّي أتباعه على الأخلاق الإسلامية في طريقة ردِّ الفعل مع الناس الذين يختلفون معهم، وهذا ما ذكر في (نهج البلاغة)، عندما سمع عليه السلام قوماً من أهل العراق يسبّون أهل الشام نتيجةً للحالة النفسية، والسبّ يعتبر ـ عادةً ـ وسيلةً من وسائل التنفيس عن العقدة، ومن وسائل شفاء الغيظ، فوقف عليه السلام فيهم خطيباً قائلاً لهم: «**إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ**»[٢٣]، فليس من خُلق الإسلام أن يأخذ المسلم بأسباب السُّباب حتى عند الاختلاف؛ لأنّ السُّباب إضافة إلى كونه خلقاً سيّئاً، لا يؤدي إلى نتيجة إيجابية على مستوى الرسالة، بل يؤدي إلى نتائج سلبية ويزيدها تعقيداً، كما لا يمكن أن يهدي السابّ خصمه بذلك. نعم، لكم أن تبيّنوا حقّكم وتشرحوا باطلهم بطريقة

موضوعية ترتكز على أساس منطق الحق: «**وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ**».

ثم أرادعليه السلام أن يفرغ من داخلهم الحقد على المسلمين، وأن لا تكون الذهنية التي يحملونها ضدّ المسلمين الذين يختلفون معهم ذهنية الحقد والتدمير، بل تبقى العلاقة الإسلامية لتكون الروحية روحية الانفتاح الذي يتطلب الصلح وحقن الدماء: «**وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْاللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ وَيَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ**».

وهذا يعني أَنَّ الإمام يريد من جماعته وأتباعه وكل الملتزمين بفكره ونهجه ومسيرته أن يكونوا أمناء على دينهم ورساليين في سلوكهم ومعاملاتهم حتى في أحلك الظروف واللحظات المصيرية، وحتى مع أعدائهم الذاهبين إليهم للقتال والحرب.

وها هو التاريخ يحدثنا ـ من خلال ذلك النهج الرسالي العلوي المتين ـ عن المسألة الأخلاقية الثانية في حربه ضدّ معاوية؛ إذ حدث أَنَّ أصحاب معاوية سيطروا على الماء ومنعوا جيش عليعليه السلام منه حتى يموتوا عطشاً، وحينها أذن عليعليه السلام لأصحابه أن يقاتلوهم ويستولوا على الماء، وعند ذلك، طلب أصحابه مقابلة جيش معاوية بالمثل، على أساس قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ولكن عليعليه السلام رفض ذلك، وقال إِنَّ الله خلق الماء للناس كافة، فلا يجوز لنا أن نمنع أحداً من شربه.. وهكذا دارت الحرب، وانطلقت لتسجِّل انتصاراً لعليعليه السلام بإنهاء التمرّد على الحكومة الشرعية، وكاد أن يصل مالك الأشتر إلى سرادق معاوية كما تذكر الرواية، فما كان إلا أن أشار عمرو بن العاص على معاوية بأن يقوم بخديعة رفع المصاحف والاحتكام إلى كتاب اللهّ، وانطلق شعار: (من لثغور العراق غير أهل الشام،

ومن لثغور الشام غير أهل العراق)، وفي وسط هذه الكلمات العاطفية، قال لهم الإمام عليعليه السلام: إنَّ القوم ليسوا من الملتزمين بالقرآن وإنّها خدعة، ولكن أصحاب الثفنات السود من العُبّاد الذين كانوا يعيشون العبادة ولا يملكون الوعي، خُدِعوا نتيجةً لهيمنة روح السذاجة والبساطة عليهم، وذلك انطلاقاً من سذاجة فكرية لا تدرس خلفيّات الأمور. وهكذا اختلف جيش الإمام بعضه مع بعض، حتى أَنَّ الأشتر طلب من عليعليه السلام أن يتركه مدة بسيطة؛ ليحقّق النصر على جيش معاوية، ولكن القوم هدّدوا بقتل عليعليه السلام إذا لم يأمر الأشتر بالتوقف عن القتال، في قضية مأساوية من أكثر ما عاشه عليعليه السلام من المأساة. وكانت قصة التحكيم التي فُرض فيها على علي الشخص الذي خذل الناس عنه، وهو أبو موسى الأشعري، ليكون في مقابل الداهية عمرو بن العاص، بينما كان الإمامعليه السلام يريد ترشيح ابن عباس في التحكيم. وهكذا انقلب أولئك الذين تفاعلوا مع رفع المصاحف ورفعوا شعار (لا حكم إلاّ لله)، فخرجوا وانفصلوا عن عليعليه السلام وكفّروه، وحدثت الفتنة، وانتهت الحرب على هذا الأساس.

ويمكن أن ننقل هنا حادثة أخرى للتدليل على عهد الحريات الذي أراد الإمام عليّ أن تسير الناس عليه، والذي يمكن القول بكلّ ثقة كاملة بأنّ عهده قد انطبع به بعد استلامه قيادة الأمة.. ودعوته الناس جميعاً للتعبير عن آرائهم وما يجول في خواطرهم من نقد للمجتمع وللحكم القائم حتى لو وصل النقد إليه شخصياً، وهو الإمام المعصوم واجب الطاعة والاتباع.. يقولعليه السلام: «**فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ وَلَا تَظُنُّوا بِي اسْتِثْقَالًا فِي حَقٍّ قِيلَ لِي وَلَا الْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ أَوْ مَشْوَرَةٍ بِعَدْلٍ**»[٢٤].. والتجربة العملية لعهد

الإمام عليّ عليه السلام كانت خير برهان على توجهه وقناعاته الفكرية الإسلامية في مجال الحرية، فقد كان الخوارج في عهده يمارسون شعائرهم وطقوسهم الدينية، ويدعون إلى معتقداتهم وآرائهم المنحرفة عن جادة الإسلام، ولكنه عليه السلام ـ وهو الخليفة وقائد الأمة ـ لم يأمر بقمعهم ومواجهتهم بالعنف والقوة، وإنّما طلب إلى أصحابه وأتباعه أن يردّوا عليها فكرياً، وأن يحاجوهم بالمنطق والعقل، طالما أنهم لم يرفعوا السيف في وجه المجتمع، ولم يسلكوا طريق التغيير بالقوة والإرهاب.. وحتى بعد أن تبيّن أَنَّ الخوارج مسؤولين عن مقتله واستشهاده، فإنه لم يأمر بقتلهم وملاحقتهم، بعد أن ضربه عبد الرحمن بن ملجم على رأسه الشريف مضرجاً جسده الشريف بالمداء الطاهرة، وإنما طلب محاكمته بميزان الحق والعدل وأصول القانون الإسلامي الناظم والمعمول به في دولة الإسلام، بما يعني ضربه ـ كما قال عليه السلام ـ ضربةً بضربة. يقول عليه السلام: «**لَا تَقْتُلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ**»[25].

بعض حكم الإمام عليه السلام على صعيد السياسة الإدارية:

يقول الإمام عليه السلام في بعض عهده لواليه على مصر مالك الأشتر: «**وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلَاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ وَإِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ صَدْرِهِمْ وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحِيطَتِهِمْ عَلَى وُلَاةِ أُمُورِهِمْ وَقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ ... وَإِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لِإِشْرَافِ أَنْفُسِ الْوُلَاةِ عَلَى الْجُمْعِ وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ وَقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ**».

ويقول عليه السلام في وصية له إلى عبد الله بن عباس عامله على البصرة: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ وَمَغْرِسُ الْفِتَنِ فَحَادِثْ أَهْلَهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَاحْلُلْ عُقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَقَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ لِبَنِي تَمِيمٍ وَغِلْظَتُك عَلَيْهِمْ وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْمٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا**

إِسْلَامٍ وَإِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِماً مَاسَّةً وَقَرَابَةً خَاصَّةً نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلَى صِلَتِهَا وَمَأْزُورُونَ عَلَى قَطِيعَتِهَا فَارْبَعْ أَبَا الْعَبَّاسِ رَحِمَكَ الله فِيمَا جَرَى عَلَى يَدِكَ وَلِسَانِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذَلِكَ وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ وَلَا يَفِيلَنَّ رَأْيِي فِيكَ وَ السَّلَامُ»(٢٦).

ويقول عليه السلام في رسالته لابن حنيف: «**أَمَّا بَعْدُ يَا ابْنَ حُنَيْفٍ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ...**».

انطلق الإمام علي عليه السلام على صعيد التنظيم السياسي الإداري خلال مرحلة حكمه الميمون معززاً لنظام اللامركزية الإدارية؛ حيث إنّه أعطى عماله على الأمصار والولايات (وهي: ولاية الكوفة، وولاية البصرة، وولاية الشام، وولاية مصر، وولاية البحرين) صلاحيات واسعة، ويلاحظ هذا التغيّر في نمط تنظيم الولاية من ولايته لمالك الأشتر عندما ولاّه مصر، فقد أعطى لواليه صلاحية تشكيل مجلس للشورى، وأعطاه صلاحية تعيين العمال وعزلهم، وأعطاه صلاحية وضع الخطط الاقتصادية والثقافية. وأكثر من ذلك منح واليه صلاحية وزارة الخارجية في تشخيص العلاقات في حالتي الحرب والسلم، وهو غير موجود في نظام الولايات المعمول به حالياً في بعض الدول المتقدمة.

والولاية بهذه الصلاحيات بحاجة إلى والٍ قوي يتمكن من الإدارة، فكان يدقّق كثيراً في اختيار الولاة، وعُرِف عنه شدته في الاختيار وعدم التساهل مع الوالي الضعيف، وعُرف عنه أيضاً حرصه على محاسبة الولاة في الصغيرة والكبيرة، ومشهورٌ عنه محاسبته لابن حنيف في رسالته المعروفة التي ذكرنا آنفاً..

وكان يبدو أَنَّ الهدف الرئيسي من وراء هذا التنظيم الإداري كان مركوزاً في تخفيف العبء عن المركز عبر العمل على توزيع المسؤوليات والمهام على

الولايات المختلفة، ومن ثم تسهيل عملية التوزيع المطلوبة من بيت المال، إضافة إلى تعميق مبدأ التعددية السياسية والاجتماعية في ظلّ الإمامة التي تقوم بدور الجامع لهذه التعدديات.

وحتى تقوم ويشتد عود مثل هذه الدولة الرشيدة، لا بد وأن تكون دولة عادلة يحبها أهلها، ويرضون عنها، ويدافعون عنها في وجه التحديات والضغوطات، ويرغبون ببقائها ودوامها عن رضى وطواعية لا عن قسر وإكراه أو ضغط..

ولهذا كان عليه السلام يوجّه عماله وولاته إلى ضرورة البقاء مع الناس والالتصاق معهم في تحدياتهم وأزماتهم ومشاكلهم ومعاناتهم.. قائلاً لهم: «**وَأَمَّا بَعْدَ هَذَا فَلَا تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلَاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ**»، كما أنّه يطلب إليهم أن يمدّوا جسور المودة والمحبة والتواصل الدائم معهم؛ لأنّ قناعته الإسلامية تقوم على قاعدة مشاركة الناس والرعية جميعاً في تحمل مسؤوليات بناء الدولة: «**وَالْزَمُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ**»..

وكلّما كانت الدولة المنشودة قائمة على المحبة والمشاركة الطواعية والرضى بين الناس، وبحيث يأخذ فيها كلّ فرد حقوقه كاملة، كلما كانت دولة مستقرة ودائمة وآمنة، تحسب لها باقي الدول ألف حساب قبل أن تفكر بغزوها أو مواجهتها.. أمّا الدولة القائمة على الهيمنة والسيطرة والغلبة والقهر والخوف والكبت والحرمان فتلك هي دولة الاستبداد التي لا يحبها أحد، ويتمنى الإنسان أن تسقط من فورها؛ لأنّها تؤسس للأحقاد والضغائن وردود الأفعال السلبية بين الرعية، وتكرّس الظلم والتفرقة والانقسام والتشتت وبث الفرقة وتبديد الطاقات في المجتمع.. وهذا ما يفضي ـ بطبيعة الحال ـ إلى تعميق حسّ الانتقام والثأر بين الناس، وزيادة مساحة انتشار الجريمة في المجتمع.

من هنا كان عليه السلام يطلب من ولاته وقادته أن يطبّقوا معيار العدالة في كلّ شيء، وأن يكونوا مثالاً في تطبيق قيم الدولة العادلة على أنفسهم قبل غيرهم، وهذا هو أحد أهم شروط نجاح الحكم وبناء الدولة وازدهار المجتمع.. كما كان عليه السلام يؤكد بأنّ استمرار وبقاء الدولة مشروط بتحقيق العدالة في كل مستوياتها، ليس فقط على الصعيد الحقوقي أو السياسي أو الاجتماعي، بل أيضاً على الصعيد الاقتصادي، حيث إنّه لا عدالة حقيقة مع وجود الفقر والتخلف والبؤس والمعاناة، ولا يمكن للعدل أن يتحقق إلا عندما ينتهي الفقر في المجتمع. لأنه «**مَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مَنَعَ بِهِ غَنِيٌّ**»[٢٧]، ويبدو أَنَّ السبب الذي دفعه عليه السلام للتركيز على هذه النقطة المهمة هو انتشار الفقر في المجتمع كأحد الأسباب والدوافع التي أدت إلى الثورة على عثمان.

وهذا ما يظهر من خلال وصيته لولاته على الأمصار، ومنهم مالك الأشتر النخعي الذي أوصاه ـ حرصاً على إرساء قيم العدالة وإنهاء حالة الفقر ـ بضرورة وضع سياسة حكيمة مبنية على تحليل دقيق للوضع الاقتصادي الذي كان يختاره العالم الإسلامي في تلك الفترة، ومنها دعم الإنتاج، واحترام العمل، ومراقبة السوق، ومنع الاحتكار، وتوزيع رؤوس الأموال، وتكريم العامل الذي يعمل في الأرض والمصنع، يقول عليه السلام: «**وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْراً الْمُقِيمِ مِنْهُمْ وَالْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ وَالْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ**».

ثم يوجهه إلى أهمية الإنتاج وأنّ له الأولية.. وبداية التفكير يجب أن يكون في الإنتاج قبل أخذ الخراج.. يقول: «**وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ**».

خاتمة البحث

لا يمكننا أخيراً ـ في نهاية هذه الجولة المعرفية السريعة في مساحة ضيقة ويسيرة من فكر الإمام عليعليه السلام الواسع واللامحدود ـ إلا أن نؤكد على أَنَّ الحديث عن تاريخ (وحياة، وفكر، ومشروع) هذا الإمام العظيمعليه السلام هو حديث عن الآفاق والتطلعات والإشراقات الكبرى في الحياة البشرية.. فحركتهعليه السلام في التاريخ لا تزال تقدم لنا ـ في كل يوم، وبخاصة في يومنا الراهن الذي نحن بأمس الحاجة فيه إلى من يثير فينا إرادة العمل وطاقة الفعل المبدع، ويحرضنا من جديد على الانتماء السلوكي الصريح والنهائي لقيم المحبة والحرية والعدالة والعطاء والخير والجمال ـ ما يمكن أن ينفعنا في حياتنا المعاصرة.. وهي ـ أعني بها حركة الإمام ـ ستبقى تحمل داخلياً الحق كله في مواقفها، والعدل كله في أهدافها، والحركية الواعية والمسؤولة في طبيعة التزامه وإخلاصه الكبير لله تعالى، والتضحية في سبيله، والذوبان الكامل في ذاته، والإحساس العميق بوجوده، ومحبته الممتدة على طول المسيرة الإنسانية التكاملية في الحياة.

من هنا حقّ لنا ـ نحن أبناء هذه المجتمعات الإسلامية ـ أن نتساءل عن كيفية الاستفادة واستثمار مثل هذه القيم والأفكار والحكم المواعظ الكبيرة والعظيمة التي نطق بها عملياً إمامناعليه السلام في فترة زمنية محددة من تاريخ هذه الأمة، خاصةً وأننا نمرّ حالياً بظروف ومناخات صعبة ومعقدة على صعيد اجتماعنا السياسي والثقافي؟!!.

وما هي السبل وطرق العمل الكفيلة بإخراج المشهد الإسلامي العام المعاصر من حالة الاحتكاك والتلقي السلبي إلى حالة الفعل والتأثير الإيجابي؟!. ثم ما هي واجبات المثقف الإسلامي الملتزم تجاه تلك التحديات والمتغيرات والتطورات العالمية الهائلة؟!.

لا ريب في أَنَّ الأحوال الراهنة لمجتمعاتنا الإسلامية تدعو إلى قلق شديد، وتنذر بعواقب غير حميدة في المستقبل القريب أو البعيد. وللأسف فإنّنا لم نصل

إلى هذه النتيجة المأساوية الخطيرة إلا بعد أن وقفنا على حالة الضعف واليأس والإحباط العامة التي تطبع واقع هذه الأمة السياسي والثقافي والاجتماعي و.. الخ.. فالحصيلة العامة لمسيرة الأحداث والتطورات التي وصلت إليها مجتمعاتنا تنطوي على مظاهر ونتائج سلبية مخيبة للآمال، ومحطمة للنفوس، وتشكل ـ في الوقت نفسه ـ صدمة نفسية عنيفة لكلّ أصحاب الطموحات والمشاريع النهضوية العربية والإسلامية.

ولعلّ السمة الأبرز للحال الراهنة في العالم الإسلامي تتمثل أكثر في مأزق التنمية الثقافية، بمعناها الواسع والشامل الذي ينعكس على واقع الأمة الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، من خلال الفشل الكامل في بناء وإنجاز مشروع سياسي تعددي تتحكم به مؤسسات وآليات عمل عصرية تحظى بالشرعية الأمتية (نسبة إلى الأمة) الصحيحة، وتعبّر أفضل تعبير عن الإرادة الحرّة لجماهير الأمة.

من هنا يمكن التأكيد على أنّ تلمسنا للطريق الصحيح الواضح ـ الذي يجب أن نتحرك عليه لنصل إلى غاياتنا وتطلعاتنا المستقبلية في استكمال مشوار تحرير الذات من الاستكبار، وتصفية مظاهر الفقر ومواقع الخلل والتخلف المركّب فيها بجميع مظاهره، وإقامة مجتمعات إسلامية حرة تنشد التحديث والتطوير المتوازن، وتتناغم مع اتجاهات العصر، وإبداعاته، ومبتكراته العلمية والمعرفية ـ لا بدَّ أن ينطلق أوّلاً من خلال تحديد وإبراز ما هو رئيسي وجوهري من تحديات وقضايا نابعة من الحاجات الحقيقية لمشروع التنمية الثقافية الإسلامية، ومن ثم الاقتصادية والسياسية، و..الخ الشاملة.. ويبدو لي أَنَّ الطريق الصحيح المقصود أنفاً هو تعميق صلتنا بثقافتنا الإسلامية الأصيلة، وهويتنا الحضارية المتجددة، وترسيخ انفتاحنا الواعي والمتوازن على باقي ثقافات وحضارات العالم.

إننا نعتقد أن ثقافتنا الإسلامية تمنح الإنسان الفرص، وتقدّم له الوسائل المناسبة للتمكن من الحياة على الأرض بفاعلية، والتصرف عليها بوصفه الأمين والمؤتمن على نفسه، وعلى سواء من عناصر الطبيعة والحياة. والفكر الإسلامي المعاصر حقّق ـ على هذا الصعيد ـ الكثير من التقدم. حيث استطاع استيعاب منجزات العلم الحديث، وأساليب التنظيم المعاصرة، ووضع مشاريع إجابات إسلامية واعية مبنية على اجتهادات فقهية لصيغ التعامل بين الأنا والآخر، والكشف عن إقرار الإسلام بالتعددية الثقافية والحضارية، واعترافه بشرعية التنوعات بين الأقوام والجماعات البشرية المتعددة.

ولكن لا بدّ لنا من الاعتراف هنا ـ في إطار تحليلنا للمشهد الثقافي العربي والإسلامي الراهن، على طريق كدحه الارتقائي نحو طموحاته المستقبلية العالية ـ أنّنا لم نصل بعد إلى المستوى الملائم لما تقتضيه تحديات المرحلة في كثير من مواقعها وامتداداتها التي لا تزال تطرح من خلالها قضايا مهمة جداً كقضية الدولة الإسلامية، وآليات تنظيمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية التفصيلية.. أيْ: أنّنا لا نزال ـ على هذا الصعيد ـ نسمع حتى الآن أصداء الخطاب التعبوي العاطفي. وإن كنّا نلاحظ أَنَّ هناك بعض التقدم الحاصل في هذا المجال تحديداً، فإنّه لم يبلغ بعد درجة الكفاية والتطلب الحقيقية التي تجعله يستجيب للمستجدات السياسية والاجتماعية والثقافية والسلوكية في التعامل مع مجتمعاتنا والمجتمعات الأخرى.

والثقافة تمثل ـ بالمنظور الكلي ـ الجواب الذي تقدمه الجماعات البشرية لمشكلة وجودها الاجتماعي، وذلك بالنظر إلى ظروفها الخاصة، وعناصر تطورها ومعطياتها الحضارية. وهي بالتالي ليست مجرّد ترف أو استمتاع جمالي، وإنما هي الحلول التي يعمل الإنسان على خلقها وإبداعها وإيجادها للمشكلات الكثيرة المطروحة من قبل محيطه وبيئته الاجتماعية والسياسية ...الخ. وبهذا

المعنى يصبح الاقتصاد نفسه جزءاً لا يتجزأ من الثقافة[٢٨]..

وبمقدار ما تكون هذه الثقافة قادرة على إعطاء المجتمع شخصيته، ووحدته، وتماسكه، وهويته الحضارية المستقلة والمنفتحة على الآخر، بمقدار ما تكون تأثيرها ـ على طريق تقديمها لإجابات شافية ووافية عن مشاكل وجوده الاجتماعي والسياسي ـ عميقاً وقوياً، وأكثر قدرة على صنع الحضارة، وبناء المجتمع السليم والمعافى في وعيه، وسلوكه، وأنماط معيشته وهدفه في الحياة. وبالتالي تصبح الطريق أمامه مفتوحة لاستيعاب وتمثل العلوم الحديثة، والتقنيات الحضارية المتجددة.

من هنا فإنّنا بحاجة ماسة ـ في مجال البحث عن علاقة متوازنة وطبيعية مع العولمة الثقافية تأخذ بقيم الانفتاح لا الانغلاق ـ إلى تعميق الحس الثقافي النقدي لمفاصل الإهتراء الحضاري والسياسي القائمة في داخل تركيبتنا الاجتماعية والحضارية، من أجل تحديد المسؤوليات السياسية والثقافية، والمباشرة الجدية في استدعاء الحلول الجديدة المناسبة.

بهذا الوعي النقدي يتقدّم المجتمع، وتتكامل الثقافة والفكر، وتتقدم السياسة والاجتماع السياسي المدني، وبه أيضاً يمكن أن نواجه ثقافة العولمة بوعي وثبات وتحليل ونقد موضوعي هادف ينطلق ـ قبل كل شيء ـ من داخل ثقافتنا الإسلامية نفسها؛ ذلك لأنّه سواء تعلق الأمر بالمجال الثقافي أو بالمجال السياسي أو بغيرهما، فمن المؤكد أنّه لولا وجود مظاهر التراخي والكسل والضعف الداخلي التي تضج بها ساحتنا الداخلية؛ لما استطاع الفعل الخارجي أن يمارس تأثيره البالغ بالصورة التي تجعل منه ـ في نظر الكثيرين ـ خطراً ماحقاً يهدد الكيان والهوية والتراث.

وفي هذا المجال يمكن أن نتذكر ونلتقي مع تجربة الإمام علي عليه السلام ـ التي تحدثنا عن جزء بسيط ويسير منها في محاولة لإضاءة على بعض حكمه ورؤاه

العملية في مفاصل تجربته في الإدارة والحكم الرشيد العادل الذي مثله ـ في طريقة مواجهته للواقع المعقّد المتخلف الذي حاول دعاة ورموز الانقسام الإبقاء عليه في مواجهة الإسلام الرسالي..

وهذه القيمة التاريخية التي مثلها الإمام علي عليه السلام كهوية تاريخية حية ومستمرة، نريد لها أن تعطينا الدفع والقوة للانطلاق المنتج والمؤثر نحو الحاضر والمستقبل، خصوصاً وأنّنا أمة لا تزال تبحث عن دور وموقع عملي لها في هذا العالم الذي تلفه حركة الصراعات ومواقع التحدّي في كلّ حدب وصوب.

إنّنا نعتقد أَنَّ دراستنا الحضارية لهويتنا وإعادة تركيبها وصياغتها بما يتناسب مع أجواء ومعطيات العصر والحياة المتحركة الحالية ـ لا بمعنى التخلّي عن ثوابتنا وحضارتنا ليعيش عقدة الجديد في كلّ فكر و سلوك وعمل ـ يشكّل أحد أهمّ القنوات والآليات الضرورية المطلوب العمل عليها لكي نسير على طريق الإنتاج والعمل، بعد أن نقوم بمعالجة تحدياتنا القديمة والجديدة ومواجهتها وعدم الهروب منها، أو الخضوع لها تماماً كما واجه الإمام علي عليه السلام مثلاً تحديات واقعه الإسلامي الذي عاش فيه.

من هنا فإنّ التأكيد الدائم على ضرورة الإحياء والتمثل الحركي المتجدد لمفردات هويتنا الثقافية الإسلامية، لا بد أن ينطلق عن وعي وإدراك كاملين من خلال العمل على القيم والمبادئ الرفيعة والعالية التي تختزنها تلك المفردات الذاتية والموضوعية.

* * *

الهوامش:

(١) الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، نهج البلاغة: ١٣٢، الخطبة: ١١٣، جمع: الشريف الرضي، نشر:

مؤسسة نهج البلاغة، الطبعة الأُولى ١٤١٤هـ، قم.

(٢) المصدر نفسه: ٢٣٢، الخطبة: ١٨٩.

(٣) المصدر نفسه: ٢٨٦، الخطبة: ٢٣٣.

(٤) المصدر نفسه: ٢٦٨، الخطبة: ٢٢١.

(٥) المصدر نفسه: ١٨١، الخطبة: ١٥٦.

(٦) المصدر نفسه: ٢٨٦، الخطبة: ٢٣٣.

(٧) المصدر نفسه: ٢٢٢.

(٨) المصدر نفسه: ٢٣٣، الخطبة: ١٨٩.

(٩) المصدر نفسه: ٣٦٢.

(١٠) هذا النّص ـ وإنْ اشتهر على الألسن ـ لم نجده في المصادر الحديثية، نعم نقل ابن أبي الحديد المعتزلي في الحكم المنسوبة إِلَى أمير المؤمنين حديثاً قريباً منه في اللفظ، وهو قوله: «**لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانك**» (التحرير).

(١١) نهج البلاغة: ٦٠، الخطبة: ٦٠، مرجع سابق.

(١٢) الكُلَيْني، مُحَمَّد بن يعقوب، الكافي ٨: ٦٩، كتاب الروضة، الحديث: (٢٦)، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطَّبعة الثّالثة ١٣٦٧ش، دار الكتب الإسلاميَّة، طهران.

(١٣) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار ٣٢: ١٠٢، الطَّبعة الثَّالثة ١٤٠٣، دار إحياء التُّراث، بيروت.

(١٤) نهج البلاغة: ١٧٦، مرجع سابق.

(١٥) المحدث النوري، الميرزا حسين، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل ٩: ٣٥٨، نشر: مؤسسة آل البيت ^ ، الطبعة الأُولى ١٤٠٨، بيروت.

(١٦) نهج البلاغة: ٣٧٠، عهده إِلَى مالك الأشتر.

(١٧) نهج البلاغة: ١٦: ٣.

(١٨) المصدر نفسه.

(١٩) المصدر نفسه: ٥٧، الخطبة: ٥٤.

(٢٠) المصدر نفسه: ٤٣٤.

(٢١) المصدر نفسه: ٤١٩.

(٢٢) فضل الله، محمد حسين، فكر وثقافة: ٢١٨، السنة السادسة، ١٦ ربيع الثاني: ١٤٢٢ هـ/ ٧

تموز: ٢٠٠١م.

(٢٣) فضل الله، محمد حسين، فكر وثقافة: ٢١٨، السنة السادسة، ١٦ ربيع الثاني: ١٤٢٢ هـ/ ٧ تموز: ٢٠٠١م.

(٢٤) نهج البلاغة: ٢٥٣.

(٢٥) نهج البلاغة: ٦٠، الخطبة: ٦٠، مرجع سابق.

(٢٦) المصدر نفسه: ٣٢١، الكتاب: ١٨.

(٢٧) المصدر نفسه: ٤٧٤.

(٢٨) انظر: سيرج لاتوش، تغريب العالم، (ص:٦٤-٦٧)، ترجمة: هاشم صالح، المؤسسة العربية للنشر والإبداع، طبعة أولى، عام١٩٩٣م.

آية البلاغ بين العلمين

الآلوسي والطباطبائي

□ السيّد علي هاشم(*)

تمهيد

إنَّ من له أدنى معرفةٍ بسيرة النبي ' في تأسيس دولة الإسلام و تشريع أحكامها وتمهيد قواعدها، وأدرك ما لمقام الإمام من دور يضطلع به في هداية الناس بعد النبي ' ، والأخذ بأيديهم لإيصالهم إلى كمالهم المطلوب، يجد أنَّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام هو وزير رسول الله ' في أمره، وظهيره على عدوه، وعيبة علمه، ووارث حكمته، وولي عهده، وهو صاحب الأمر من بعده.

ومن وقف على أقوال النبي ' وأفعاله في حلّه و ترحال يجد نصوصه في ذلك متواترةً متواليةً من مبدأ أمره إلى منتهى عمره، فمن بدء الدعوة ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾(1)، وما رافق هذا الأمر بقول النبي ' لعلي عليه السلام: «**إنَّ هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوه**»، وحديث المنزلة(2)حيث

(*) باحث إسلامي/ لبنان.

قال له ' : «**أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنَّهُ لا نبي بعدي**»، إلى حديث الثقلين[٣]، وآية التطهير[٤]، وحديث السفينة[٥]، وحديث الغدير[٦] و...، فهذه كُلُّها شواهد تشير إلى أنَّ الخليفة من بعده بلا فصل هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

لكن وبعد وفاته ' مباشرةً اجتمع القوم في سقيفة بني ساعدة، والنبي ' بعدُ لم يُغَسَّل، وحصل ما حصل مِمّا سجّله التاريخ بوضوح، وسالم عليٌّ عليه السلام مدّة طويلة ما سلمت أمور المسلمين؛ إذ إنَّ إمرة القوم عنده ما هي إلا كعفطة عنز.

وبحثنا هنا ينصبُّ حول آيةٍ في كتاب الله دارت عليها وحول قضيتها رحى المعارك الكلاميّة، حيث إنَّها جاءت نصاً فيما يعتقده الشيعة الإماميّة من ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، بينما لا يرضى بذلك بعض أتباع مدرسة الخلفاء، معتبرين أنَّ الذي تقول به الشيعة ما هو الاّ افتراء على الله ورسوله، والآية هي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[٧].

وستكون الدراسة مقارنة بين ما ذكره العلامة الطباطبائي في تفسيره «الميزان» وبين ما ذكره العلامة شهاب الدين الآلوسي في تفسيره «روح المعاني»، راجياً المولى الكريم أن يوفّقنا للخير والهدى والعمل الصالح، اللهمّ آمين.

قال تعالى في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

وقد اختلف علماء المسلمين في سبب نزولها وتفسيرها، وأهم أقوالهم في ذلك سبعة[٨]:

الأوّل: أنَّها نزلت أوّل البعثة، وأنَّ الله تعالى بعث النبي ' ، وأمره تبليغ رسالته، فخاف على نفسه إذا بلّغ فامتنع أو تباطأ، فهدَّده الله تعالى وطمأنه

فقام ' بالتبليغ.

الثاني: أنَّها نزلت في مكّة قبل الهجرة بدون تحديد وقتٍ معين، فاستغنى بها ' عن حراسة عمه أبي طالب عليه السلام أو عمه العباس.

الثالث: أنَّها نزلت في المدينة بدون تاريخ.

الرابع: أنَّها نزلت في المدينة في السنة الثانية للهجرة بعد حرب أُحُد.

الخامس: أنَّها نزلت على أثر محاولة شخص اغتيال النبي ' ، وقد تضاربت رواياتهم في ذلك.

السادس: أنَّها عامّة تؤكد على النبي ' وجوب تبليغ الرسالة، وإلا فإنَّهُ لم يبلغها.

السابع: أنَّها بمعنى: بلّغ ما أُنزل إليك من ربك في علي بن أبي طالب عليه السلام في غدير خم(٩).

التفسير:

ذهب الألوسي إلى أنَّ المراد بـ ﴿بَلِّغْ﴾ جميع ما أنزل اليك كائناً ما كان، وأنَّ الله تبارك وتعالى قد تكفَّل بحفظ النبي ' ورعايته. وذَكَرَ أنَّ عدم تبليغ الجميع مساوٍ لعدم التبليغ أصلاً؛ وذلك أنَّ بعض الشريعة ليس بأولى من غيره بالتبليغ، ولأنَّ كتمان بعضها يضيّع ما أُدّي منها.

والملاحظ أنَّ الآلوسي لم يُعِر انتباهه إلى موقع الآية في السياق، خصوصاً أنَّها وقعت في وسط آياتٍ تتحدث عن «أهل الكتاب». كما إنَّهُ لم يشر إلى أنَّها مكّية أو مدنيّة، اللّهم إلا ما نقله في أول السورة عن ابن عباس ومجاهد أنَّها مدنيّة. ويُحتَمَلُ أنَّهُ يميل إلى هذا الرأي؛ وذلك عند قوله: «إنَّ افتتاح سورة النساء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هو أشبه بالتنزيل المكّي، وأوّل هذه ـ أي سورة المائدة ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وهو أشبه بالتنزيل المدني.

وبدأ تفسير الآية مباشرةً ثم ذكر بعض الأقوال الأخرى بنحو: قيل. وردّ ما

ردّ منها، ولم يتطرّق لما يمكن أن يرد على تفسيره للآية، بل أتبع ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وقد توسّع في أبحاثٍ لا يُعلم مدى ارتباطها ببحثه من قبيل تعرضه للصوفيّة، وأنَّ العلم علمان، ثم تفنّن في الأخذ والرد على ذلك.

قال الآلوسي:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ إلى الثقلين كافّة ﴿بَلِّغۡ﴾ أي: أوصل إلى الخليقة ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾، أي: جميع ما أُنزل إليك كائناً ما كان، ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أي: من مالِكِ أمرك ومبلّغك إلى كمالك اللائق بك، وفي هذا عِدَةٌ ضمنيّة بحفظه عليه الصلاة والسلام. ومعنى كلامه: أن بَلِّغْهُ غير مراقبٍ في ذلك أحداً، ولا خائف أن ينالك مكروهٌ أبداً.

﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ﴾ أي: ما أُمرت به من تبليغ الجميع، ﴿فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي: فما أدَّيت شيئاً من رسالته لما أنَّ بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض، فإذا لم تؤدِّ بعضها فكأنّك أغفلت أداءها جميعاً، كما أنَّ من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكُلِّها لإدلاء كُلّ منها بما يدليه غيرها، وكونها كذلك في حكم شيءٍ واحدٍ والشيءُ الواحدُ لا يكون مُبلَّغاً غير مبلَّغ، مؤمَناً به غير مؤمنٍ به[١٠].

أمّا العلامة صاحب الميزان فقد انطلق في تفسيره من موقعيّة الآية في السياق، حيث حُفّت بالآيات المتعرضة لأهل الكتاب وذمهم؛ لذلك فهو يرى أنَّ الآية ليست متصلةً بما قبلها ولا بما بعدها وإنَّما هي آيةٌ مفردةٌ نزلت وحدها.

ثم ينطلق في بحثه من نفي ما يُمكن أن يُقال في معناها، فنفى أن يكون الأمرُ بالتبليغ في أوّل البعثة، أو أن يكون المراد بالتبليغ أصل الدين ومجموعه ولو في أي وقتٍ آخر، ويخلص إلى أنَّهُ لو كان المراد حكماً إن لم يبلغ فكأنما لم يبلغ الدين، فإنَّ ذيل الآية بنظره لا يُلائم ذلك، إذ أنَّهم علّلوا بكون المعارف والأحكام الدينيّة مرتبطةً بعضها ببعض، بحيث لو أخلَّ بشيءٍ واحدٍ منها أخلَّ بها جميعها.

ثم يقول: «إنَّ الحكم الذي أُمر النبي ' بتبليغه هو أمرٌ من الأهميّة بمكان بحيث لو أُهمل كان ذلك في الحقيقة إهمالاً لأمرِ سائر الأحكام، بحيث تكون جسداً بلا روح، وإنّ هناك من القوم من سوف يتألّب عليه ' ممّا يؤدّي إلى هدم أركان ما بناه من بنيان وتتلاشى أجزاؤه. وهذا يتصوَّر بعد الهجرة واستقرار أمر الدين في المجتمع الإسلامي، فضلاً عن الحكم النازل فيه شوب انتفاع للنبي ' ».

وبعد كُلِّ هذا العرض يربط الآية بحادثة الغدير، ثم يبدأ بتفسير الآيات وربطها بما تقدَّم.

قال: «معنى الآية في نفسها ظاهرٌ، فإنَّها تتضمّن أمر الرسول ' بالتبليغ بصورة التهديد ووعده بالعصمة من الناس، غير أنَّ التدبر في الآية من حيث وقوعها موقعها الذي وقعت فيه، وقد حفَّتها الآيات المتعرضة لحال أهل الكتاب وذمّهم وتوبيخهم بما كانوا يتعاورونه من أقسام التعدّي إلى محارم الله والكفر بآياته، وقد اتصلت بها من جانبيها الآيتان، أعني قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾، ثم الإمعان في التدبر في نفس الآية، وارتباط الجمل المنضودة فيها يزيد الإنسانَ عجباً على عجب، فلو كانت الآية متصلةً بما قبلها وما بعدها في سياقٍ واحدٍ في أمر أهل الكتاب، لكان محصّلها أمر النبي ' أشدّ الأمر تبليغَ ما أُنزل إليه في أمر أهل الكتاب، وتعيّن بحسب السياق أنَّ المراد بما أُنزل إليه من ربّه هو ما يأمره بتبليغه في قوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ، وسياق الآية يأباه فإنَّ قوله ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يدل على أنَّ هذا الحكم المنزل المأمور تبليغُهُ أمرٌ مهمٌ، فيه مخافةُ الخطر على نفس النبي ' أو على دين الله تعالى من حيث

نجاح تبليغه، ولم يكن من شأن اليهود ولا النصارى في عهد النبي ' أن يتوجه إليه من ناحيتهم خطرٌ يسوّغ له ' أن يُمسك عن التبليغ أو يؤخره إلى حينٍ، فيبلغ الأمر إلى حيث يحتاج إلى أن يَعِدَه الله بالعصمة منهم إن بلّغ ما أُمر به فيهم حتىّ في أوائل هجرته إلى المدينة وعند حِدَّة اليهود وشدّتهم حتى انتهى إلى وقائع خيبر وغيرها.

على أنَّ الآية لا تتضمن أمراً شديداً ولا قولاً حاداً، وقد تقدَّم عليه تبليغ ما هو أشدّ وأحدّ وأمرّ من ذلك على اليهود، وقد أُمر النبي ' بتبليغ ما هو أشدّ من ذلك كتبليغ التوحيد ونفي الوثنيّة إلى كفّار قريش ومشركي العرب، وهم أغلظ جانباً وأشدّ بطشاً وأسفك للدماء وأفتك من اليهود وسائر أهل الكتاب، ولم يهدده الله في أمر تبليغهم ولا آمنه بالعصمة منهم.

على أنَّ الآيات المتعرضة لحال أهل الكتاب في معظم أجزاء سورة المائدة فهي نازلة فيهم قطعاً، واليهود كانت عند نزول هذه السورة قد كُسِرَت شوكتهم، وخمدت نيرانهم، وشملتهم السخطة واللعنة، كُلَّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، فلا معنى لخوف رسول الله ' منهم في دين الله.

فلا ينبغي الارتياب في أنَّ الآية لا تشارك الآيات السابقة عليها واللاحقة لها في سياقها، ولا تتصل بها في سردها وإنَّما هي آية مفردة نزلت وحدها(١١).

وهكذا نلاحظ أنَّ السيّد الطباطبائي، وقبل أن يدخل في تفسير الآية لاحظ موقعيتها في السورة ومدى تناسبها مع الآيات التي قبلها والتي بعدها، مستعيناً بالقراءة التاريخيّة لحياته ' ولواقع اليهود وأهل الكتاب في العصر النبويّ، خصوصاً أنَّ تاريخ نزول هذه السورة في المدينة في آخر عهده ' وأهلُ الكتاب واليهود وقتها لا حول لهم ولا قوّة.

وهذه الالتفاتةُ والتحليلُ مما لم يقم به الآلوسي، وكأنَّهُ اعتبر الآية في موقعها الطبيعي، بل إنَّهُ ألفت إلى نكتةٍ وجدها بين هذه الآيات بقوله: «وإيراد الآية في

تضاعيف الآيات الواردة في أهل الكتاب لما أنَّ الكل قوارعٌ يسوء الكفّار سماعها، ويشق على الرسول ' مشافهتهم بها، وخصوصاً ما يتلوها من النص الناعي عليهم كمال ضلالهم؛ ولذلك أُعيدَ الأمر فقال سبحانه: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ...﴾ (١٢).

ويقول العلامة الطباطبائي:

«والآية تكشف عن أمرٍ قد أُنزِلَ على النبي ' ، إمّا هو مجموع الدين، أو بعض أجزائه، وكان ' يخاف من تبليغه الناس ويؤخره إلى حين يناسبه، ولولا مخافته وإمساكه لم يحتج إلى تهديده بقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، فهو كان يخافهم ولم تكن مخافته على نفسه في جنب الله سبحانه فهو أجلّ من أن يستنكف عن تفدية نفسه أو يبخل بشيءٍ في أمر الله بمهجته، إذ هذا أمرٌ تُكَذِّبُهُ سيرتُهُ الشريفةُ ومظاهرُ حياتِهِ. على أنَّ الله شهد في رسله على خلاف ذلك حيث قال: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۞ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾(١٣).

وليس من الجائز أن يُقال: إنَّهُ ' كان يخاف على نفسه أن يقتلوه فيبطل بذلك أثر الدعوة، و ينقطع دابرها، فكان يعوّقه إلى حينٍ ليس فيه هذه المفسدة، فإنَّ الله سبحانه يقول له ' : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾.

نعم، من الممكن أن يقدّر لمعنى قوله ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أن يكون ' يخاف الناس في أمر تبليغه أن يتهموه بما يفسد به الدعوة فساداً لا تنجح معه أبداً، فقد كان أمثال هذا الرأي والإجتهاد جائزاً له، مأذوناً فيه دون أن يرجع معنى الخوف إلى نفسه بشيء» (١٤).

ثم بعد كلام طويل يقول ﷺ:

«فقد تبين أنَّ الآية بسياقها لا تصلح أن تكون نازلةً في بدء البعثة ويكون

المراد فيها بما أُنزل إلى الرسول مجموع الدين أو أصله، ويتبين بذلك أنَّها لا تصلح أن تكون نازلةً في خصوص تبليغ مجموع الدين أو أصله في أيّ وقتٍ آخر غير بدء البعثة، فإنَّ الإشكال إنَّما ينشأ من جهة لزوم اللغو في قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، كما مرّ»[١٥].

وكأنَّ العلامة استدل على لزوم اللغويّة بقوله:

«إن الآية لم تنزل في بدء البعثة كما يراه بعض المفسرين، إذ لا معنى حينئذٍ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ إلا أن يكون النبي ' يُماطلُ في انجاز التبليغ خوفاً من الناس على نفسه أن يقتلوه فيُحرم الحياة أو أن يقتلوه ويذهب التبليغُ باطلاً لا أثر له، فإنَّ ذلك كُلَّه لا سبيل إلى احتماله.

على أنَّ المراد بما أُنزل إليه من ربّه لو كان أصل الدين أو مجموعه في الآية عاد معنى قوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ إلى نحو قولنا: يا أيها الرسول بلغ الدين وإن لم تبلغ الدين فما بلغت الدين»[١٦].

والعلّامة يرى أنَّ الرسالة التي هي مجموع الدين أو أصله ـ على تقدير نزول الآية في أول البعثة ـ أمرٌ واحدٌ غير مختلفٍ ولا متغيّرٍ حتى يصحّ أن يُقال إن لم تُبلغ هذه الرسالة فما بلغت تلك الرسالة، فإنَّ المفروض أنَّهُ أصل الرسالة التي هي مجموع المعارف الدينيّة. ثم يرتب على ذلك أنَّ الأمر الذي أُنزل على النبي محمد ' وأكّدت الآية على تبليغه ليس هو أصل الدين أو مجموعه و إنَّما هو بعض الدين فيصير المعنى: بلّغ الحكم الذي أُنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته؛ ويكون لازمُ هذا التقدير أن يكون المراد بالرسالة مجموع ما حمله الرسول ' من الدين ورسالته، وإلا فالمحذور السابق وهو لزوم اللغويّة في الكلام على حاله، اذ لو كان المراد بقوله ﴿رِسَالَتَهُ﴾ الرسالة الخاصّة بهذا الحكم كان المعنى: بلّغ هذا الحكم و إن لم تبلّغه فما بلّغته وهو لغوٌ ظاهرٌ.

فالمراد أن بلّغ هذا الحكم وإن لم تبلغه فما بلغت أصل رسالته أو مجموعها

وهو معنىً صحيح معقول(١٧).

أمّا الآلوسي فقد تقدَّم أنَّهُ ذهب إلى أنَّ المراد بـ ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هو جميع ما أُنزل كائناً ما كان، وهذا القول من الآلوسي وإن كان غامضاً في نفسه إلاّ أنَّ الذي يُفهم منه هو مجموع الدين، حيث إنَّهُ علَّل قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ قوله: «أي: فما أدّيت شيئاً من رسالته لما أنَّ بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض، فإذا لم تؤدِّ بعضها فكأنَّك أغفلت أداءها جميعاً، كما إنَّ من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكُلِّها لأداء كُلٍّ منها بما يدليه غيرها»(١٨).

ثم إنَّ العلامة اعتبر أنَّ تقدير الحكم بحيث إنَّهُ لو لم يُبلّغ فكأنَّما لم يبلّغ أصل الرسالة؛ ذلك لأنَّ المعارف والأحكام الدينيّة مرتبطةٌ ببعضها البعض، بحيث لو أخلَّ بأمرٍ واحدٍ منها أخلَّ بجميعها وخاصّةً في التبليغ؛ لكمال الارتباط، فهذا التقدير في نفسه مما لا بأس به لكنَّ ذيل الآية لا يُلائمُهُ، قال: «فإن هذا الذيل: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ يكشف عن أنَّ قوماً كافرين من الناس همّوا بمخالفة هذا الحكم النازل، أو كان المُتَرَقَّبُ من حالهم أنَّهم سيخالفونه مخالفةً شديدةً ويتخذون أيَّ تدبيرٍ يستطيعون لإبطال هذه الدعوة وتركه سُدَىً لا يؤثر أثراً ولا ينفع شيئاً، وقد وعد الله رسوله أنَّهُ سوف يعصمه منهم، ويبطل مكرهم»(١٩).

إلى هنا ينتهي الكلام في تحديد المراد من قوله تعالى ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، غير أنَّ العلامة أراد ـ وحسب ما ذهب إليه في تفسير الآية ـ أن يقف على حقيقة ما يراد بـ «ما» الموصولة في الآية فقال: «فليس استلزام عدم تبليغ هذا الحكم لعدم تبليغ غيره من الأحكام إلا لمكان أهميته ووقوعه من الأحكام في موقعٍ لو أُهمل أمرُهُ لكان ذلك في الحقيقة إهمالاً لأمرِ سائرِ الأحكام، وتكونُ الآيةُ حينئذٍ كاشفةً عن أنَّ الله عزّ وجلّ كان قد أمر رسوله ' بحكمٍ يتمُّ به أمرُ الدين ويستوي به على عريشة القرار، وكان من المترقب أن يخالفه الناس

ويقلبوا الأمر عليه بحيث تنهدم أركانُ ما بناه من بنيان الدين، وكان يتفرَّس ذلك ويخافهم على دعوته فيُؤخر تبليغَهُ إلى حينٍ بعد حين ليجد له ظرفاً صالحاً وجواً آمناً عسى أن تنجح فيه دعوته».

وهذا التقليبُ للأمور إنَّما يتصوَّر بعد انتشار الدعوة الإسلاميّة، وبعد الهجرة واستقرار أمر الدين في المجتمع الإسلامي، والمسلمون فيهم الصلحاء المؤمنون وفيهم المنافقون، وآخرين في قلوبهم مرضٌ وهم كانوا يُعاملون النبي ' في عين أنَّهم آمنوا به واقعاً أو ظاهراً معاملةَ الملوك، ومع دين الله معاملة القوانين الوضعيّة القوميّة كما يُشْعِرُ بذلك طوائف من آيات الله.

فكان من الممكن أن يكون تبليغُ بعض الأحكام مما يوقع في الوهم انتفاعه ' بتشريعه وإجرائه يستوجب أنَّ يقع في قلوبهم أنَّهُ ملكٌ في صورة النبوة، وقانونٌ ملكيٌّ في صورة الدين، كما ربَّما وُجِدَ بعضُ شواهدِ ذلك في مطاوي كلمات بعضهم كما يذكر عن أبي سفيان في كلماتٍ قالها في مجلس عثمان حينما تمَّ له الأمرُ. وهذه شبهةٌ لو كانت حصلت هي أو ما يشابهها في قلوبهم ألقت إلى الدين من الفساد والضيعة ما لا يدفعه أيُّ قوَّةٍ دافعةٍ، ولا يصلحُهُ أيُّ تدبيرٍ مصلحٍ، فليس هذا الحكم النازل المأمور تبليغُهُ إلا حكماً فيه توهم النفع له ' واختصاصٌ له بمزيّةٍ من المزايا الحيويّة التي لا يشاركُهُ فيها غيرُهُ من سائر المسلمين، نظير ما في قصّة زيد، وتعدّد الأزواج، والاختصاص بخُمْس الغنائم، ونظائر ذلك. وكان النبي ' يخاف من إظهاره فأمرَهُ اللهُ تبليغَهُ وشدَّد فيه، ووعده العصمة من الناس وعدم هدايتم في كيدهم إن كادوا فيه»[٢٠].

إلى هنا انتهى العلامة مما رام إليه في تشخيص المراد من الاسم الموصول «ما» الوارد في الآية، وهو وإن كان سينتهي إلى القول بأنَّ الآية نزلت في تنصيب أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام إلا أنَّ الآلوسي لن يألُ جُهداً لإثبات خلاف ذلك

لعدة أسباب:

١. إنَّ الآلوسي ممن يرى صحّة بيعة أبي بكر وأنَّهُ هو الخليفة الأوّل بعد رسول الله ' بلا فصلٍ.

٢. إنَّ الآلوسي ممن يرى عدالة الصحابة وأنَّهم وفّوا بعهدهم على أكمل وجه.

٣. إنَّهُ ممن يرفض أحاديث الغدير وقصتها من رأس.

والمقدِّمات التي ذكرها العلامة تهدم كُلَّ هذا من الأساس، من هنا كان لهما أن يختلفا في النتائج التفسيريّة والأفكار التي تبتني عليها.

ولكن هل يمكن لنا استشفاف مدى صدق وموضوعيّة كُلٍّ منهما في الخضوع أمام الحق والحقائق التي صدح بها القرآنُ الكريمُ وجاءت بها الآثار الصحيحة؟!

في الواقع إنَّ هذا يحتاج ويفرض علينا الرجوع إلى المصادر الحديثيّة والتاريخيّة التي هي الفيصل في المقام، وقبل الولوج في ذلك يَحسُنُ بنا أن نذكر النتائج التي انتهى إليها كلٌّ منها.

أما الآلوسي فنتائجُهُ هي:

١- إنَّ الآية موضوعةٌ في سياقها الطبيعي.

٢ـ إنَّ المراد بـ«ما» هو مجموع الدين كائناً ما كان.

٣ـ إنَّ الآية لا ترتبط بواقعة الغدير؛ لأنَّ أخبار الغدير التي فيها الأمر بالاستخلاف غير صحيحة عند أهل السنة ولا مسلّمة لديهم أصلاً.

٤ـ إنَّ أحاديث واقعة الغدير على فرض ثبوتها فإنَّ كلمة «المولى» الواردة فيها لا تدلُّ على المُدَّعى باعتبار أنَّها تُفيدُ المحبة لا الأولى بالتصرف.

أما العلامة الطباطبائي فنتائجُهُ هي:

١ـ إنَّ الآية ليست في موضعها الطبيعي، بمعنى ليس لها ربط بما قبلها وما

بعدها.

٢ـ عدم إمكان أن يكون المراد بـ «ما» مجموع الدين أو أصله وإنَّما بعض أجزاء الدين.

٣ـ إنَّ الآية مرتبطةٌ بواقعة الغدير، بل إنَّ «ما» منحصرةٌ بالاستخلاف.

والسؤال هنا: من هو الذي جانب الحقّ والموضوعيّة في المقام؟.

قال العلامةُ:

«وردت النصوص من الفريقين أنَّ الآية نزلت في أمر ولاية عليٍّ عليه السلام، وأنَّ الله أمر بتبليغها، وكان النبي ' يخاف أن يتهموه في ابن عمه، ويؤخر تبليغها وقتاً إلى وقتٍ، حتى نزلت الآية فبلّغها بغدير خم، وقال فيه: من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه.

وكون ولاية الأمر مما لا غنى للدين عنه ظاهرٌ لا ستر عليه، وكيف يسوغ لمتوهمٍ أن يتوهم أنَّ الدين الذي يقرر بسعته لعامّة البشر في عامّة الأعصار والأقطار جميع ما يتعلَّق بالمعارف الأصليّة الخلقيّة والأحكام الفرعيّة العامّة لجميع حركات الإنسان وسكناته، فرادى ومجتمعين، على خلاف جميع القوانين العامّة، لا يحتاج إلى حافظٍ يحفظه حقَّ الحفظ!، أو أنَّ الأمَّة الإسلاميّة والمجتمع الديني مستثنيان من بين جميع المجتمعات الإنسانيّة مستغنيان عن والٍ يتولّى أمرهما ومُدَبِّرٍ يدبّرهما!...

وبأيّ عذرٍ يُمكنُ أن يعتذر إلى الباحث عن سيرة النبي ' الاجتماعيّة حيث إنَّهُ يرى أنَّهُ ' كان إذا خرج إلى غزوةٍ خَلَّفَ مكانَهُ رجلاً يُديرُ رحى المجتمع، وكان ينصب الحكّام والولاة في البلاد كمكّة، والطّائف، واليمن وغيرها... وأيُّ فرقٍ بين زمان حياته ' وما بعد مماته، بل إنَّ الحاجة بعد موته أشدّ»[٢١].

ثم يذكر العلامة بعض الرواة الذين رووا أحاديث الغدير، ويدفع

الإشكالات التي يُمكنُ أن ترد في المقام.

أمّا الآلوسي فقال:

«زعمت الشيعة أنَّ المراد بـ ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ خلافة عليٍّ [عليه السلام]، فقد رووا بأسانيدهم عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام أنَّ الله أوحى إلى نبيه ' أن يستخلف عليّاً [عليه السلام] وكان يخاف أن يشق ذلك على جماعةٍ من أصحابه فأنزل الله هذه الآية تشجيعاً له ' بما أُمر بأدائه.

وعن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عليٍّ حيث أمر سبحانه أن يخبر الناس بولايته، فتخوّف رسول الله ' أن يقولوا حابى ابن عمه، وأن يطعنوا في ذلك عليه، فأوحى الله تعالى اليه هذه الآية فقام بولايته يوم غدير خم، وأخذ بيده فقال ' : «**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه**».

ثم ذكر أنَّ هذا الحديث أخرجه السيوطي في «الدر المنثور» عن أبي حام وابن مردويه وابن عساكر راوين عن أبي سعيد الخدري، ثم قال:

«وخبرُ الغدير عمدة أدلتهم على خلافة الأمير[عليه السلام]، وقد زادوا فيه إتماماً لغرضهم زيادات منكرة، ووضعوا خلاله كلماتٍ مزوّرة، ونظموا في ذلك الأشعار، وطعنوا على الصحابة أنّهم خالفوا نصّ النبي المختار ' »، ثم ذكر قصيدة السيّد الحميري التي نظمها في تلك الحادثة وقال: «وأنت تعلم أنَّ أخبار الغدير التي فيها الأمرُ بالاستخلاف غير صحيحةٍ عند أهل السنة ولا مسلمة لديهم أصلاً، والشيخان لم يرويا خبرَ الغدير في صحيحهما لعدم وجدانهما له على شرطيهما. وزعمت الشيعة أنَّ ذلك لقصورٍ وعصبيّةٍ فيهما، وحاشاهما من ذلك».

وكان قد ذكر قبلها أنَّ المتيقن بروايته هو النصّ الوارد عن الذهبي، أَنَّهُ ' قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»، وأمّا القول: «اللّهم وال من والاه» فزيادةٌ

قوّية الإسناد[٢٢]، ثمّ أشكل على الرواة والمحدثين بأنَّهم يروون كُلَّ غثٍ وثمين، ثم قال: «ووجه استدلال الشيعة بخبر «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه» أنَّ «المولى» بمعنى الأولى بالتصرف. وأولويّة التصرف عين الإمامة، ولا يخفى أن أوّل الغلط في هذا الاستدلال جعلهم المولى بمعنى الأولى[٢٣]. وقد أنكر ذلك أهلُ العربيّة قاطبةً، بل قالوا: لم يجئ مفعل بمعنى أفعل أصلاً، ولم يُجَوِّز ذلك إلا أبو زيد اللغوي مُتمسِّكاً بقول أبي عبيدة في تفسير قوله تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَـٰكُمْ﴾ أي أولى بكم.

وَرَدَّ بأَنَّهُ يلزم عليه صحّة قولنا «فلان مولى من فلان»، كما يصح «فلان أولى من فلان»، واللازم باطلٌ فالملزوم مثلُهُ، وتفسيرُ أبي عبيدة بيانٌ لحاصل المعنى يعني: النارُ مقرّكم ومصيركم والموضع اللائقُ بكم، وليس نصاً في أنَّ لفظ المولى بمعنى الأولى»[٢٤].

والثاني: أنَّا لو سلَّمنا أنَّ المولى بمعنى الأولى لا يلزم أن يكون صلته بالتصرف، بل يحتمل أن يكون المراد أولى بالمحبة وأولى بالتعظيم ونحو ذلك.

ثم يتابع الآلوسي قوله فيذكر قرينتين على ما ذهب اليه:

الأولى: ما رواه عن محمد بن اسحاق في شكوى الذين كانوا مع علي عليه السلام في اليمن كبريدة الأسلمي وخالد بن الوليد وغيرهما، ولم يمنع ' الشاكين بخصوصهم مبالغةً في طلب موالاته وتلطفاً في الدعوة إليها كما هو غالب شأنه ' في مثل ذلك. وللتلطف المذكور افتتح الخطبة بقوله: «**ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم**».

الثانية: قوله ' على ما في بعض الروايات: «**اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه**»، فإنَّهُ لو كان المراد من المولى المتصرف في الأمور أو الأولى بالتصرف لقال ' : اللّهم والِ من كان في تصرفه وعادِ من لم يكن كذلك، فحيث ذكر ' المحبة والعداوة فقد نبّه على أنَّ المقصود إيجاب محبته[عليه السلام]، والتحذير

عن عداوته وبغضه لا التصرف وعدمه، ولو كان المراد الخلافة لصرّح بها»[٢٥].

ثم ذكر حديثاً عن الحسن المثنى بن الحسن السبط عليه السلام أَنَّهُ سألوه عن هذا الخبر هل هو نصّ على خلافة الأمير فقال: لو كان النبي ' أراد خلافته لقال: أيها الناس هذا ولي أمري والقائم عليكم بعدي فاسمعوا واطيعوا، ثم قال الحسن: اقسم بالله سبحانه إنَّ الله ورسوله ' لو آثرا علياً لأجل هذا الأمر ولم يُقَدّم علياً [عليه السلام] لكان أعظم الناس خطأً.

ثم قال: «وأيضاً ربما يستدل على «أنَّ المراد بالآية المحبة» بأَنَّهُ لم يقع التقييد بلفظ بعدي، والظاهر اجتماع الولايتين في زمانٍ واحدٍ، ولا يتصوَّر الاجتماع على تقدير أن يكون المراد أولويّة التصرف بخلاف ما إذا كان المحبة».

ثم وفي نهاية كلامه قال: «وقال بعض أصحابنا على سبيل التنزل: إنَّ الآية على خبر ابن مسعود وكذا خبر الغدير على الرواية المشهورة على تقدير دلالتهما على أنَّ المراد الأولى بالتصرف لا بُدَّ أن يُقيّدا بما يدلّ على ذلك في الحال، وحينئذٍ فمرحباً بالوفاق لأنَّ أهل السنة قائلون بذلك حين إمامته، ووجهة تخصيص الأمير بالذكر ما علمه['] بالوحي من وقوع الفساد والبغي في زمن خلافته، وإنكار بعض الناس لإمامته الحقّة وكون ذلك بعد الوفاة بلا فصل مما لا دليل عليه ... إلى آخر ما ذكره».

واحكم بنفسك أنت أخي القارئ على هذا!!

ولا يهمنا ما ذهب إليه ولا الاختلاف بينه وبين العلامة طالما أنَّ كلاً منهما له مبانيه وعقائده التي لا يتخلّى عنهما، لكن هناك ـ من باب المثال لا الحصر ـ أمران مستغربان قد ذكرهما:

ـ قوله: «إنَّ أحاديث الغدير التي فيها الأمر بالاستخلاف غير صحيحة عند أهل السنَّة ولا مسلّمة لديهم أصلاً».

ـ وقوله: «إنَّ الحديث على فرض صحته لا يدل على الخلافة؛ لأنَّ المولى لا

تأتي بمعنى الأولى، وهي إن أتت فهي تدلّ على المحبة والنصرة».

والأعجب من ذلك ما قال في آخر كلامه من أنَّ الحديث على فرض صحته ودلالته على ما تذهب إليه الشيعة فهو يدل على ولايته عليه السلام زمن خلافته بعد عثمان، وهذا ينبيك عن تمحّلٍ في تأويلٍ فيه ما فيه، مع أنَّ الدلالة لو تمَّت كما افترض فلا حاجة لتأويلها؛ لأنَّها ظاهرةٌ بلا فصل بعده؛ إذ لا يعقل أن تكون كلمةُ (من بعدي) أي: من بعد خلافة عثمان لما علمته من الوحي أن ستكون هناك محن وستشكّون في ولاية عليّ فاعلموا أنَّ ولايته حقٌّ فاسمعوا له وأطيعوه!!!

والبحث وإنْ كان لم يعقد لأجل النقاش في رأي هذا أو ذاك إلا أنَّ المقام يستدعي ذكر أمورٍ:

أمّا قوله: «إنَّ أحاديث الغدير ليست بصحيحةٍ عند أهل السنَّة»، فهو غيرُ صحيحٍ وافتراءٌ على العلماء الكبار الذين رووا الحديث، ومنهم الذهبي الذي استدلّ هو نفسُهُ بكلامه قبل قليل، وذكر فيه أنَّ عبارة «اللّهم والِ من والاه وعادِ من عاداه» زيادةٌ قويّةُ الإسناد. وإليك نبذةٌ من الكتب التي خَرَّجت حديث الغدير:

١ـ المعجم الكبير للطبراني.

٢ـ مجمع الزوائد للهيثمي.

٣ـ تاريخ دمشق لابن عساكر.

٤ـ كنز العمال للمتقي الهندي.

٥ـ نوادر الأصول للحكيم الترمذي[٢٦].

٦ـ نزل الأبرار للبدخشي.

٧ـ ينابيع المودة للقندزوزي الحنفي.

٨ـ الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي.

٩ـ الخصائص للنسائي.

وغيرها الكثير من المصادر، وقد استوفى علماؤنا الكلام في ذلك مفصلاً ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتاب الغدير للعلامة الأميني﵀، والمراجعات للسيّد شرف الدّين﵀، وتشييده للسيّد الميلاني، وغيره من الكتب التي تعرَّضت لذلك، غير أنَّنا نذكر هنا فقط بعض المصادر التي نصّت على أنَّ الخليفة عمر بن الخطاب قد قال لعليٍّ﵇ بعد ذلك «هنيئاً لك يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كُلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ»:

١ـ تاريخ دمشق لابن عساكر.

٢ـ المناقب للخوارزمي.

٣ـ مسند أحمد.

٤ـ الحاوي للفتاوى للسيوطي.

٥ـ ينابيع المودة للقندوزي.

٦ـ تاريخ الاسلام للذهبي.

وهنا نسأل ما هو السرّ لعدم صحتها عند أهل السنة يا ترى كما زعم ذلك الآلوسي؟!!!، مع أنَّهُ قد صرَّح بتواتره كُلٌّ من:

١ـ جلال الدين السيوطي الشافعي في كتابه الفوائد المتكاثرة.

٢ـ العلامة المناوي في كتابه التيسير.

٣ـ الملا علي القاري في كتابه المرقاة في شرح المشكاة.

٤ـ الحافظ الجزري في كتابه أسنى المطالب في مناقب علي بن أبي طالب[٢٧].

وقد ذكر السيّد عبد الحسين شرف الدين﵀ في مراجعاته أنَّ النواميس الطبيعية هي التي تقتضي تواتر حديث الغدير[٢٨]، وزاد﵀ في ذلك قصّة تدلُّ على تغلغل قضية الغدير في الوجدان الشعبي للناس، قال: «ومما يدلُّ على شيوع هذا الخبر وإذاعته ما أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن رياح بن

الحرث من طريقين إليه، قال: جاء رهطٌ إلى علي[عليه السلام] فقالوا: السلام عليك يا أمير المؤمنين، قال: كيف أكون مولاكم وأنتم قوم عرب؟ قالوا: سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم غدير خم يقول: من كنت مولاه فإن هذا مولاه، قال رياح: فلما مضوا تبعتهم فسألت من هؤلاء؟ قالوا: قومٌ من الأنصار فيهم أبو أيوب الأنصاري»[٢٩].

وقد شهد لعليٍّ عليه السلام بالحديث عدَّةٌ من الأعلام هم:

١ـ أبو أيوب بن عوف الأنصاري.

٢ـ أبو عمرة بن عمرو بن محصن الأنصاري.

٣ـ أبو فضالة الأنصاري.

٤ـ أبو قدامة الأنصاري.

٥ـ أبو ليلى الأنصاري.

٦ـ أبو هريرة.

٧ـ أبو الهيثم بن التيهان.

٨ـ أبو سعيد بن مالك الخدري.

وغيرهم كثيرٌ أنهاهم العلامة الأميني رحمه الله إلى أربعةٍ وعشرين، ثم ذكر شهوداً أُخر في مواضع أخرى[٣٠].

المناشدة والاحتجاج بالحديث

فقد ذكرت عدَّةٌ من المصادر أَنَّهُ قد احتج بحديث الغدير عدَّةُ أشخاصٍ، منهم[٣١]:

١ـ الإمام علي عليه السلام نفسُهُ يوم الشورى[٣٢]، أيام عثمان[٣٣]، يوم الجمل[٣٤]، يوم صفين[٣٥].

٢ـ السيدة الزهراء عليها السلام[٣٦].

٣ـ الإمام الحسن عليه السلام[٣٧].

٤ـ الإمام الحسين عليه السلام[٣٨].

٥ـ عبد الله بن جعفر على معاوية[٣٩].

٦ـ عمرو بن العاص على معاوية[٤٠].

٧ـ درامية الحجونيّة على معاوية[٤١].

٨ـ عمر بن عبد العزيز[٤٢].

٩ـ المأمون على الفقهاء[٤٣].

وهناك أشخاصٌ أصابتهم دعوة أمير المؤمنين عليه السلام لعدم شهادتهم له منهم:

١ـ أنس بن مالك، حيث أصيب بالبرص[٤٤].

٢ـ البراء بن عازب، فقد عمي[٤٥].

٣ـ زيد بن أرقم، عمي أيضاً[٤٦].

وقد زاد العلامة الأميني رحمه الله يزيد بن وديعة وعبد الرحمن بن مدلج[٤٧].

وكيف يسمح الآلوسي ـ بعد هذا ـ لنفسه بالقول: إنَّ أحاديث الغدير ليست صحيحةً ولا مسلمةً عند أهل السنَّة!!

وأما قوله: «إنَّ كلمة مولى لا تأتي بمعنى أولى» غير صحيح؛ لأنَّ أبا عبيدة ـ وهو من أئمة اللغة العربيّة ـ وغيره من اللغويين والمفسرين قد فسروا المولى بمعنى الأولى في قوله تعالى: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾، وما أورده من إشكالٍ بأنَّ المعنى المراد من قول أبي عبيدة أنَّهُ في مقام بيان حاصل المعنى أيّ: النار هي الموضع اللائق بكم، لا يضر لأنَّنا نقول فليكن هنا كذلك أيضاً[٤٨].

فإن قلت: إنَّ كلمة المولى تأتي بمعاني مختلفة، وقد ذكرت لها في القرآن عدَّة معاني[٤٩]، فما المرجح لحمل اللفظ هنا على معنى الأولى بالتصرف؟

قلت: صحيحٌ؛ ولذلك يجب النظر إلى القرائن التي تحدِّد لنا المعنى، وهي ليست خفية هنا، منها عقليّة ومنها لفظيّة، فالعقليّة هي ما أحاط بهذه الحادثة من أجواء، فقد أوقف النبي ' الحجيج في وسط أرضٍ قاحلةٍ تحت نار

الشمس ولهيب الهجير[٥٠]، فلا يعقل عندها أن يكون المراد هو أنَّهُ يريد أن يقول للمسلمين إنَّهُ يحب عليّاً فمن كان يحبه فليحب علياً!!!!.

وثانياً: إنَّ السياق يوضّح الكثير من التشريعات الخاصّة التي تدلّ على ولاية التصرف؛ ولا وجه لتجرد هذه الفقرة عن باقي أخواتها، إلا بدليل وهو غير موجود هنا.

وأما اللفظيّة فإنَّ النبي ' قال في مفتتح كلامه «**ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم**»، فإنَّهُ لا معنى لكون المراد به المحبة كما هو واضح[٥١].

فضلاً عن أنَّنا لا نريد إثبات معنى كلمة مولى لغةً ووضعاً، وأنَّها تأتي بمعنى أولى أو لا؟، وإنَّما نريد إثبات المعنى الذي استعملت فيه في هذا النص، من هنا فمهما يكن معنى كلمة مولى في اللغة العربيّة فالمراد بها قطعاً هنا هو معنى الأولى، وهذا استعمالٌ صحيحٌ ورد مثلُهُ في القرآن، وقد تفطّن لذلك السيّد السبزواري في تفسيره فقال: «إنَّ من يفسّر المولى بالأولى بالتصرف، لم يرد أنَّهُ اسم تفضيل حتى يستشكل عليه بأنَّهُ يقال: هو أولى من كذا ولا يقال مولى من كذا، بل أراد التفسير بقرينة صدر الحديث «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم» الدال على أنَّ المراد هو الأولى بالتصرف».

ثم يتابع ويقول: «والاستشهاد ببعض الأمور لإثبات غير ذلك إنَّما يكون بعد إجمال الحديث والمفروض عدمُهُ»[٥٢].

وقد أخرج كثيرٌ من علماء السنَّة رواياتٍ عن النبي ' تبدو وكأنَّها شرحٌ لهذه القضية منها:

ما ذكره القرشي في شمس العارفين نقلاً عن سلوة العارفين للحسين بن إسماعيل الجرجاني بإسناده عن النبي ' أنَّهُ سئل ما معنى «**من كنت مولاه فعلي مولاه**» ؟ قال ' : «**الله أولى بي من نفسي لا أمر لي معه، وأنا مولى المؤمنين أولى بهم من أنفسهم لا أمر لهم معي، ومن كنت مولاه أولى به من نفسه**

لا أمر له معي فعليٌّ مولاه أولى به من نفسه لا أمر له معه»[٥٣].

ولا نريد أن نثبت أكثر من هذا.

وأما قوله «إنَّ الحديث على فرض صحته لا يدلُّ على الإمرة الفوريّة وإنَّما المآليّة»، بمعنى أنه عليه السلام هو مولى المؤمنين بعد عثمان، لما علمه ' بالوحي من أنَّهُ ستكون هناك أنباءٌ وهنبثةٌ في عهده عليه السلام، فهذا غيرُ صحيحٍ لأمرين أيضاً:

الأوّل: أنَّ الناس ازدحموا حوله عليه السلام يريدون بيعته وتأييده، حتى قال عليه السلام: «**فما راعني إلا والناس عليّ كعرف الضّبع إليّ ينثالون عليّ من كُلِّ جانبٍ حتى لقد وُجِئ الحسنان، وشُقّ عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم**»[٥٤].

الثاني: إنَّ طائفةً من المحدثين الذين مرّت أسماؤهم قبلُ قد ذكروا أنَّ عمر قد قال له عليه السلام: «**أمسيت يا ابن أبي طالب مولى كُلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ**»، فصرّح بأنَّهُ مولى كُلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ على سبيل الاستغراق[٥٥]. وقد قيل لعمر بعدها: «إنَّك تصنع لعليٍّ شيئاً لا تصنعه بأحدٍ من أصحاب النبي ' ، فقال: «إنَّهُ مولاي»، فصرَّح بأنَّهُ مولاه ولم يكونوا حينئذٍ قد اختاروه للخلافة ولا بايعوه بها[٥٦].

والإطالةُ في تتبع سقطات الآلوسي في البحث العلمي ليست بالأمر المستحسن بعدما تبيّن مجانبته للحق ومكابرته وامتهانه أفهام الناس والعلماء، وحسناً فعل العلامة الأميني رحمه الله حيث ختم البحث بقوله تعالى:

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾[٥٧].

والحمد لله رب العالمين...

* * *

الهوامش:

(١) حيث إن النبيﷺ قد جمع عشريته وهم أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون وفيهم أعمامه أبو طالب وأبو لهب وحمزة والعباس، والحديث أخرجه كبار الحفّاظ والمحدثين وقال النبيﷺ في آخره لعليعليه السلام:«إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعو». راجع: تاريخ الطبري، الكامل في التاريخ، شرح النهج لابن أبي الحديد، السيرة الحلبيّة، كنز العمال، مسند أحمد، شواهد التنزيل، تاريخ دمشق.

(٢) راجع: المستدرك للحاكم وصححه على شرط الشيخين, الصواعق المحرقة، تاريخ دمشق خصائص النسائي، نظم درر السمطين, والكثير من المصادر الأخرى.

(٣) مسند أحمد، الدر المنثور للسيوطي، ينابيع المودّة للقندوزي، مجمع الزوائد وغيره.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي، صحيح الترمذي، مسند أحمد، المستدرك، تلخيص المستدرك للذهبي، الخصائص للنسائي، و...

(٥) الصواعق المحرقة، المستدرك للحاكم، الأوسط للطبراني، الأربعون حديثاً للنبهاني، وكنز العمال, و...

(٦) صرح بصحته غيرُ واحدٍ من الأعلام، حتى اعترف بصحته ابن حجر في الصواعق إذ أورده نقلاً عن الطبراني وغيره، وسنذكر أكثر المصادر بالتفصيل في ثنايا البحث.

(٧) المائدة: ٦٧.

(٨) ذكر الفخر الرازي في تفسيره أن المفسرين قد ذكروا وجوهاً في نزولها:

* أنها نزلت في قصة الرجم والقصاص.
* في عيب اليهود واستهزائهم بالدين، والنبيﷺ سكت عنهم.
* عند خوفه من تخيير زوجاتهﷺ عندما نزلت آية التخيير﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾, فخافﷺ عليهن من اختيار الدنيا.
* في أمر زيدٍ وزوجته.
* قد كان أحياناًﷺ يمسك عن حث المنافقين إلى الجهاد فنزلت.
* عندما نزلت آية ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾ أمسك الرسولﷺ عن عيب آلهتهم فنزلت الآية.
* أنها نزلت في حقوق المسلمين.
* في قصة الأعرابي الذي نهب سيف الرسول ﷺ وهو نائمٌ فنزلت هذه الآية وبين أن ﴿الله يعصمك من الناس﴾.
* أنهُ ﷺ كان يهاب اليهود وقريشاً فنزلت.

* نزلت في فضل علي بن أبي طالب عليه السلام، ولما نزلت أخذ بيده وقال: «من كنت مـولاه فعلـي مولاه ...»، فلقيه عمر فقال له: «هنيئاً لك يا ابن أبي طالب أصـبحت مـولاي ومـولى كُـلّ مؤمنٍ ومؤمنة». وقد صرّح العلامة الأميني في غديره أن الاحتمالات التسعة الأولى مروية بأسانيد مرسلة مقطوعة البطلان فلا حاجة للغوص أكثر في استعراضها والرد عليها.

(٩) آيات الغدير.

(١٠) روح المعاني: ج٦/٥, ص ٤٨٦.

(١١) الميزان: ج٦, ص ٤٢.

(١٢) روح المعاني: ص ٥٠٠.

(١٣) الأحزاب: ٣٩.

(١٤) الميزان: ج٦, ص ٤٤.

(١٥) الميزان: ج٦, ص ٤٥.

(١٦) الميزان: ج٦, ص ٤٤.

(١٧) الميزان: ج٦, ص ٤٦.

(١٨) روح المعاني: ج٦, ص ٤٦.

(١٩) الميزان: ج٦, ص ٤٦.

(٢٠) الميزان: ج٦, ص ٤٦ ـ ٤٨.

(٢١) الميزان: ج٦, ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٢٢) وهل نحتاج لشارح حديثٍ كي يفهم الآلوسي ما معنى قوية الإسناد!!

(٢٣) روح المعاني في ذيل تفسير الآية.

(٢٤) يا سبحان الله ولنا أن نسال الآلوسي لما لا يكون هنا المعنى هو بيان حاصل المعنى؟؟؟

(٢٥) المصدر نفسُهُ.

(٢٦) والملاحظ أن الحديث حُذف من الكتاب وأشير إليه إشارة عابرة, غير أن البدخشي قد نقله عنه كاملاً في كتابه نزل الأبرار «حاشية المراجعات».

(٢٧) حاشية المراجعات في ذيل الحديث.

(٢٨) المراجعات: ص ٣٧٤.

(٢٩) المراجعات: ص ٤٠١.

(٣٠) الغدير: ج١, ص ١٨٤.

(٣١) الغدير: ج١.

(٣٢) ذكر ذلك الخطيب الخوارزمي الحنفي في مناقبه، والحمـويني فـي فرائـد السـمطين، ونقـل بعض فصوله ابن حجر في الصواعق.

(٣٣) فرائد السمطين.

(٣٤)المستدرك للحسكاني، مروج الذهب للمسعودي، المناقب للخوارزمي.

(٣٥) سليم بن قيس في كتابه، وهو وإن كان شيعياً إلا أنهُ وثقه وروى عنه جملةٌ مـن الـرواة هـم: الحاكم الحسكاني، المسعودي، الإمام الحمويني، ابن شهاب الهمداني، القندوزي الحنفي.

(٣٦) أسنى المطالب للعلامة الشافعي، ونصّ الحديث رائعٌ جداً ذكره العلامة الأميني في الغدير.

(٣٧) القندوزي في ينابيع المودة، وقد أخرجه الحافظ الكبير أبو العباس ابن عقدة.

(٣٨) سُليم بن قيس في كتابه.

(٣٩) المصدر نفسُهُ.

(٤٠) الخوارزمي في المناقب

(٤١) الزمخشري في كتابه ربيع الأبرار.

(٤٢) حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم، أبو الفرج في الأغاني، إبن عساكر في تاريخـه، والحمـويني في فرائده.

(٤٣) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، إبن مسكويه في كتابه نديم الفريد.

(٤٤) مسند أحمد, والمعارف لابن قتيبة الدينوري، وشرح النهج لابن أبي الحديد.

(٤٥) إحقاق الحق نقلاً عن أرجح المطالب للآمر تسري، أنساب الأشراف للبلاذري.

(٤٦) مناقب علي بن أبي طالب لابن المغازلي الشافعي، شرح النهج لابن أبي الحديد.

(٤٧) الغدير: ج١,ص١٩٢.

(٤٨) مواهب الرحمن: ج١٢, ص٣٨.

(٤٩) كقوله تعالى ﴿هي مولاكم﴾ أي أولى بكم، وقوله ﴿يوم لا يغني مولى عن مـولى شـيئاً﴾ أي ناصر, و...

(٥٠) في تحديد عدد الناس خلاف إلا أن المُتيقن أنهم عشـرين ألـف أو يزيـدون، وهنـاك مـن ذهب إلى أنهم سبعين ألف ومنهم إلى أنهم تسعين.

(٥١) مواهب الرحمن: ج١٢, ص٣٧.

(٥٢) المصدر نفسُهُ: ص٣٩.

(٥٣) الغدير: ج١, ص٣٨٦.

(٥٤) نهج البلاغة حديث الشقشقيّة، وإنّما هو عن البيعة العامّة له بعد عثمان، لاعن يوم الغدير.

(٥٥) طبعاً في هذا الوجه ما فيه لأن الكلام هنا ليس في المدلول وإنما في الواقع الخارجي الـذي يتبعه الناس في عصره عليه السلام.

(٥٦) المراجعات: ص٤١٢.

(٥٧) الأنعام: ١٢٦.

شيخ المدينة الإمام عليّ بن الحسين ‘

قراءة في السلوكيّات

(القسم الثالث)

❐ السيّد أمين السعيدي (*)

تلخيص:

تكلّمنا فيما سبق ـ في الوقفة الأولى بعد التّمهيد لسيرة الإمام زين العابدين عليه السلام وتعريفه من حيث المولد والمنشأ والرّحيل، ومن حيث التّراجم وأقوال الرِّجاليِّين والأعلام والعلماء من العامّة فيه، وبعد بيان زاوية الكلام ومجال الحديث، وبعد الوقوف على الأسباب الدّاعية لطرح موضوع البحث ـ عن رؤية التّباين والتّناقض الّتي قد يصوّرها البعض تجاه سيرة الأئمّة الإثني عشر عليهم أفضل الصّلاة وأتمّ التّسليم، ضمن المجموع الكلِّي لسِيَرِهم التجزيئيّة والمقارنة فيما بينها.

كما أشرنا هناك إلى أنّ هذه الرّؤية نفسها كما تتوجّه للسِّيَر ككل بالمقارنة، كذلك تتوجّه للمجموع الكلِّي للسّيرة الواحدة من سِيَرِهم ^ بغضِّ النّظر

(*) باحث إسلاميّ/ السعوديّة.

عن الأخرى، مضافاً إلى أنّنا بيّنّا هناك شموليّة هذه الرّؤية لكلا الجنبتين (القياديّة السّياسيّة) و(التّشريعيّة الدِّينيّة) على حدٍّ سواء، ولا تستقل بالأولى دون الثّانية، فتناولنا الجنبة الأولى منوّهين لحاجة الجنبة الثّانية ـ على أهمّيّتها الفائقة ـ لقراءة مستقلّة ووقفة خاصّة أخرى.

أمّا في الجنبة الأولى فضرَبنا من خلالها العديد من الأمثلة لكلّ من الدّراستين؛ الدّراسة لكلّي سِيَر الأئمّة ^ بالمقارنة، والدّراسة لكلّي السّيرة الواحدة المفردة، والّتي اختصصناها ـ حسب موضوع المقام ـ بسيرة الإمام الرّابع من أئمّة أهل ^ ، علي بن الحسين، ومعالجتها وفق رؤية التّباين المطروحة.

كما استنبطنا واستعرضنا هناك الخطوط العامّة لسلوكيّات الأئمّة ^ المتغايرة.

بينما تناولنا هذه الرّؤية ـ في الوقفة الثّانية ـ بالمناقشة والتّحليل على ضوء المجموع الكُلِّي للسّيرة التّجزيئيّة للإمام علي بن الحسين ' ، حيث بيّنّا في ضمن ذلك نقطتين مهمَّتين؛ الأولى منهما كانت ترتبط ببيان منهجيّة التّقييم الصّحيح للحوادث التّأريخيّة وسلوكيّات الأفراد، والثّانية كانت ترتبط بتحليل وتقييم سيرة الإمامعليه السلام وفق هذه المنهجيَّة، حيث قسَّمنا قراءتنا لسيرته المباركة ـ حسب أبرز معالمها ـ إلى فترتين؛ الأولى منهما عنيت بمرحلة ما بين كربلاء والسّبي، والثّانية اختصّت بمرحلة ما بعد السّبي والرّجوع للمدينة.

بينما تكلَّمنا في هذه الثّانية عن خمس جهات، ثلاث جهات منها وقعت في ذلك المقال، وهي ما يلي:

الجهة الأولى: تكلّمنا فيها عن الغايات الفكريَّة لسلوكيّات الإمامعليه السلام في هذه المرحلة.

الجهة الثّانية: عمدنا من خلالها لقياس درجة التّطابق بين تلك الغايات والواقع العملي الّذي مارسه الإمام عليه السلام.

الجهة الثّالثة: تناولنا على إثرها الخيارات الأخرى ـ سابقة الذِّكر ـ المقابِلة لدور وسلوك الإمام عليه السلام في هذه المرحلة بالنّظر والفَرض والتّحليل، وتقييمها على أساس الأكثر موافقة وتناسقاً مع الواقع والمجريات القائمة آنذاك، وهذا ما عمدنا له في ضمن فرض الخيارات الخمسة المتبقّية، والّتي أيضاً وقع الحديث عن الخيار الأوّل منها كالتّالي:

ـ خيار السّيف ومنطق القوّة؛

وفيه دار الحديث عن شكلين من التّحرّك، وهما: ١- الحِراك الجمعي الواسع. ٢- الحِراك الفردي على غرار حركة أبيه الإمام الحسين عليه السلام.

وفيهما استعرضنا أحد عشر مانعاً على الفرض والشّكل الأوّل، وسبعة موانع على الفرض والشّكل الثّاني.

أمَّا في هذا المقال الثّالث ـ والأخير ـ من هذا الموضوع، فنريد أن نستكمل البحث في مرحلة ما بعد السّبي والرّجوع للمدينة من جهتها الثّالثة، لنتحدَّث عمّا أشرنا له من نقاط في نهاية ذلك المقال، حيث كانت الجهة الثّالثة تضع سؤالاً مفاده:

ألا يوجد هنالك فرضيّة أو طريقة أخرى أنفع وأبلغ للمقاصد من سلوك هذه المرحلة المذكور؟

وبعبارة ثانية: ألا يوجد واحد من السّلوكيّات والخطوط العامّة الخمسة الباقية المتقدّمة يكون العمل على طبقه في هذه المرحلة أجدَى وأكثر تناسقاً مع سلوك المرحلة السّابقة وما تلاها؟ خصوصاً وأنَّ الأمّة لتوّها آخذة في يقظتها، وحرارة دم الحسين عليه السلام لاتزال حديثة الأثر فيها، بما لذلك الدّم الزّكي من هيجان القسوة الواقعة من السّلطة على الجميع وقوّة عاطفيّة في النّفوس يتزايد

بها الغليل كلَّما اتّضحت معالم القسوة ووقائع كربلاء أكثر فأكثر في إعلامٍ مستمر ومتجدّد لا يجيء إلا بما هو مؤلم، ولا يفضي إلا للمطالبة بالحق وطلب النُّصرة؟!

فجاء الجواب على هذا التّساؤل المهم بأنّه يتّضح من خلال تناول كلّ سلوك من تلك السّلوكيّات وعرضها على تلك الظّروف لمعرفة مدَى تناسبها معها، وهل أنّها كانت أصلح وأوفَى بهذه المرحلة، أم أنَّ ما سلكه الإمام عليه السلام في هذه الفترة كان هو الأكثر تناسباً، بل والمتعيّن مِراسه من بين بقيّة الأدوار المقترَحة.

فتناولنا خيار السّيف والمواجهة بمنطق السِّلاح والقوّة، وفيما يلي نتناول الخيارات الأربعة الباقية بصورة شاملة بشيء من الفرض والنّظر، وذلك كالآتي:

خيار المعارَضة:

أمّا اتّخاذ دور المعارِض من قِبَل الإمام عليه السلام، فقد كان من أبرز ما هو متحقّق في شخصه على طول الفترة بما يحمله من تناسق وتوافق تام مع هذه المرحلة، تماماً كما كان حاله طوال مسيرته ليزيد في الشّام ومواقفه الثّابتة بما قدّم فيها من احتجاجات على النّاس وتبيين قرابته لرسول الله ' والآيات الواردة فيهم.

ثمَّ إن أجوبته الصّريحة الّتي كان يواجه بها النّاس، ومواقفه الّتي يصوغها في كلّ مناسبة تحمل ما يذكِّر بمصرع أبيه عليه السلام، كلّ ذلك دليل على استمراره في سلوك معارضته حتّى في فترة ما بعد كربلاء، فمثلاً عندما دخل عليه المنهال بن عمرو فسأله: «**كيف أصبحت يا ابن رسول الله؟ فقال: أصبحنا ـ والله ـ بمنزلة بني إسرائيل من آل فرعون يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، وأصبح خير البريّة بعد رسول الله ' يُلعن على المنابر، وأصبح من يحبّنا منقوصاً حقّه بحبِّه إيّانا**»[1]؛ فهذا الجواب ـ وأمثاله الكثير ـ إنّما يحمل مؤشّراً بَيِّناً على سلوكه عليه السلام

لهذا الطّريق في هذه الفترة أيضاً، بما يُبَيِّن حقيقة استمراره وفق منهجه السّابق في الفترة السّابقة.

وكذا موقفه تجاه رأس ابن زياد عندما أرسله إليه المختار الثّقفي في عهد عبد الملك بن مروان الّذي حكم بعد أبيه مروان بن الحَكَم من بعد معاوية بن يزيد بن معاوية من بعد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حَرْب، حيث أبدَى عليه السّلام في موقفه ما يؤكّد هذه الحقيقة، فقد نقل المؤرّخون الحدث كما يلي:

«ووَجَّه ـ أي المختار الثّقفي ـ برأس عُبيد الله بن زياد إلى علي بن الحسين إلى المدينة مع رجل من قومه، وقال له: قفْ بباب علي بن الحسين، فإذا رأيت أبوابه قد فتحت ودخل النّاس، فذاك الوقت الّذي يوضع فيه طعامه، فادخل إليه. فجاء الرّسول إلى باب علي بن الحسين، فلمّا فتحت أبوابه، ودخل النّاس للطّعام، نادَى بأعلى صوته: يا أهل بيت النّبوّة، ومعدن الرّسالة، ومهبط الملائكة، ومنزل الوحي! أنا رسول المختار بن أبي عُبيد معي رأس عُبيد الله بن زياد، فلم تبقَ في شيء من دور بني هاشم امرأة إلا صرخت، ودخل الرّسول، فأخرج الرّأس، فلمّا رآه علي بن الحسين قال: أَبْعَدَه الله إلى النّار»[٢]؛ فجسّد موقفه عليه السلام علامةً على مضيِّه في هذا السّلوك.

هذا، وما نقله المؤرّخون من حاله طوال حياته الّتي قضاها في الأسَى والألم والحزن على ما آلت إليه الأمّة والأمور في ذرّيّة رسول الله ' ، لا يعدو الشّهادة على هذا الواقع، فقد جاء في كتب التّأريخ:

«روَى بعضهم أنَّ علي بن الحسين لم يُرَ ضاحكاً يوماً قَط، منذ قُتِلَ أبوه، إلا في ذلك اليوم ـ أي يوم أن بُعِثَ إليه برأس ابن زياد لعنه الله ـ وأنّه كان له إبل تحمل الفاكهة من الشّام، فلمّا أُتي برأس عُبيد الله بن زياد أمر بتلك الفاكهة، ففرِّقتْ في أهل المدينة وامتشطت نساء آل رسول الله، واختضبن، وما امتشطت امرأة ولا اختضبت منذ قُتِل الحسين بن علي».

بل ودفنه للأجساد الطّاهرة في أحلك الظّروف بعد عَوْدِه من الشّام، وزيارته لتلك القبور بعد ذلك على رغم شدّة رقابة بني أميّة بالمستوَى الّذي كان فيه جابر بن عبد الله الأنصاري صحابي رسول الله ' يزور قبر الحسين عليه السلام والخوف وأشكال الإرهاب والتّخويف تحيط به، بما يدلّل على تشديد السُّلطة في المنع حتّى من زيارة قبر الحسين عليه السلام بعد رحيله، فزاره الإمام عليه السلام في زمرة من أهله بكلِّ إقدام، وأخذ فيها يشرح لجابر بكلِّ ألم ما قام به القوم من عدوان.

هذا وسنشير لاحقاً عند بيان الحقيقة الكاملة لسلوك هذه المرحلة إلى علائم أخَر مهمّة تؤكّد استمراره عليه السلام وفق هذا السّلوك، حيث سنبيِّن كيف أنَّ الإمام عليه السلام مضَى في معارضته من هذه الفترة وبطريق آخر فذٍّ دقيق وبارع بشكلٍ لم يسبق له نظير.

خيار المعاهَدة والصّلح:

أمّا المهادنة فكانت من أسوأ وأتعس الخيارات المطروحة، فهي خيار لا يتّخذه ـ في هذا الظرف ـ ضعيف الفهم فضلاً عن الإمام المعصوم أو المتّزن، فكيف للإمام أن يعاهد يزيد بن معاوية في ظلّ كلّ ما جرَى ويجري، وماذا سيُحدِث ذلك للدِّين والأمَّة من مكاسب؟!

بل على العكس، فالمهادنة هنا تعني إخماد كلّ أثر صنعه الحسين عليه السلام بجهاده وتضحياته، كما يعني إمضاء انحراف السّلطة الفادح، والوقوع في مفسدة ومذلّة عظيمة ستحار في تبريرها الأمّة.

فالحسين عليه السلام الّذي أبَى هذا الخيار مع يزيد بكل منعة، وضحَّى بكلِّ شيءٍ في سبيل عدم الإعطاء بيده إعطاء الذّليل له، بل والّذي كان أساس حركته يهدف لفضح مفاسده على الدّين والأمّة، كيف لابنه الإمام زين العابدين عليه السلام أن يغفل عن كلّ ذلك، ويدخل في خيار من هذا القَبيل؟!

أضف إليه ـ تبعاً ـ كونه عليه السلام في موقف المطالِب ليزيد بدم أبيه ومن قُتلوا معه، والمعارض لفسق هذا الفّاسق بما أكّده في خطابه له في مجلسه بالشّام وطوال مسيرته في السّبي.

إذن هذا الخيار فاسد أيضاً.

نعم؛ قد يقول قائل: إنَّ التّأريخ نقل لنا أنَّ علي بن الحسين ' بايع يزيد بن معاوية وعاهده وصالحه كما فعل ذلك الإمام الحسن بن علي ' من قَبلِه مع معاوية، فكيف يقال بأنّه لم يُقْدِم على مثل هذا الأمر، وكيف يُلغَى من بين الخيارات الوجيهة رغم كونه فِعل المعصوم المعتقَد بعصمته وأنّه لا يخطئ ـ ولو في خصوص تبليغ أمور الدِّين ـ عندكم؟! بل أزيد منه أنّه كان السّبب الأوّل في خضوع أهل المدينة، ونزولهم على بيعة يزيد بعد أن رفضوها، وامتنعوا عنها، وحاربوه وذهبت دماؤهم هدراً، اتّباعاً منهم إليه لّما رأوه قد قَبل بذلك وهو شيخ المدينة وابن رسول الله وواجهة بني هاشم!

جوابه: أنَّ النّص التّأريخي على تقدير صحّته، والتّسليم بوقوع هذا الحدَث، فإنَّ هذا الكلام لا يَرِد في المقام وليس دليلاً على معاهدته عليه السلام ليزيد، ونزوله بأهل المدينة على حُكمِه وفساده، فالنّص التّأريخي يقول:

«وَجَّه ـ أي يزيد بن معاوية ـ إلى مسلم بن عُقبة، فأقدَمه من فلسطين، وهو مريض، فأدخله منزله، ثمّ قَصَّ عليه القصّة ـ يعني رفض أهل الحجاز لولاته وعمّاله وبيعته ودفع الصّوافي من المحاصيل إليه.. ـ فقال: يا أمير المؤمنين! وجِّهْني إليهم، فوالله لأدعنَّ أسفلها أعلاها، يعني مدينة الرّسول، فوجَّهه في خمسة آلاف إلى المدينة، فأَوقَعَ بأهلها وقعة الحَرَّة ـ هي أرض ذات حجارة سود نخرة كأنّها أحرقت بالنّار ـ فقاتله أهل المدينة قتالاً شديداً، وخندقوا على المدينة، فرام ناحية من نواحي الخندق، فتعذّر ذلك عليه، فخدع مروان بعضهم ـ يعني بعض أهل المدينة ـ فدخل ومعه مئة فارس، فأتبعه الخيل حتَّى دخلت المدينة،

فلم يبقَ بها كثير أحد إلا قُتِل، وأباح حرم رسول الله، حتَّى ولدت الأبكار لا يُعرف مَن أولَدَهُن، ثمَّ أخذ النّاس على أن يبايعوا على أنّهم عبيد يزيد بن معاوية، فكان الرّجل من قريش يؤتَى به، فيقال: بايع آيةَ أنّك عبد قنّ ليزيد[٣]، فيقول: لا. فيضرب عنقه! فأتاه علي بن الحسين فقال: علام يريد يزيد أن أبايعك؟ قال: على أنّك أخ وابن عم. فقال: وإن أردت أن أبايعك على أنّي عبد قنّ، فعلتُ. فقال: ما أحشمك هذا، فلمّا أن رأَى النّاس إجابة علي بن الحسين قالوا: هذا ابن رسول الله بايعه على ما يريد، فبايعوه على ما أراد، وكان ذلك سنة ٦٢هـ»[٤].

والمبرِّر فيما نقول ـ بعد التّنـزّل لصحّة الخبر وفرض وقوعه ـ عدّة أمور منها:

١) أنَّ البيعة ليست صلحاً، وإن كانت بسعة مفهومها اللغوي تُعتبر معاهَدة، ويَصْدُق عليها ذلك.

٢) أنّ البيعة جاءت في ظرف الجبر والقتل، بل كانت مقرونة بشرط سحيق قائم على العبوديَّة الشّاملة للأب والأم، وكل بيعة تأتي بالإكراه والإجبار ليست ببيعة، وليس من عاقل يحكم عليها بأنّها عهد ومعاهَدة.

قد تقول: كانت على النّاس بالجبر، أمّا على علي بن الحسين فلم تكن كذلك، حيث جاء بنفسه وبايع بمحض إرادته كما هو واضح في الخَبَر.

وهذا أقلّ ما يجاب عليه هو أن يقال: بأنَّ أهل المدينة كانوا عبارة عن بني هاشم وغيرهم، وأنَّ الإمام لو لم يخرج لذلك فسيخرج بالقوّة، فليس حاله أفضل من حال أبيه الحسين الّذي أُجبِرَ على البيعة في المدينة، ثمّ في مكّة، ثمّ في العراق، فلمّا أَبَى قُتِلَ شرَّ قتلة، فمن قَتَلَ أهل المدينة وفعل ما فعل بفتياتها وعلمائها وقرّائها وحرمها، أكان سيرتدع عن رجل منها كان الألدّ خصاماً وعداءً له في الشّام وغير الشّام؟! وهل كان الطّاغوت يزيد الصَّلِف المتعجرف

الّذي أمر بقتل هذا الرّجل سلفاً سيرتدع عن قتله الآن، وقد تمكّن من قومه ومن المدينة؟!

كلا، بل إنَّ أوّل غدرة سيَغدر بها ستكون على أساس أنّه المحرِّك لمعارضة أهل المدينة، ممّا سيجعله أوّل من يلزم قطع رأسه قبل غيره، فيزيد لا يَعتبر بمن هذا، ولا بما هي منزلته، كيف ذاك وهو لم يقف عند حدٍّ في وقائع ما بعد المدينة ممّا أحدثَه في مكّة وحرم الله تعالى!

٣) إنَّ الإمام بوعيه وحِنكتِه بايع على شرط ولم يخلفه، وكان واقعيّاً في معاهدته وصادقاً في قوله وفعله، حيث سأل من مسلم بن عقبة الآخذ بالأعناق لبيعة مولاه: «**علام يريد يزيد أن أبايعك؟**».

فقال مسلم بن عقبة: «على أنّك أخ وابن عم».

فلو تأمّلنا جيّداً في هذا المقطع فلن نعدو عن الحق أنملة، فالإمام بايع على أنّه أخ وابن عم، وهذا أمر واقع لا خلاف فيه، ولم يبايع على أنّ يزيد بن معاوية أمير للمؤمنين وحاكم على المسلمين؛ فتفطَّنْ وافهمْ.

بل حتَّى قوله عليه السّلام مترقِّياً في إجابته:

«**وإن أردت أن أبايعك على أنّي عبد قنّ، فعلتُ**»، لا يدل على تنصيبه ليزيد والياً، فكلّنا عَبيد لله بآبائنا وأمّهاتنا، وأنا شخصيّاً أعاهد كلّ النّاس على أنّي وآبائي وذرّيّتي عبيد لربِّ العزّة جلَّ جلاله، فهل في هذا كلام ومقاصّة وعهد وبيعة ومصالحة ليزيد؟!

كلا؛ وهذا ـ والله ـ ليس تحويراً لمراد الإمام وظاهر كلامه، بل هو الأصل في البيان؛ لأنّنا نعرف موقفه من يزيد، ويجب أن نفسّر كلامه وفق مواقفه تجاهه، وواضح أنَّ مواقف الإمام عليه السلام كانت مضادّة ليزيد، والأصل أن نفسِّر كلام المتكلِّم وفق مواقفه لا على خلافها؛ فلا تجنّي فيما قلناه.

بل ومثل فعله عليه السلام ما فعله الحسين عليه السلام وعبد الله بن الزّبير مع يزيد ـ في الخبر الّذي ذَكرناه سابقاً ـ حينما «كَتَبَ إلى الوليد بن عُتبة بن أبي سفيان، وهو عامل المدينة: إذا أتاك كتابي هذا، فأحضر الحسين بن علي، وعبد الله بن الزّبير، فخذهما بالبيعة لي، فإن امتنعا فاضرب أعناقهما، وابعث لي برؤوسهما، وخذ النّاس بالبيعة، فمن امتنع فأنفذ فيه الحكم، وفي الحسين بن علي وعبد الله بن الزّبير، والسّلام. فورد الكتاب على الوليد ليلاً، فوَجَّه إلى الحسين وإلى عبد الله بن الزّبير، فأخبرهما الخبر، فقالا: نُصْبِح ونأتيك مع النّاس. فقال له مروان: إنّهما والله إن خرجا لم ترهما، فخذهما بأن يبايِعا، وإلا فاضرب أعناقهما. فقال: والله ما كنت لأقطع أرحامهما! فخرجا من عنده وتنحّيا من تحت ليلتهما، فخرج الحسين إلى مكّة...»[5].

فالحسين عليه السلام وعبد الله بن الزّبير قالا لوالي يزيد بأنَّ بيعتهما له ستكون صباحاً مع النّاس، فخرجا في نفس تلك الليلة من المدينة، ومع ذلك فهما لم يخلفا وعدهما له، وإنّما شرط البيعة هو الّذي تَخَلَّفَ ولم يقع؛ لذا تخلَّفت المبايعة؛ حيث لم يُصْبِحا، وبالتّالي لم يأتياه مع النّاس، إذ خرجا ليلاً قبل حلول الصّباح؛ أو نفْس أهل المدينة لمّا رفضوا مبايعة يزيد، لم يكن بإمكانهما أن يأتيا مع النّاس، فتخلَّف شرط كلامهما، لذا لم يقع إشكال فيه، خصوصاً وأنَّ الخبر يقول: «فإن امتنعا فاضربْ أعناقهما، وابعثْ لي برؤوسهما»، ولم يقُل: فاضربْ عنقاهما وابعثْ لي برأسيهما، وواضح أنَّ تعبيره بالجمع دون المثنَّى يشير لعلمه برفض النّاس لبيعته؛ فلاحظ.

٤) لو وسّعنا دائرة هذا الموقف لحكّام بني أميّة؛ فإنّنا نجد أنَّ الإمام عليه السلام قد ثبت على مبدئه في رفض كلّ ظالم منهم، فحكّام بنو أميّة هل كانوا يزيد وحده فقط؟!

كلا؛ فمن حكم الدّولة الإسلاميّة من بني أميّة كُثُر، ففي عهد الإمام زين العابدين عليه السلام الّذي تسلّم أمر الإمامة بعد أبيه الحسين فترة طويلة تقارب الـ ٣٤سنة ـ على أقلّ الرّوايات في تاريخ استشهاده عليه السلام ـ قد حكم المسلمين من بني أميّة ـ وفق ما بيّنّا ـ عدد كبير من أبناء هذه الشّجرة الملعونة، فبعد يزيد بن معاوية حكم ابنه أبو ليلَى معاوية بن يزيد المدفون بدمشق ـ وكان رجلاً صالحاً في سلوكه ورفضه ظلم أبيه وجدّه واعتزاله الحكم كما أشرنا سلفاً في أحد الهوامش من الحديث الماضي ـ ثمّ مروان بن الحكم ـ الّذي طرده عبد الله بن الزّبير من الحجاز فسار للشّام ونازع ابن الزّبير في البلاد ـ ثمَّ ابن مروان عبد الملك، ثمَّ أبناء عبد الملك وأوّلهم ابنه الوليد بن عبد الملك بن مروان، ثمَّ سليمان بن عبد الملك، ...، فالإمام عاصر جميع هؤلاء السّلاطين بل وأدرك شطراً من عهد عمر بن عبد العزيز، كما عاصر ولاتهم في المدينة وغيرها، فلم تكن حياته وإمامته مشغولة بيزيد بن معاوية فحسب، فهو طوال هذه الحقب المتعاقبة والحكومات المتتالية كان ثابتاً على مبدئه في رفض الظّالمين وحكومات الجور.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، نعلم أنَّ كلّ من جاء للسّلطة بعد يزيد من بني أميّة ما كان يقاس به في الظّلم والطّغيان والانحراف، حيث كان عهد يزيد أشدّ ما مرَّ على الأمّة وأوقعها في آلاف البلايا والمحن، وبالتّالي نستفيد أنّه لو كان الإمام عليه السلام راضياً بالبيعة ليزيد والنّزول بأهل المدينة على حكمه وولايته، رغم كونه أشدّ حكّام بني أميّة فسقاً وفساداً، لكان من الأَولَى أن يبايع غيره من حكّام هذه الطّائفة، ولمّا لم يبايع من هو أقلّ فساداً ولم يحمل المسلمين على ذلك، ثبت أنّه بريء من أي نسبة ـ بالرّضا ـ تُنسب إليه في ذلك تجاه يزيد بن معاوية.

فإن قيل: إنَّ نُصْح علي بن الحسين لحكّام بني أميّة وتوجيهه الرُّسُل برسائل الإرشاد والتّقويم لهم يدلّل على إقراره بالولاية لهم وإمضائه لحكومتهم ونزوله على بيعتهم، فمثلاً نجده في الخبر المعروف كيف يبيّن ليزيد بن معاوية طريق

التّوبة لمّا أرسل إليه يزيد يسأله عن السّبيل إلى ذلك، وكذا الحال في رسالته لعبد الملك بن مروان بن الحَكَم لـمّا أثنَى على فعله عندما طَلَب من واليه الحَجّاج بن يوسف الثّقفي وهو على المدينة أن يجنّبه دماء آل أبي طالب، فبشّره الإمام بأنَّ الله قد زاد له في مُلْكِه[٦].

فجوابه: أنَّ هذه المواقف لا دلالة فيها على ما ذُكِر، بل الأمر على العكس من ذلك تماماً، مضافاً إلى أنَّ الإمام عليه السلام ليس دوره في الأُمّة إلا الإصلاح والتّقويم، وهل للإمام وظيفة غير هذه؟

لا شك ليس له مهمّة في خَلْقِ الله سِواها، فإذا جاءه العاصي يَطلب منه النّصح والإرشاد إلى سبيل الله، فهو أولَى من غيره من العُصاة المنحرفين، ويزيد ـ الّذي لم يعتنق التّوبة واستمرَّ في عناده وفساده ـ طَلَبَ ذلك من الإمام وكان عليه من منطلق إمامته وواجباته وفرع الدِّين الآمر بالدّعوة للمعروف والنّهي عن المنكر بالحُسْنَى أن يجيبه بأحسن الجواب.

وأمّا كيف يدلِّل ذلك على العكس؛ فلأنَّ الإمام عليه السلام في نفس الخبر المذكور في شأن يزيد بن معاوية وطلبه للتّوبة سألته عمّته زينب بنت علي بن أبي طالب ^ عن استجابته لذلك، وقد فَعَلَ ما فعل بأبيه الحسين عليه السلام وعترة رسول الله والصّفوة من الصّالحِين؟!

فهذا التّساؤل من شخص كزينب عليها السلام القريبة من الإمام عليه السلام فيه بيان لحال الإمام في رفضه ليزيد وخلافته، وإلا لما حَقَّ لها أن توجِّه له سؤالاً من هذا القَبيل فيما لو كان ممّن قَبِلَ ببيعته وأقرَّ بحُكمِه، فليس بوجيهٍ أن يستفسر العاقل من الغير عمّا ينسجم مع عهد من عهوده، هذا فضلاً عن أنَّ الخبر غير معلوم التّأريخ، فقد يكون وقع قبل حادثة الحَرَّة وموقف مسلم بن عُقبة مع الإمام وقع بعدها.

وأمَّا دلالة ذلك على العكس فيما ذُكِرَ في شأن عبد الملك بن مروان، فتظهر في نفس قوله لواليه الحَجّاج بن يوسف في أن يجنّبه دماء آل أبي طالب، فلو كان بنو هاشم قد نزلوا على حكم بني أميّة لما قال ذلك فيهم، وهل الإمامعليه السلام إلا واجهة آل أبي طالب، وبيعته للحاكم تعني بيعتهم إليه؟ بل وفي قيام الإمام بالرّد على كلامه علامة بيّنة على ذلك.

ومن هنا يتّضح أيضاً ما قد يقال في أنَّ الإمام دفع أهل المدينة لقبول بيعة يزيد.

ثمَّ من قال أنَّ الإمام حمل أهل المدينة على البيعة؟ ومتَى كان مطاعاً فيهم ليذهبون لما ذهب إليه؟ فهل من الإنصاف أن يُعزل النّاس عن الإمامعليه السلام في كلّ الأمور الحسنة ويُنسبون إليه في الأمور السّيّئة ويُتعلَّل به في كل مشين؟ ما هذا بالعدل والإنصاف.

فالإمام ما كان مطاعاً بين القوم كما عرفت، وإن كان مكرَّماً في فئة خاصّة ومعتَبَر الإمامة عندهم آنذاك، مضافاً إلى أنّه بفعله هذا حمَى أهل المدينة، وإلا لأفناهم الحاقد عن بكرة أبيهم كما أفنَى الكثير من حفّاظ القرآن من هذه البقعة المباركة، وداس على الأعراض وانتهك شرف كل شريفة، لحتَّى قال الرّاوي في الخبر المذكور:

«فلم يبقَ بها كثير أحد إلا قُتِل، وأباح حرم رسول الله، حتَّى ولدت الأبكار لا يُعرف مَن أولدهن، ثمَّ أخذ النّاس على أن يبايعوا على أنّهم عبيد يزيد بن معاوية، فكان الرّجل من قريش يؤتَى به، فيقال: بايع آيةَ أنّك عبد قنّ ليزيد، فيقول: لا. فيضرب عنقه!».

هنا جاء الإمامعليه السلام ليحل هذه المعضلة الوخيمة، ففَعَلَ ما فَعَل، وحقن الدّماء، وإلا لم يبقَ من أهل المدينة مخلوق كما لم يبقَ من رِجال كربلاء ممّن مع الحسينعليه السلام رَجُل! فهل في هذا مصالحة أو شيء ممّا قد يُدَّعَى؟!

بل وكما أسبقنا، لو كان الإمام مطاعاً لسلك أهل مكّة سلوكه بعد أن ارتحل أزلام يزيد من المدينة وواقعة الحرَّة لمكّة المكرّمة ففعلوا بها وبأهلها ما فعلوا، فلا أهل الحجاز كانوا على رأيه كما لم يكن أهل العراق على رأيه، فليس هذا إلا بَرهنة على أنَّ البيعة ـ على فرض وقوعها ـ قد حصلت في ظرف الجبر والقتل والتّرهيب، والضّرورات تقدَّر بقدرها.

ولَعَمْري أي طاعةٍ تلك الّتي كانت للإمامعليه السلام والجمع كان حول عبد الله بن الزّبير الّذي نصب نفسه للخلافة، وبايعه النّاس، وامتدّت سلطته في الأرجاء، وراح يُحْدِث بدعاً في الحج وأموراً جديدة في الكعبة يوم بناها بعد هدمها، فما أنكرت عليه النّاس، بل استنّت بسنّته الحادثة، والّذي أخذ يتبجّح بظلم بني هاشم، وسبّهم، والتّنكيل بهم في كل مكان فلا يردعه أحد.

وهل للنّاس إلا أن تلتف جموعهم إلا حول أمثال ابن الزّبير الّذي لو كانت له القدرة على طحن بني هاشم والنّقمة من علي بن أبي طالب لطحنهم طحناً وأبادهم شرَّ إبادة؟ فالقاعدة كانت: «اطعنْ ونَكِّل بأهل البيت وبني هاشم ومجِّد أعداءهم تَسُد»، تماماً كما هو حال الأمّة اليوم القائمة فيها كرامة المسلم على الرّضا عن يزيد والتّرضّي عنه هو ومَن قبْله ومَن بعده من الظّالمين، وعلى الإساءة لقرابة رسول ربِّ العالمين!

فإن قيل: كيف لم يكن الإمام مطاعاً بين القوم، وكانت خلافة عبد الله بن الزّبير تضيّق عليه في تحقيق أهدافه في حين أنَّ القصيدة الفرزدقيّة المعروفة خير شاهدٍ على خلاف ذلك، فالفرزدق لمّا ألقَى أبياته المشهورة في الإمامعليه السلام، لم يلقِها في حظيرة من حظائر الأعراب، أو في زاوية من صحراء الحجاز، أو في موقف عابر، وإنّما ألقاها في مكَّة، وفي موسم الحج واكتظاظ النّاس، خصوصاً في تلك السّنة الّتي انهالوا فيها بكثافة كبيرة على الحَج، وخصوصاً أهل الشّام بعد أن منعهم ابن الزّبير عن ذلك. وفي حضرة أحد سلاطين الدّولة الإسلاميّة

وممثِّل حاكمها، وفي حالة كانت الصّفوف تُشَق فيها للإمام في كل شوط يدوره حول الكعبة فيَستلِم الحَجَر!

قلنا: ـ مضافاً لما قدّمناه من براهين وأدلّة في دفع ذلك عند الكلام عن المانع الثّالث من موانع السّير وفق منطق السّيف والقوَّة ـ إنَّ هذا الكلام صحيح؛ ولكّنه أَغفلَ نقطة مهمّة، هي الّتي جعلته يقع في هذا التّساؤل والاشتباه، وذلك لأنَّ هذه الحادثة لم تقع في أيّام عبد الله بن الزّبير وخلافته أساساً، وإنّما وقعت بعد مقتله، وقضاء بني أُميّة عليه.

هذا أوّلاً، وثانياً: إنَّ الفرزدق لـمّا قال أبياته في الإمامعليه السلام واكب ذلك الفترة الحرجة الّتي كان يمر فيها مُلْك بني أُميّة، بعد رسوخ انحرافهم في أذهان النّاس عَقيب ممارسات طويلة واستئثار بالخلافة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى واكب ذلك الفترة الّتي بان فيها أمر الإمام زين العابدينعليه السلام للجميع، وقد بلغ من عمره الشّريف مرحلة متقدِّمة مليئة بالجهاد والاعتدال والعلم والتّضحية.

ومن جهة ثالثة، كانت حيرة النّاس، ومقتل ابن الزّبير في المدينة، وظهور فساد الأسرة الحاكمة، وإدراك الأمّة لمكانة الإمامعليه السلام، كلّ ذلك كان يدفع بالنّاس لمثل هذه الأفعال، تماماً كما كان أمر النّاس مع جدّه الإمام عليعليه السلام بعد إقصائهم له عن حقّه ثمَّ إلزامهم له بقَبول ذلك الحق والتفافهم حوله، ولهذا نجد هشام بن عبد الملك أنكر معرفته للإمامعليه السلام! مع أنّنا لا نقبل إنكاره هذا بتاتاً، كيف؟! وهو العارف به، بل والأعرف به من بين الجميع، وقد شهد على ذلك بنفسه.

فإنكار هشام بن عبد الملك لمعرفته بالإمامعليه السلام إنّما جاء في صدد ردّه على سؤال السّائل عنه حسب ما هي عليه أكثر المرويّات التّأريخيّة، فضلاً عن أنَّ المرويّات كلّها تشير ضمناً أو صراحةً بأنّه تساءل بنفسه عن ذلك الرّجل الّذي

فتحت النّاس له الطّريق في الزّحام المشتد ليستلم الحَجَر المبارك، فالأخبار تبيّن أنَّ الـمُسَاءَلة كانت هكذا:

رجل يَسأل هِشاماً، ثمَّ هشام يَسأل ناكراً لمعرفته بالإمام، فأجاب أبو فراس المعروف بالفرزدق، أو لا أَقَل هشام ـ حسب صراحة الرّوايات الّتي صَرَّحَت ـ يَسأل فأجابه الفرزدق، فعلَى كلا التّقديرين كان هِشام ينكر معرفته بالإمام، رغم معرفته الكاملة به، كما بَيَّن المؤرِّخون كابن عساكر وغيره، وهذا يكشف لنا عن حقيقة ما قلناه، حيث كان القلق يساور بني أُميّة تجاه النّاس وتعلّقهم بالإمامعليه السلام في تلك الفترة، فجاء الإنكار بهدف صرف النّاس عنهعليه السلام والتّقليل من شأنه ـ خصوصاً وأنَّ السّائل ـ حسب الرّوايات القائلة بوجود سائل يسأل من هِشام ـ كان شاميّاً، وكان الشّاميّون بأعداد كبيرة في تلك الحجّة ذلك الصّرف الهجين الّذي هو بمثابة مناطَحة الضّعيف لجبلٍ من الجبال الشّاهقة، فالنّاس تفرج صفوفها لرجلٍ سماطَين إفراجاً عجيباً باهراً، ثمَّ تروم لصرفهم عنه بإنكار معرفته؟!

وإن كان ـ في الواقع ـ فعل النّاس في هذه الحادثة في الحَج كان تعاطفيّاً واحتراماً له ولنَسبهعليه السلام بدرجةٍ ما، وليقوم بأداء مناسكه وعبادته على أتم وجه كفقيه عالم عابد من ذرّيّة الطّاهرين ـ تماماً كما نرَى في تعامل النّاس عادةً مع العلماء والسّالكين ـ لا لأنّه قائد للأمّة؛ بدليل أنَّ النّاس ما كانت تنزل على أمره حسب ما نحن في صدد إثباته من البراهين والأدلّة.

قد يقال: لكن الحادثة وقعت في زمن عبد الملك بن مروان الّذي عاصر حُكمه حُكم عبد الله بن الزّبير، وكان هو القاتل لعبد الله بن الزّبير عن طريق واليه الحَجّاج بن يوسف الثّقفي، ممّا يوجِد لدينا احتمالاً بوقوع ذلك قبل مقتل ابن الزّبير، وبالتّالي هذا ينفي عدم حيازة الإمام لطاعة النّاس له في تلك الفترة، وقد صَدَرَ منهم موقف غير عابرٍ من هذا القَبيل.

وردّه: أنَّ الرّوايات التّأريخيّة تقول بأنَّ الواقعة حصلت في زمن خلافة عبد الملك بن مروان ـ الّذي حكم بعد أبيه مروان بن الحَكَم مباشرة ـ مع هِشام، كما أنَّ هناك روايات تأريخيّة تقول بأنَّ الواقعة حصلت مع هِشام في زمن خلافة الوليد بن عبد الملك الّذي حَكَم بعد أخيه عبد الملك بن مروان مباشرة، كما أنَّ هناك روايات ردَّدت في الخَبَر بين وقوعه مع هشام في فترة عبد الملك أو الوليد.

فلدينا ثلاث طوائف من الرّوايات، غير أنَّ الرّوايات القائلة بأنّ الحدث وقع في زمن الوليد بن عبد الملك أكثر، والرّاوي في أسناد الخبر تقريباً واحد.

ثمَّ على فرض أنَّ الواقعة حدثت في زمن عبد الملك وخلافته، فهذا لا ينفي وقوعها بعد مقتل عبد الله بن الزّبير الّذي قُتِلَ في مكّة في فترة حُكْمِ عبد الملك بن مروان هذا.

أمّا لماذا؟ فلأنَّ لدينا وثائق وشواهد تأريخيّة كثيرة متّفِقة، تؤكِّد على أنَّ بني أُميّة ما كانوا على قدرة في الدّخول لمكّة في فترة سُلطة عبد الله بن الزّبير في الحجاز، حيث طردهم منها قبل حُكم مروان بن الحَكم الّذي هو والد عبد الملك وجَدّ الوليد.

فثَبَتَ لدينا أنَّ الإمام عليه السلام لم يكن هو الموجِّه لأهل مكّة، ولا لأهل الحجاز ولا لغيرهم، وإن كان بحنكته قد أنقذ أهل المدينة من يد مسلم بن عُقبة الذي تَوَجَّه بعد أخذ البيعة لمكّة، فوقع فيها ما وقع من هدم للكعبة المشرَّفة وانتهاكات وقتل عن طريق وصيّه.

أمّا الرّواية التّأريخيّة في مناسبة قصيدة أبي فراس الفرزدق فهكذا:

«أنّ هِشام حَجَّ في خلافة عبد الملك أو الوليد، فطاف بالبيت وأراد أن يَستلم الحَجَر فلم يقدر عليه من الزّحام، فنصب له منبر فجلس عليه، وأطاف به أهل الشّام، فبينا هو كذلك إذ أقبل علي بن حسين، عليه إزار ورداء، أحسن النّاس وجهاً وأطيبهم رائحة، بين يديه سجّادة، كأنّها ركبة عنز، فجعل يطوف بالبيت،

فإذا بلغ إلى موضع الحَجَر تنحَّى النّاس له عنه حتَّى يستلمه هيبة له وإجلالاً، فغاظ ذلك هشاماً، فقال رجل من أهل الشّام لهشام: مَن هذا الّذي قد هابه النّاس هذه الهيبة فأفرجوا له عن الحَجَر؟ فقال هشام: لا أعرفه؛ لئلا يرغب فيه أهل الشّام، فقال الفرزدق وكان حاضراً: لكنّي أعرفه، فقال الشّامي: مَن هو يا أبا فراس؟ فقال الفرزدق...»[٧].

وقد نقل ابن عساكر الحادثة هكذا أيضاً:

«حَجَّ هشام بن عبد الملك في خلافة الوليد، فكان إذا أراد استلام الحَجَر زوحم عليه، وحجَّ علي بن الحسين وكان إذا دنا من الحَجَر تفرَّق عنه النّاس إجلالاً له، فوجم لذلك هشام وقال: مَن هذا فما أعرفه، وكان الفرزدق واقفاً...»[٨].

فابن عساكر نقل كلا المقطعين في كتاب واحد، وهو تأريخ دمشق، فأشار فيهما لجميع ما قلناه، وجاء نقله لذلك بسَنَد واحد تقريباً بنفْس الرّواة، كما أشرنا سابقاً لرواية ذكرت الحادثة وبيَّنت كيف أنَّ الفرزدق عُذِّب بسبب قصيدته وردّه القاصم.

خيار نشر العلوم والانشغال ببثّ المعارف المختلفة بصورة واسعة:

أمّا هذا الدّور، فالإمام عليه السلام وإن لم يكن مارسه بمثل ما سلكه الإمام الصّادق عليه السلام، إلا أنّه مارسه بكلِّ وجوده وفقاً لما يتيحه المجال بطريقة وأخرى، إذ ما كانت الأجواء المتوتّرة في ساحة الأمّة مؤهَّلة للقيام بدور من هذا القَبيل تجاهها، وإلا فإنّ من أهم وظائف الإمام هو ممارسة هذه المهمّة، وقد سبق أن نفينا كونه عليه السلام كان رجل دعاء وعبادة وعزلة على أساس هذا الأمر.

فالإمام علي بن الحسين ‘ رغم كل العوائق كان معلِّماً بدعائه وعبادته حسبما أوضحنا، بل وكان في سلوكه ـ كما ينقل التّأريخ ـ الأشبه بجدّه علي بن أبي طالب عليه السلام، ففي الخبر:

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: «**والله إنْ كان علي عليه السلام ليأكل أكلة العَبْد، ويجلس جلسة العَبْد، وإن كان يشتري القميصين فيخيّر غلامه خيرهما، ثمّ يلبس الآخر، فإذا جاز أصابعه قَطَعَه، وإذا جاز كعبه حذفه، ولقد ولي خمس سنين ما وضع آجرة على آجرة، ولا لبنة على لبنة، ولا أورث بيضاء ولا حمراء، وإن كان لَيُطْعِم النّاس على خبز البر و اللحم، وينصرف إلى منزله فيأكل خبز الشّعير والزّيت والخل، وما ورد عليه أمران كلاهما لله عزّ وجل فيه رضَا إلا أخذ بأشدّهما على بدنه، ولقد أعتق ألف مملوك من كدِّ يمينه تَرِبَت منه يداه وعرق فيه وجهه، وما أطاق عمله أحد من النّاس بعده، وإن كان ليصلِّي في اليوم و الليلة ألف ركعة، وإن كان أقرب النّاس شبهاً به علي بن الحسين ‘ ، ما أطاق عمله أحد من الناس بعده**»[٩].

كما كان الرّجل الأوّل في علم التّفسير، حيث وردت عنه روايات كثيرة في هذا المجال، فالمطالع لكتب كبار المفسّرين كتفسير العيّاشي ومجمعِ البيان للطّبرسي وغيرهما من الخاصّة والعامّة، يلحظ بوضوح مدى قيام تفسير الكثير من الآيات على ما ورد عنه عليه السلام في هذا المجال بما لا يستغني عنه مفسِّر رغم قلّة ما حمله التّأريخ وأوصله لنا عنه.

كما كان شيخ المدينة المعتمَد في قراءة القرآن، حيث شكّل مدرسةً كبرى في علم القراءات في قِبال قرّاء الحجاز والبصرة والكوفة بأعلامهم البارزة المعاصِرة له من عبد الله بن عبّاس، وعبد الله بن عمر، والمسور بن مخرمة الزّهري، والسّائب بن يزيد، وأبي بكر بن عبد الرّحمن بن الحارث بن هشام، وخارجة بن زيد بن ثابت، وسعيد بن المسيّب، وعروة بن الزّبير، وعطاء بن يسار، والقاسم

بن محمّد، وأبي سلمة بن عبد الرّحمن بن عوف، وسالم بن عبد الله بن عمر، وقبيصة بن جابر، وعُبيدة بن قيس السّلماني، وشريح بن الحارث الكندي، وعبد الرّحمن بن أبي ليلَى، وعبد الله بن يزيد الخطمي، وزيد بن وهب الهمداني، والحارث بن سويد التّميمي، ومُرّة بن شراحيل الهمداني، وأبي جحيفة وهب بن عبد الله العامري الأسدي، ويسير بن عمرو السّلولي، وأبي الشّعثاء سليمان بن الأسود، والأسود بن مالك الحارثي، وابن حراش العبسي، وعمرو بن ميمون الأودي، وعامر بن شراحيل الشّعبي، وعبد الرّحمن بن يزيد النّخعي، وسالم بن أبي الجعد، وعمّار بن عمير الليثي، وعبد الله بن عُمير الليثي، وأبي ظبيان الحصين بن جندب، وسليمان بن يسار، وأبي المليح بن أسامة الهذلي، وسعيد بن جبير، ومجاهد بن جبير مولَى بني مخزوم، وعكرمة مولَى عبد الله بن عبّاس، وحكيم بن أبي حازم شقيق ابن سلمة، وإبراهيم بن يزيد النّخعي، وإسحاق السّبيعي، وأيّوب الأزدي، وأبي تميم الحميني، والحسن بن أبي الحسن البصري، ومحمّد بن سيرين، وموزّق العجلي، وسنان بن سلمة، والعلاء بن زياد، وأبي حازم رجاء بن حياة، وزيد بن أسلم، وأبي جعفر القارئ، وقتادة، والأعرج، ومسلم بن جندب، والقاسم بن محمّد بن أبي بكر، وأبي بكر بن حزم، ويحيَى بن عبد الرّحمن بن حاطب، وعُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود، ومحمّد بن كعب القرظي، وعاصم بن عمر بن قتادة، ونافع مولَى عبد الله بن عمر، وسعيد بن يسار، ومحمّد بن إبراهيم بن الحارث التّيمي، وعبد الله بن دينار، ومحمّد بن مسلم بن شهاب الزّهري، وعبد الله بن أبي بكر بن محمّد بن عمرو، وحبيب بن أبي ثابت، وعبد الـمَلِك بن مَيسرة الهلالي، وعبد الـمَلِك بن يعلَى الليثي، وزيد بن نوفل، وعَلْقَمة بن عبد الله المزني، ومكحول الدّمشقي، وراشد بن سعد، والـمُقْرِئ سليمان بن حبيب المحاربي، وميمون بن مهران، ويزيد بن الأصم، وأبي قَبِيل المَعافري، وطاووس اليماني، وغيرهم، فله عليه السلام بيانات كثيرة في هذا

المجال لا يستغني عنها أهل هذا العلم، تماماً كما لا يستغني المفسّرون عن قراءته في بيان المعاني وعلم اللغة.

فكلّ هؤلاء العلماء الأعلام المشاهير عاصروا الإمام عليه السلام، فكان الأبرز فيهم، وليس من مذهب من مذاهب المسلمين ينكر منزلته وعلمه ومكانته.

أضف إليه ما ورد عنه من روايات فقهيّة كثيرة في بيان آيات الأحكام وغيرها، فقد ملأ الشّيخ الطّبرسي وغيره من الأقطاب وكبار الأعلام والمفسرين كتبهم التّفسيرية وغير التّفسيرية بذلك، فكان على الدّوام ـ حسب ما نُقل له من مواقف كثيرة في كتب التّأريخ والتّفسير والحديث ـ يصحّح عقائد النّاس وأفكارهم.

كما له كلمات رائعة في الحِكَم، وأحاديث كثيرة في بيان ثواب السّوَر.

كما كان المُعِد الأكبر لمرحلة ابنه الإمام الباقر عليه السلام الّذي أقام صرحاً علميّاً رائداً بَنَى في الأمّة وسطاً عظيماً من العلم والمعرفة، فإنَّ مناسَبة قصيدة الفرزدق خير دليل على إعداده الأمّة لذلك.

هذا وتهيئته لتلاميذ من ذوي الباع الطّويل والثِّقل الكبير كابنه زيد، وكجابر بن عبد الله الأنصاري المتوفّى سنة ٧٨هـ صحابي رسول الله ' كثير الرّواية عنه وشيخ الصّحابة وراويهم الّذي كانت له حلقة علميّة في المسجد النّبوي في أواخر حياته المباركة، وأبي حمزة الثّمالي، وبِشر بن حذلم، والمنهال بن عمرو، وغيرهم، فتهيئته لمثل هؤلاء العمالقة، وبثّه لهم في الأقطاب بعلومه ومعارفه من أجلى البراهين على سلوكه لهذا الدّور بما يتوافق ويتناسق مع هذه المرحلة بصورة تامّة.

فكلّ ما ذكرنا يمثل شيئاً يسيراً من الأسباب الّتي دعت مادحيه لوصفه بالعلم والسّلوك والمعرفة، كيف لا! وهو الّذين كان يُنقل عنه عن زُرارة عن أبي جعفر عليه السلام قوله: كان علي بن الحسين ' يقول: لولا آية في كتاب الله لحدّثتكم

بما يكون إلى يوم القيامة. فقلت: أيّة آية؟ قال: قول الله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]»[١٠].

كلّ هذا فضلاً عن أنّه كان المؤرِّخ الأوَّل والأوثق لأحداث الفترة السّابقة بما أوصلَه للأمّة عن حادثة كربلاء ومصرع أبيه ومن معه، حسب مواقفه مع النّاس وبيانه لأهل العِلم والرّواية كجابر بن الله الأنصاري وغيره، كما كان المصحِّح والرّقيب على نقولات الآخرين في ذلك، خصوصاً وأنَّ الخرافات والتّشويهات الّتي نالت حادثة الطَّف لا تُعد ولا تُحصَى، لذا نهَى الأئمّة ^ عن الأخذ من بعض أولئك الدّجّالين.

أضف إلى هذا ما وافيناك به عند الكلام عن قياس درجة التّطابق العملي مع غايات هذه الفترة، وكذا ما سنوافيك به عند بيان الحقيقة الكاملة لسلوك هذه المرحلة.

خيار التّثبيت على الخط والتّصدّي لدفع دواعي التّخبّط والحيرة:

وهذا الخيار وإن لم يكن برز في سلوكه عليه السلام بمثل ما برز في سلوك الأئمّة الثّلاثة، الإمام علي بن محمّد الهادي والإمام الحسن العسكري وابنه الإمام المهدي ^ حسب بياننا في أوّل الكلام، إلا أنّه كان يمارس ذلك بما يساوق درجة تحرّكاته، ووفق فوارض المرحلة وعوارض حادثة الطَّف ومهامّه الأخرَى، حيث كانت المعارف آنذاك لا تزال شائعة بين أطياف الأمّة حليفة العهد بالنّبي ' والوحي والرّسالة، والعلماء والحفّاظ قد ملؤوا الأرجاء بأعداد كبيرة، غاية الأمر أنّ النّاس كانوا في بُعد عن العمل بها، وبحاجة لهزِّ وجدانهم تجاهها وتحريكهم لامتثال دواعيها ومطالبها، والتّفطّن إلى أنَّ التّهاون بالعمل يؤدّي لسلطة الفاسق وقيام الجور وفساد الأمور، وإدراك حقيقة: كما تَكُونوا يولَّى عليكم.

إذن؛ نتج ممّا سبق: أنَّ الأمثليّة في السّلوك كانت فيما اتّخذه الإمام عليه السلام من إجراءات تجاه تلك المرحلة من المراحل، وأنَّ كلّ ما يُفرض من وجوه وأدوار أخرى إما ينتهي للسّقوط والفشل أو لا يصلح لأن يكون الأبرز في المسيرة، وإن تمَّ تفعيل ذلك بنسبة معيّنة بشرط تقديمها بصورة تتلاءم مع الظّرف الرّاهن، تماماً كما فعل عليه الصّلاة والسّلام.

بيان الحقيقة الكاملة لسلوك هذه المرحلة:

ثمَّ من قال بأنّ الرّكون للدّعاء يشكّل حالة من العزلة والانعطاف عن منطق المواجهة والحراك الجهادي؟!

هذا المنظور خاطئ في العديد من جهاته، خصوصاً في مثل نوعيّة الدّعاء الّذي كان يمارسه الإمام زين العابدين عليه السلام، وفي مثل خصوص طريقته الفذّة الّتي جعل فيها من الدّعاء موجة نفوذ للعقول والقلوب معاً، فزاوج فيه بين موسيقى الشِّعر من المستوى الرّفيع المؤثّر بأثر الشّعراء العظام وسلاطين البيان بكافّة نواحيه الهجائيّة والبطوليّة وقوالبه العفيفة وغزليّة الملهَم عَذيب المذاق، وبين المعاني والقيم والأهداف الّتي بقيت تساور ذاته من أوّل لحظات حياته المباركة إلى آخر يوم رحل فيه عن هذه الدّنيا.

وخصوصاً عندما نلاحظ حركة الدّعاء بما هي مراس جَمْعي لا فردي يمارسه الفرد في عزلته وبيته وزاويته؛ إذ كانت أدعيته الزّاخرة تنطلق للأسماع بصورتها المباشرة من نفس المتكلّم، فتأخذ أثرها شديد الوقع الّذي يحصل من المُلقي لا من الملقَى عنه، فليس نَفَس الشّاعر وصوته ووتره ووقعه المباشر كنَفَس من يلقي عنه كلماته وأحاسيسه وينقلها للآخرين.

بل حتّى في حالات النّقل الّتي كانت تنال كلماته في صورتها الرّوائيّة والإعلاميّة بين النّاس، كانت تلك العبائر الصّافية تؤتي ثمارها بقوّتها وبنفس

الوتيرة تقريباً؛ لأنّ الإمام عليه السلام كان يمزجها برونق شديد الجاذبيّة وبحرارة مشتدّة، خصوصاً وأنَّ تلك العبائر تمتاز بريادتها البيانيّة البَديعة وبفصاحتها الّتي تتلاءم مع كلِّ ذوقٍ وكلِّ مستوى، فيجد فيها العالم ما يبهره كما يجد فيها حاسر المعرفة ما يبهره.

وما بالك فيما إذا عرفت بأنَّ تلك الكلمات الإلهيّة كانت تبرز صافيةً طاهرة ممتزجة بحرارة الدّموع والإخلاص والعروج الرّوحي الحقيقي في ذات الله تعالى؟

كيف لا! وأنت تجد أنَّ مثل هذه الكلمات العظيمة لا يمكن لها أن تخرج من أيّ شخص، وإنّما تحتاج لذائقة العظماء ومعرفة العلماء السّالكين، وهو العظيم في معرفته، وصفوة الله في خَلْقِه، بما يبعد عنه أدنى احتمالات الطُّعون في فعله والظّنون السّلبيّة تجاه عبادته بمثل ما يفعل المتمرّد على ما يقبّحه العقل من أحكام وتهم للآخرين بحمله لأفعالهم العباديّة على الرّياء وما شاكل بلا حجّة وبلا دليل.

فهذه الأدعية المليئة ـ تحليلاً ـ بالمديح والهجاء والغزل وجميع جهات الشِّعر بما له من مضامين رفيعة، كانت تقدّم حرباً ضارية أُسقط على أساسها عرش يزيد وسُلطان أتباع يزيد، وليس قتل الإمام واستشهاده إلا دليل على هذه الحرب الضّارية.

بل وإنَّ مقولة عبد الملك بن مروان للحجّاج بن يوسف الثّقفي رغم امتداد سُلطانه ومُلكه وقوّته أن يجنّبه دماء بني أبي طالب دليلٌ ناصع على القلق الّذي كان يساوره من هذه الذّرّيّة الصّالحة وعلى رأسهم الإمام علي بن الحسين ‘ ، ففي الخبر: «كان عبد الملك قد كتب إلى الحَجّاج، وهو على الحجاز: جنِّبْني دماء آل بني أبي طالب، فإنّي رأيت آل حربٍ ـ يعني أبا سفيان وولده معاوية وحفيده

يزيد وأضرابهم ـ لمّا تهجّموا بها لم يُنصروا»[11]، فكَتَبَ له الإمامعليه السلام ما سنوافيك به.

ونفسه قول والي الوليد بن عبد الملك بن مروان على المدينة في زمن حُكمه هشام بن إسماعيل ـ الّذي تحامل على آل رسول الله هو الآخر ـ صراحةً بخوفه من الإمام علي بن الحسين ' وقلقه الشّديد تجاهه، حيث ورد فيه:

«ووَلَّى الوليدُ عمر بن عبد العزيز المدينة، وأمر أن يقف هشام بن إسماعيل للنّاس، وكان هشام بن إسماعيل المخزومي قد أساء السّيرة، وجار في الأحكام، وتحامل على آل رسول الله، فلمّا قَدِم عمر قال هشام: ما أخاف إلا علي بن الحسين! فمرَّ به، وهو موقوف، فسلّم عليه، فناداه هشام: الله أعلم حيث يجعل رسالاته، ولم يعرض له سعيد بن المسيّب ولا لأحد من أسبابه وحاميته»[12]؛ فهشام هذا إمّا علَّل سبب تحامله وظلمه لآل محمّد ' بخوفه من الإمامعليه السلام، أو أنَّ خوفه منه وقلقه تجاهه بالخصوص كانت له خصوصيّة مستقلّة.

ومِثله مناسبة قصيدة أبي فراس الفرزدق، الّتي عرَّضته للتّعذيب، يوم أن أنكر هِشام معرفته للإمام حينما كانت صفوف الحجيج تنفرج له في كلّ شوط يستلم فيه الحَجَر، بينما عجز هو عن مجرَّد الطّواف فضلاً عن بلوغ الحَجَر، خوفاً من أن ينصرف النّاس إليه عليه الصّلاة والسّلام.

وكذا الحال بالنّسبة لمسلم بن عُقبة الّذي أوقع في عهد يزيد بن معاوية بأهل المدينة وقعة الحَرَّة بأمرٍ منه حسب ما أسلفنا، حيث لاحظنا كيف أنّه كان بفعل خشيته من الإمامعليه السلام حسَّن خطابه معه يوم أن عَرَضَ النّاس للبيعة على أنَّ كل مبايع منهم هو عبد قنّ ليزيد بن معاوية، فلم يوجّه إليه هذه العبائر المذلّة، بل قال له بايع «على أنّك أخ وابن عم».

فالخبر ـ لو صح ـ فهو يدلّ على ذلك حقيقةً، وإلا فإنَّ مثل مسلم بن عُقبة ذلك الرّجل المتعجرف الصَّلِف لو كان يأمن على نفسه من المتاعب من مثل علي بن الحسين ‘ ؛ لما طأطأ رأسه له وخاطبه بخوفٍ وخضوع.

وبالتّالي؛ بملاحظة هذه المواقف وغيرها نجد كيف كان للإمامعليه السلام وجوداً مهيباً في قلوب حكّام هذه المرحلة، ممّا يعني أنَّ الدّعاء ـ الخيار الأبرز ظهوراً في سِيرته ـ كان في شكله الظّاهري والباطني يحمل دلالات عظيمة، وقوّة خارقة تزرع في نفوس الظّالمين الرّعب والرّهبة.

فنحن بتحليل تلك الأدعية بصورة دقيقة تتلاءم مع الأحداث؛ نجد جميع هذه الحقائق الخالدة دون أدنَى ريب، فمثلاً عندما نطالع دعاء مكارم الأخلاق نرَى كيف كان الإمامعليه السلام يقود النّفوس ويوجّهها في هجائه للظّالمين بمقاطع مَهِيْبة بقوله: «**اللهمّ اجعلْ لي يداً على من ظَلَمني، ولساناً على من خاصَمني، وظفراً بمن عانَدني، وهَبْ لي مَكراً على من كايَدَني، وقدرةً على من اضطهَدني، وتَكذيباً لمن قَصَبَني، وسلامةً ممّن تَوَعَّدَني**»، فكانت هذه الرّنّات المختلطة بالمناجاة والبكاء الخالص تصل لأسماع بني أمّيّة وأعدائه ومن استداموا اللعن لعلي بن أبي طالب على منبره ومنابرهم في كلِّ يومٍ وحين.

وفي مقطعٍ آخر يدوِّي الأرواح ويقصم الجبّارين على عروشهم يقول:

«**اللهمَّ وقد شَمِلَنا زَيْغُ الفِتَن، واسْتَولَتْ علينا غَشْوةُ الحيْرة، وقارَعَنا الذُّلُ والصَّغَار، وحَكَمَ في عِبادِكِ غير المأمونِينَ على دِينِك، فابْتَزَّ أُمورَ آلِ محمّدٍ مَن نَقَضَ حُكْمَك، وسَعَى في تَلَفِ عِبادِكَ المؤمنِين، فجَعَل فَيْئَنا مَغْنَماً، وأَمانَتَنا وعَهْدَنا مِيراثاً، واشْتُرِيَتِ الملاهي والـمَعازِفَ والكفَّاراتِ بسهمِ الأرملةِ واليتيمِ والمسكين، فرَتَعَ في مالِكَ مَن لا يَرعَى لكَ حُرْمَة، وحَكَمَ في أَبْشارِ المسلمِينَ أهل الذِّمّة، فلا ذائِدَ يَذودُهُم عن هَلَكَة، ولا راحِمَ يَنظرُ إليهم بعينِ الحُرْمَة، ولا ذو شفاعةٍ يَشفعُ لذاتِ الكبدِ الـحَرَّى من الـمَسْغَبة، فهُم أهلُ ضَرَعٍ وضَياع،**

وأُسراءُ مَسْكَنة، وحُلَفَاءُ كآبةٍ وذلّة. اللهمَّ وقد اسْتَحْصَدَ زرعُ الباطل، وبَلَغَ نِهْيَته، واسْتَحْكَمَ عمودُه، وخُرِفَ وَليدُه، ووسقَ طريدُه، وضَربَ بجرانِه. اللهم فأتحْ له مِنَ الحقِّ يداً حاصِدة، تَصْرَعُ بها قائمَه وسوقَه، وتَـجْتَثُّ سنامَه، وتَـجْدعُ مراغمَه، ليُنْظَرَ إليهِ بقَبيحِ حِلْيَتِه، ويَظْهَرَ الحقُّ بـحُسْنِ صُورَتِه. اللهم ولا تدع للجور دعامة إلا قصمتَها، ولا جنّة إلا هتكتَها، ولا كلمةً مجتمعة إلا فرّقتَها، ولا قائمة إلا خفضتها، ولا راية إلا نكّستَها وحططتَها، ولا عُلوّاً إلا أسفلتَه، ولا خضراء إلا أَبَدْتَها. اللهم وكَوّرْ شمسَه، وأطفِئ نورَه، وأُمْ بالحقِّ رأسَه، وفض جيوشَه، وأرعبْ قلوبَ أهلِه، وأَرِنا أنصارَ الجَورِ عَبادِيدَ بَعْدَ الألفة، وشَتَّى بَعْدَ اجتماعِ الكلمة، ومَقْموعِي الرّؤوس بَعْدَ الظّهورِ على الأُمَّة. اللهمَّ وأَسْفِرْ لنا عن نهارِ الحقِّ والعَدل، وأرناه سرمداً، وأهْطِلْ علينا بَرَكَتَه، وأدله ممّن ناواه وعاداه، وأوضِحْ به في غَسَقِ الليلِ المُظْلِمِ وبَهيمِ الحيرةِ المُدْلَهِم. اللهمَّ وأحْيِ به الأرضَ الميّتة، واجمعْ به الأهواءَ المتفرِّقة، وأقِمْ به الحدودَ الـمُعَطَّلة، وأَسْرِبْ به الأحكامَ الـمُهْمَلة، اللهمَّ وأَشْبِعْ بهِ الخماصَ السَّغِبة، وارْحَمْ به الأبدانَ اللغِبة».

بينما نجده يحذو بغزله الإلهي في النّفوس بقول مخاطباً مَلِيكه:

«إلهي مَن ذا الّذي ذاقَ حَلاوةَ مَحَبَّتِكَ فَرَامَ مِنْكَ بَدَلا، ومَن ذا الّذي أَنِسَ بِقُرْبِكَ فابْتَغَى عنكَ حِوَلا».

ويقول:

«ما أَلَذَّ خَواطِرَ الإلْهامِ بذِكْرِكَ على القُلُوب! ومَا أَحْلَى الـمَسِيرَ إليكَ بالأَوْهامِ في مَسَالِكِ الغُيُوب! ومَا أَطْيَبَ طَعْمَ حُبِّكَ! ومَا أَعْذَبَ شرْبَ قُرْبِك».

وهكذا كان في معاني المديح والثّناء يقول في جهة أخرى من أدعيته:

«أنتَ المُسَبَّحُ في كُلِّ مكانٍ، والـمَعْبُودُ في كُلِّ زَمانٍ، والـمَوجُودُ في كُلِّ أَوَانٍ، والمَدْعُوُّ بكُلِّ لِسانٍ، والمُعَظَّمُ في كُلِّ جَنَان».

ويقول:

«يا مَلاذَ اللائِذين، ويا مَعاذَ العَائِذين، ويا مُنْجِيَ الهالِكين، ويا عَاصِمَ البَائِسين، ويا راحِمَ المَسَاكِين، ويا مُجِيْبَ المُضْطَرِّين، ويا كَنْزَ الـمُفْتَقِرين، ويا جابِرَ المُنْكَسِرين، ويا مَأْوَى الـمُنْقَطِعين، ويا ناصِرَ المُسْتَضْعَفِين، ويا مُجِيْرَ الخائِفين، ويا مُغِيْثَ المَكْرُوبين، ويا حصْنَ اللاجِئِين. إنْ لَمْ أَعُذ بعِزَّتِكَ فبمَن أَعوذ؟! وإنْ لَمْ أَلُذ بِقُدْرَتِكَ فبمَن أَلُوذ».

ويقول:

«يا مُنْتَهَى أَمَلِ الآمِلين، ويا غايَةَ سُؤلِ السّائِلين، ويا أَقْصَى طَلِبَةِ الطّالِبين، ويا أَعْلَى رَغْبَةِ الرَّاغِبين، ويا وَلِيَّ الصَّالِحين، ويا أَمانَ الخائِفين، ويا مُجِيْبَ دَعْوَةِ المُضْطَرِّين، ويا ذُخْرَ المُعْدَمين، ويا كَنْزَ البائِسين، ويا غِياثَ المُسْتَغِيثين، ويا قاضِيَ حَوائِجِ الفُقَراءِ والمَساكِين، ويا أَكْرَمَ الأَكْرَمين، ويا أَرْحَمَ الرَّاحِمين».

وهكذا كان سموّه في مناجاته مع ربّه حيث يناجيه قائلاً:

«إلهي فاجْعَلْنا مِنَ الّذينَ تَرَسَّخَتْ أَشْجارُ الشَّوقِ إِلَيكَ في حَدائِقِ صُدُورِهِم، وأَخَذَتْ لَوعَةُ مَحَبَّتِكَ بمَجامِعِ قُلُوبِهِم، فَهُم إلى أَوْكارِ الأَفْكارِ يَأْوُون، وفي رِياضِ القُرْبِ والمُكاشَفَةِ يَرْتَعُون، ومِن حِياضِ المَحَبَّةِ بكَأْسِ المُلاطَفَةِ يَكْرَعُون، وشَرائِعِ المُصَافَاةِ يَرِدُون. قَدْ كُشِفَ الغِطاءُ عن أَبصارِهِم، وانْجَلَتْ ظُلْمَةُ الرَّيْبِ عن عَقائِدِهم وضَمائِرِهِم، وانْتَفَتْ مُخالَجَةُ الشَّكِّ عن قُلُوبِهِم وسَرائِرِهِم، وانْشَرَحَتْ بتَحْقِيقِ المَعْرِفَةِ صُدُورُهُم، وعَلَتْ لِسَبْقِ السّعادَةِ في الزَّهَادَةِ هِمَمُهُم، وعَذُبَ في مَعِينِ المُعامَلَةِ شِرْبُهُم، وطابَ في مَجْلِسِ الأُنْسِ سِرُّهُم، وأَمِنَ في مَوْطِنِ المَخافَةِ سِرْبُهُم، واطْمَأَنَّتْ بالرّجُوعِ إلى ربِّ الأَرْبابِ أَنْفُسُهُم، وتَيَقَّنَتْ بالفَوْزِ والفَلاحِ أَرْواحُهُم، وقَرَّتْ بالنَّظَرِ إلى مَحْبُوبِهِم أَعْيُنُهُم، واسْتَقَرَّ بإِدْراكِ السُّؤْلِ ونَيْلِ المَأْمُولِ قَرارُهُم، ورَبِحَتْ في بَيْعِ الدُّنْيا بالآخِرة تِجارَتُهُم».

بينما في اعترافه بالضّعف والعجز والقصور يقول بحرقةِ القلب وألم الوجدان:

«**جَلَّلَتْنِي نِعَمُكَ مِن أَنْوارِ الإِيْـمانِ حُلَلا، وضَرَبَتْ عَلَيَّ لَطَائِفُ بِرِّكَ مِنَ العِزِّ كِلَلا، وقَلَّدَتْنِي مِنَنُكَ قَلائِدَ لا تُحَل، وطَوَّقَتْنِي أَطْواقاً لا تُفَل، فآلاؤكَ جَمَّةٌ ضَعُفَ لِسانِي عَن إِحْصائِها، ونَعْماؤكَ كَثِيرةٌ قَصُرَ فَهْمِي عَن إِدْراكِها فَضْلاً عَن اسْتِقْصائِها. فكَيْفَ لِي بتَحْصِيلِ الشُّكْر وشُكْرِي إِيَّاكَ يَفْتَقِرُ إلى شُكْر؟! فكُلَّما قُلْتُ لكَ الحَمْد، وَجَبَ عليَّ لذلكَ أَنْ أَقُول لكَ الحَمْد**» ؛ أي: عند حَمْدِ الله تعالى على نِعْمة واحدة من نِعَمِه فنَفْس كلمة (الحمد لله) تحتاج لأن يَحمد الحامدُ ربَّه عليها؛ لأنّه وَفَّقه للحمد وأعطاه الجارحة لإدراك ذلك والتّلفّظ به، فيكون لم يَحْمَد بشيء، بل احتاج بحمده إلى حَمْدٍ جديدٍ على كلِّ ذلك! فهو عاجز عن حَمْدِ نعمةٍ واحدة من نِعَمِ الله سبحانه عليه! فما أسماه وأبلغه من تعبير، وما أعظمها من حقيقة!

وما أشجَى كلماته وهو يستقل من ذنوبه وخطاياه ولا خطايا له ولا ذنوب وهو العبد العامل الكامل، حيث يقول:

«**سَيِّدِي، أَلِضَرْبِ المَقامِعِ خَلَقْتَ أَعْضائِي؟ أَمْ لِشرْبِ الحَمِيمِ خَلَقْتَ أَمْعائِي؟ سَيِّدِي، لَو أَنَّ عَبْداً استَطاعَ الهَرَبَ مِن مَولاه، لَكنْتُ أَوَّلَ الهارِبِينَ مِنك، لكنِّي أَعْلَمُ أَنِّي لا أَفُوتك. سَيِّدِي، لَو أَنَّ عذابِي يزيدُ فِي مُلْكِكَ لَسَأَلْتكَ الصَّبرَ عليه، غيرَ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ لا يزيدُ فِي مُلْكِكَ طاعةُ المُطِيعِين، ولا ينقصُ مِنهُ معصيةُ العاصِين. سَيِّدي، ما أَنا، وما خَطَرِي؟ هَبْ لي خَطاياىَ بفَضْلِك، وجَلِّلْنِي بسِتْرِك، واعْفُ عَن تَوبِيخِي بكَرَمِ وَجْهِك**».

ويقول باكياً متوجِّعاً:

«**يا إلهي لَو بَكَيْتُ إِليكَ حتَّى تَسْقُطَ أَشْفارُ عَيْنِي، وانْتَحَبْتُ حتَّى يَنْقَطِعَ صَوْتِي، وقُمْتُ لكَ حتَّى تَنْتَشِرَ قَدَماي، ورَكَعْتُ لكَ حتَّى يَنْخَلِعَ صُلْبِي،**

وسَجَدْتُ لكَ حتَّى تَتَفَقَّأَ حَدَقَتاي، وأَكَلْتُ تُرابَ الأَرضِ طُولَ عُمُرِي، وشَرِبْتُ ماءَ الرَّمادِ آخِرَ دَهْرِي، وذَكَرْتُكَ في خِلالِ ذلكَ حتَّى يَكِلَّ لِسانِي، ثُمَّ لَمْ أَرْفَعْ طَرَفِي إِلى آفاقِ السَّماءِ اسْتِحْياءً مِنكَ ما اسْتَوجَبْتُ بذلكَ مَحْوَ سَيِّئَةٍ واحِدَةٍ مِنْ سَيِّآتي».

وأَعجب العَجب منه وفيه حينما يَذْكر الموت والقبر والبرزخ والآخرة، فتختلط أحزانه بأنفاسه، وخياله بمشاعره وإحساسه، حيث يقول:

«وارْحَمْنِي صَرِيْعاً علَى الفِراش تُقَلِّبُنِي أَيْدِي أَحِبَّتِي، وتَفَضَّلْ عَلَيَّ ممدوداً علَى الـمُغْتَسَل يُغَسِّلُنِي صالحُ جِيْرَتِي، وتَحَنَّنْ علَيَّ مَحْمُولاً قد تَناوَلَ الأَقْرباءُ أَطْرافَ جَنازَتِي، وَجُدْ علَيَّ مَنْقُولاً قَد نَزَلْتُ بكَ وَحيداً في حُفْرَتِي، وارْحَمْ في ذلكَ البيتِ الجديدِ غُرْبَتِي».

ولَمّا رآه أحد أصحابه يبكي بحرقة وشدّة، قال له ليسكِّن من روعه: يا ابن رسول الله! أتبكي وجدّك خاتم النّبيّين وشفيع الأمّة، وأمّك الزّهراء و...، فراح يعدّد مناقبه وشرف نسبه ومَن ينتمي إليه، فما كان ذلك إلا سبباً في ازدياد حزنه عليه السلام واشتداد بكائه أشدّ ممّا هو عليه، لما يرى في أنَّ كل ذلك يجب أن يدعوه لأن يكون الأرقَى والأكمل، وأنَّ خطأه لو صَغُرَ كان كبيراً لا ينبغي أن يصدر منه وهو على هذا النَّسب والشَّرف والمقام، فأجابه وكان جوابه من أعلَى وأرقَى كلمات أدعيته في دعاء تلميذه أبي حمزة الثّمالي الّذي يلازمه السّالكون في أسحار رمضان وغيرها، وكل كلمات أدعيته عالية وراقية:

«وما لي لا أَبْكِي؟! ولا أَدْرِي إلى ما يَكونُ مَصِيْرِي، وأَرَى نَفْسِي تُخادِعُنِي، وأَيّامِي تُخاتِلُنِي، وقد خَفَقَتْ عِندَ رَأْسِي أَجْنِحةُ الموت، فما لي لا أَبْكِي! أَبْكِي لِخُرُوجِ نَفْسِي، أَبْكِي لِحُلُولِ رمْسِي، أَبْكِي لظُلْمَةِ قَبْرِي، أَبْكِي لضِيقِ لَحْدِي، أَبْكِي لسُؤالِ مُنْكَرٍ ونَكِيرٍ إِيّاي، أَبْكِي لِخُرُوجِي مِن قَبْرِي عرْياناً ذَلِيلاً، حاملاً ثِقْلِي على ظَهْرِي، أَنْظرُ مرَّةً عن يميني، ومرَّةً عن شمالي، إِذِ الخَلائِقُ في شَأنٍ غيرَ

شَأنِي لكُلِّ امْرُئٍ مِنهُمْ يَومَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه، وُجُوهٌ يَومَئِذٍ مُسْفِرَة، ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَة، ووُجُوهٌ يَومَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَة، تَرْهَقُها قَتَرَةٌ وذِلَّة».

وبعدُ؛ كيف لنا أن نجعل من الدّعاء سمة للعزلة، ونطلق على صاحبه حكماً من هذا القَبيل، ومنه نصوّره بصورة المتناقض في فعاله وتصرّفاته.

بل وإنّ من أهم الحقائق الّتي ينبغي وعيها هو ملاحظة قدرة الإمامعليه السلام الفائقة على ضبط نفسه ومشاعره، حيث لم يأخذ سيفه للنّقمة ممّا ناله ووقع به وبأهل بيته نساءً وأطفالاً وصَحْبِ أبيه من أفاعيل، وهو من بني هاشم الّذين عرفوا بالشّجاعة وشدّة الغيرة على أعراضهم وكرامتهم.

فهو رغم الالتفاف الكبير الّذي كان يدور من حوله من أنصار من بني هاشم أو غيرهم، خصوصاً وأنّه ابن سبط رسول الله ' صاحب المنزلة الرّفيعة في نفوس القوم، فهو رغم ذلك الالتفاف من حوله حتّى من غير العرب لما له من منزلة بين الفُرس، لم يكن يتحرّك على أساس التّهوّر والانتقام الشّخصي، وإنّما كان يتحرّك على أساس مصالح الأمّة الّتي إما أن تفرض عليه هذا السّلوك أو ذاك في ظلِّ الغاية الواحدة، فمثلاً غاية الجائع من الطّعام رفع حالة الجوع لديه، ولكّنه تارة يجد صنفاً معيّناً من الطّعام فيرفع به جوعه، وتارة يجد صنفاً آخر، وتارة تميل نفسه لطعام في حين دون طعام آخر، ولذلك الآخر في وقت آخر، وكلّ من هذه الأطعمة متغايرة، والحالة توصف بالطّبيعيّة تجاه رفع ذلك الإحساس.

وإلا لو كان الشّخص غير شخصهعليه السلام ووجد كلّ هذه الحشود من حوله بنفس تلك الصّورة الّتي حصلت في الآن الّذي أطلق فيه الفرزدق قصيدته عند البيت الحرام فيه، لفعل الأفاعيل ولجاء بالأهاويل مهما بلغ من مراتب، إذ أنَّ الآلام والمحن الّتي وقعت على الإمامعليه السلام لا يحتملها قلب لا يصبر عليها صبور.

فهذا الضّبط النّفسي من الإمام عليه السلام لمشاعره وتصرّفاته بذاته يقدّم للنّاس علامة وأمارة واضحة على لياقة هذا الرّجل وريادته وسموّه وإمامته، وعلى أنّه هو الأجدر بالقيادة والزّعامة وإدارة الأمّة والسّماع منه للوصول لله، وهذا عين ما يريده كلّ إمام منصوب من الله تعالى، إذ لا غاية له سوى إيصال النّاس لله سبحانه وتقويم عقولهم وقلوبهم وحياتهم وكافّة سلوكيّاتهم، فهذا هو هدفهم المشترك والغاية الجامعة.

فهذه الأمارة الّتي كان يلحظها النّاس في كلّ يوم وفي كلّ حين يواجه فيه الإمام النّاس أو يعتزل في حوائجه الشّخصيّة في بيته أو تسوّقه، بكل ما لذلك من إثارات كان يفجّر فيها الموقف ويحافظ على بقاء حركيّته وحرارته، للدّرجة الّتي كان يستلهم فيها من الأحداث الصّغيرة مضامين كبيرة يقدّمها بعِظمها لمن حوله، وإن كانت تلك ترتبط بكبشٍ يريد بائع اللحم أن يذبحه للأكل، فيسأله:

هل سقيتَ الكبش ماءً؟ وهل تعرضون دوابّكم قبل الذّبح على الماء؟

فيجيبه: بلى، يا ابن رسول الله.

فيرد عليه السلام: إن أبي الحسين ـ سيّد شباب أهل الجنّة ـ قُتِلَ عطشاناً وذبح من وريده إلى وريده وهو يطلب الماء!

بحيث كان الجمهور يندفع مباشرة لحرقته، وإدراك بشاعة الظّلم والطّغيان وشدّة القسوة الّتي صار فيها الحيوان أكرم على الإنسان من ابن نوعه وابن خاتم الرّسل والأنبياء!

فهذه الأمارة الّتي كان يلحظها النّاس في جميع اللحظات، وكان يلحظها يزيد وأتباعه بكل وضوح، هي الّتي كانت تدفع السّموم نحوه عليه السلام، وترتقب الغِيلة فيه لتفتك بروحه ووجوده وتصل به إلى مقام الشّهادة الّتي بلغها وهو في أوج سموّه وتناسق أفعاله وطهارة جنبه، بالمستوى الّذي دفع بأهل زمانه من الجمهور والعلماء والسّلاطين لأن يقولوا فيه تلك المقالات العظيمة الّتي سبق

أن استعرضنا بعضاً منها في أوائل الحديث، فأولئك قالوا ما قالوه عن قرب وحسّ واقع لا يفارقهم، ومقولة القريب ليست كمقولة البعيد الّذي لا يبصر تاريخ الماضي عليه إلا بما يُنْقَل إليه.

وظائف أخرى مارسها الإمام عليه السلام في هذه المرحلة:

ثمَّ إن الإمام علي بن الحسين ‘ ما كان سلوكه في هذه الفترة مقتصراً على الدّعاء وما ذكرنا، وإنّما تجاوز ذلك وتعدّد إلى وظائف أخرى مهمّة، من قبيل توجيه السّلطة وحماية الدّولة الإسلاميّة، تماماً كما فَعَلَ مع عبد الملك بن مروان حين أَرسل إلى الحَجّاج بن يوسف الثّقفي ـ وكان إذ ذاك على الحجاز ـ في أن يبعث له عليه السلام مقال ملك الرّوم ـ الّذي سبق أن أشرنا إليه ـ وتهديده طلباً للحل والخلاص من هذه المعضلة الّتي لم يستطع الرّأس الأوّل في السّلطة أن يجابهها، فعجز عجزاً كاملاً عن حلّها، فكتب إليه الإمام عليه السلام بالحل الّذي كفَى الأمّة شرّ تلك المعضلة العظيمة.

جاء في كتب التّأريخ: «كتب ملك الرّوم إلى عبد الملك: لأغزونّك بجنود مائة ألف ومائة ألف ومائة ألف، فكتب عبد الملك إلى الحجّاج أن يبعث إلى زين العابدين ويتوعّده ويكتب إليه ما يقول؛ ففعل، فقال علي بن الحسين: إنَّ لله لوحاً محفوظاً يلحظه كلّ يومٍ ثلاثمائة لحظة ليس منها لحظة إلا يحيي فيها ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء، وإنّي لأرجو أن يكفيك منها لحظة واحدة. فكتب بها الحجّاج إلى عبد الملك، فكتب عبد الملك بذلك إلى ملك الرّوم، فلمّا قرأه قال: ما خرج هذا إلا من كلام النّبوّة»[١٣].

ومثله توجيهه عليه السلام ليزيد بن معاوية في الخبر المعروف، لمّا أرسل إليه يزيد يسأله: كيف الطّريق إلى التّوبة؟ فأجابه يوجّهه إلى سبيل الله تعالى، إلا أنَّ يزيد بن معاوية استدام الأمر في انحرافاته ومفاسده.

وكذا الحال في تشجيعه لعبد الملك بن مروان بن الحَكَم على التزام الحق والعدل، والعمل بشريعة الله تعالى لمّا كتب عبد الملك في عهده لواليه الحَجّاج بن يوسف الثّقفي وهو على المدينة أن يجنّبه دماء آل أبي طالب، حيث أرسل إليه الإمام في ذلك، فكَتَبَ له عليه الصّلاة والسّلام:

«إنّي رأيت رسول الله ليلة كذا في شهر كذا يقول لي: إنّ عبد الملك قد كتب إلى الحَجّاج في هذه الليلة بكذا وكذا، وأَعْلِمْه أنّ الله قد شكر له ذلك، وزاده بُرهة في مُلكه»(١٤).

خاتمة:

إذن الصّحيح على صعيد منهج دراسة الواقع التّأريخي لأي شخصيّة إنسانيّة هو تقييم سلوكيّاتها وأفعالها على أساس الظّروف والمتغيّرات وما يحيط بذلك من حيثيّات خاصّة وعامّة، لا وفق المقابلة فيما بين تلك السّلوكيّات بغضِّ النّظر عن مجريات الحدث الّذي وقعت فيه وقامت على أساسه، فالحياة البشريّة متحرّكة، والتأريخ البشري متغيّر متجدِّد لا يقف عند نقطة كما لا يقف العقل البشري عن التّفكير، والموجود القادر على الحركة لا بدَّ وأنَّ العقل يفترض لكل حركة من حركاته وآنة من آناته فعلاً وزمناً مغايراً عن الآخر، فالتّغاير حقيقة واقعيّة قائمة دائماً بين الفعال والسّلوكيّات، وفرض التّناقض فيها لا يصح الحكم به بتوجيهه لها بمقارنتها المباشرة في حالة استهداف الخروج بقراءة صحيحة للشّخصيّة القائمة على إبرازها في الخارج وأرض الفعل، وإنّما يصح في ذلك في ظرف ملاحظة المؤثّرات من حول كل سلوك.

وبالتّالي إن وجدت لذلك السّلوك مبرّرات إيجابيّة؛ رفع الحكم بالتّناقض مع السّلوك المقابل له، وإن كان التّناقض فعليّاً في مدركات العقل بما يختص بالسّلوكين معاً؛ لأنَّ العقل عندما يلاحظ اختلاف الموضوع لدى كل سلوك

ويجد له مبرِّراً إيجابيّاً مباشرة يوجّه حكمه تبعاً لتلك المبرّرات ويصرف النّظر عن السّلوكين المغفول فيهما عن ذلك.

أمّا إذا لم توجد لذلك السّلوك مبرّرات إيجابيّة، أو وجدت له مبرّرات سلبيّة؛ فحينئذٍ يمكن للعقل أن يحكم على صاحب تلك السّلوكيّات بالمتناقِض، وإن كانت نوعيّة سلوكيّاته غير متناقضة فيما بينها فعلاً عند مقابلتها ببعضها البعض؛ إذ مجرّد عدم وجود حالة من التّناسق بين الظّرف والسّلوك المتّخذ تجاهه يتولّد هذا الحكم تجاه الفاعل بفعل ذلك التّذبذب الحاصل في تصرّفاته.

وعليه؛ فالمناط في الحكم سلباً أو إيجاباً ليس التّغاير بين السّلوكيّات بما هيَ هي؛ لطبيعيّة ذلك في الحركة والوجود، وإنّما بها مضافاً لظرفها الحاصل تقييمه على أساس منطق التّوافق والتّناسق تبعاً للمبرّرات.

وقد ثبت ممّا تقدّم ـ طبقاً لهذه المنهجيّة ـ سقوط ما قد يوجّهه البعض من رؤى سلبيّة لسلوكيّات الأئمّة عليهم أفضل الصّلاة وأتمّ التّسليم ـ وفي المقام الإمام علي بن الحسين ‘ ـ في قراءته الشّكليّة للسّيرة التّجزيئيّة الواحدة من سِيَرهم المباركة، أو لمجموع سِيَرهم وأدوارهم تجاه مختلف الأحداث.

والحمد لله ربِّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّدٍ وآله الميامين.

* * *

الهوامش:

(١) تفسير مجمع البيان، للطّبرسي ره: ج٦ ص٢٣٧.

(٢) تأريخ اليعقوبي، لأحمد بن أبي يعقوب: ج٢ ص٢٥٩، تحقيق عبد الأمير مهنّا.

(٣) القنّ: عبدٌ مُلِك هو وأبواه.

(٤) تأريخ اليعقوبي: ج٢ ص١٦٥.

(٥) المصدر نفسه: ج٢ من ص٢٤١ إلى ص٢٤٥.

(٦) سنسرد لك نصّ الخبر لاحقاً عند بيان الحقيقة الكاملة لسلوك هذه المرحلة والوظائف الأخرى الّتي مارسها الإمام عليه السلام في هذه المرحلة.

(٧) تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر: ج٤١ ص٤٠١.

(٨) المصدر نفسه: ص٤٠٠.

(٩) مجمع البيان، للطّبرسي: في تفسير قوله تعالَى: {أُولَئك الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنهُمْ أَحْسنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سيِّئَاتهِمْ فِي أَصحَبِ الجَنَّةِ وَعْدَ الصّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ}؛ الأحقاف.

(١٠) البحار، للعلامة المجلسي ره: ج٢ باب البداء والنّسخ ص١٣٩.

(١١) راجع تأريخ اليعقوبي، لأحمد بن أبي يعقوب: ج٢ ص٢٠٤.

(١٢) المصدر نفسه: ص٢٨٣.

(١٣) مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب: ج٣ ص٢٩٩ – وكنز العمّال، للمتّقي الهندي: ج٤ ص٢٥٥ – وتاريخ دمشق، لابن عساكر: ج٥٤ ص٣٣٢، وفيه أنَّ عبد الملك كتب إلى محمّد بن الحنفيّة. أقول: وحتّى على رواية ابن عساكر، فإنّه لا يَبْعُد كون المراد هو الإمام زين العابدين عليه السّلام بشكل غير مباشر وإن كان المرسول موجّهاً لمحمد بن الحنفيّة مباشرة؛ لالتصاقه بالإمام عليه السّلام، وكذا لا يبعُد كون الرّد قد صدر من الإمام عليه السلام نفسه وإن كان وفق هذه الرّواية التّأريخيّة جاء من محمّد بن الحنفيّة؛ لنفس العلّة، وهي كون محمّد رضي الله عنه كان ملتصقاً بالإمام عليه السّلام ومن شيعته وأتباعه المقرّبين.

(١٤) تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٢٠٥.

خصائص السفارة الحقّة

دراسة مختصرة في وسيلة الإثبات والسفارات الكاذبة

بقلم: رئيس التحرير

تمهيد:

لا شكّ أَنَّ السفارة ـ التي هي وساطة بين إمام العصر عليه السلام وشيعته ـ تعتبر من المناصب العظيمة التي لا ينالها إِلَّا ذو حظٍ عظيم، ونظراً لعظم هذا المنصب الَّذِي يشغله من تقلّد زمامها فقد اشرأبّت إليها أعناق الكثيرين قديماً وحديثاً، وكثرت الدعاوى الكاذبة لها، وفي الكثير من الأحيان أدّى موقعية بعض من ادّعى السفارة إِلَى انطلاء كذبه واحتياله على الكثير من الناس، كُلّ ذلك استدعى أنْ يقع الاهتمام في خصائص السفارة الحقّة؛ ليكون الناس والموالون في كُلّ عصر ومصر على بيّنةٍ من أمرهم، فلا تنطلي عليهم حيل أرباب الدعاوي والأكاذيب.

السفارة الحقّة ووسيلة الإثبات:

أهمُّ خصوصيةٍ تتمتّع بها السفارة الحقّة هي أَنَّها تُثْبِت ارتباطها بالناحية المقدسة عن طريقٍ صحيحٍ ومعتبر، والأُمور التي يمكن أنْ تقع طريقاً لإثبات السفارة هي:

الطريق الأوّل: الشُّهرة والشياع من دون تكذيبٍ معتدٍّ به.

وهذا طريقٌ عقلائيٌّ صحيح، حيث إِنَّ المجتمعات البشرية قديماً وحديثاً اتخذته وسيلةً لتعيين الوكلاء والمندوبين وما شابه ذلك. والشريعة الإسلامية ليس فقط لم تردع عنه، بل تعاملت معه على أساس أَنَّه وسيلة إثبات صحيحة في كثيرٍ من الموارد، كإثبات الاجتهاد والعدالة والخبرة وما شاكلها.

إِلَّا أَنَّ طريقية هذا الطريق تتوقّف على عدم وجود طريقٍ آخر يكذبه، ويضعّف من قيمته، وهذا يكون في الموارد التالية:

١. أنْ يُشاع بين الناس سفارة شخصٍ بعد ادّعائه لها، ولكن كانت هذه الدعوى في ظرفٍ زمانيٍّ أو مكانيٍّ لا يُتوقّع صدور التعيين من قبل المعصوم عليه السلام فيه. كما يغلب ذلك في زماننا.

٢. أنْ تصدر الدعوى من قبل مدّعيها، ويشتهر ذلك بين الناس، إِلَّا أَنَّه يكون على خلافها شهرة أُخرى تكذبها، وهذا إِنَّما يحصل عادةً في موارد السفارات الكاذبة التي تكون مقتدرة، إمّا لكون السُّلطة الحاكمة مؤيّدة لها، فتبذل المال والقدرة على نشرها بين ضعاف القلوب، وإمّا لكون المدّعي للسفارة نفسه هو صاحب السلطة والجاه.

٣. التكذيب من قبل السّفير المسلّمة سفارته، وهذا قد يكون بطريقةٍ مباشرةٍ، وقد يكون عن طريق الإحراج للمدعي أمام مريديه. ونذكر لذلك نموذجاً حصل في زمن السفير أبي جعفر محمد بن عثمان العمري، فقد نقل الشيخ الطوسي رحمه الله في كتاب الغيبة ما لفظه: «**حكى أبو غالب**

الزراري، قال: حدثني أبو الحسن محمد بن محمد بن يحيى المعاذي، قال: كان رجل من أصحابنا قد انضوى إلى أبي طاهر بن بلال بعد ما وقعت الفرقة، ثمّ إنّه رجع عن ذلك وصار في جملتنا، فسألناه عن السبب، قال: كنت عند أبي طاهر يوماً وعنده أخوه أبو الطيب وابن خزر وجماعة من أصحابه، إذ دخل الغلام، فقال: أبو جعفر العمري على الباب. ففزعت الجماعة لذلك وأنكرته للحال التي كانت جرت، وقال يدخل. فدخل أبو جعفر رضي الله عنه، فقام له أبو طاهر والجماعة، وجلس في صدر المجلس وجلس أبو طاهر كالجالس بين يديه، فأمهلهم إلى أن سكتوا. ثم قال: يا أبا طاهر نشدتك الله أو نشدتك بالله، ألم يأمرك صاحب الزمان عليه السلام بحمل ما عندك من المال إلي؟ فقال: اللهم نعم. فنهض أبو جعفر رضي الله عنه منصرفاً، ووقعت على القوم سكتة، فلما تجلّت عنهم قال له أخوه أبو الطيب: من أين رأيت صاحب الزمان؟ فقال أبو طاهر: أدخلني أبو جعفر رضي الله عنه إلى بعض دوره فأشرف عليّ من علوّ داره، فأمرني بحمل ما عندي من المال إليه. فقال له أبو الطيب: ومن أين علمت أنّه صاحب الزمان عليه السلام؟ قال: وقع عليّ من الهيبة له ودخلني من الرعب منه ما علمت أنّه صاحب الزمان عليه السلام، فكان هذا سبب انقطاعي عنه»[1].

الطريق الثاني: النّصُّ الصحيح من قبل المعصوم عليه السلام

وهذا هو أكثر الطُّرق شياعاً، وبه ثبتت سفارة السُّفراء الأربعة في عصر الغيبة الصُّغرى.

ونكتفي بذكر نموذج واحدٍ على ذلك:

جاء في البحار للعلامة المجلسي رحمه الله: «**عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الشِّيعَةِ ... فِي خَبَرٍ طَوِيلٍ مَشْهُورٍ قَالُوا جَمِيعاً: اجْتَمَعْنَا إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ ' نَسْأَلُهُ عَنِ**

الْحُجَّةِ مِنْ بَعْدِهِ، وَفِي مَجْلِسِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، فَقَامَ إِلَيْهِ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ عَمْرٍو الْعَمْرِيُّ، فَقَالَ لَهُ يَا ابْنَ رَسُولِ الله أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ أَمْرٍ أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ يَا عُثْمَانُ، فَقَامَ مُغْضَباً لِيَخْرُجَ، فَقَالَ: لَا يَخْرُجَنَّ أَحَدٌ. فَلَمْ يَخْرُجْ مِنَّا أَحَدٌ إِلَى أَنْ كَانَ بَعْدَ سَاعَةٍ فَصَاحَ عليه السلام بِعُثْمَانَ، فَقَامَ عَلَى قَدَمَيْهِ، فَقَالَ: أُخْبِرُكُمْ بِمَا جِئْتُمْ؟ قَالُوا نَعَمْ يَا ابْنَ رَسُولِ الله، قَالَ: جِئْتُمْ تَسْأَلُونِّي عَنِ الْحُجَّةِ مِنْ بَعْدِي. قَالُوا: نَعَمْ، فَإِذَا غُلَامٌ كَأَنَّهُ قِطَعُ قَمَرٍ أَشْبَهُ النَّاسِ بِأَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام، فَقَالَ: هَذَا إِمَامُكُمْ مِنْ بَعْدِي وَخَلِيفَتِي عَلَيْكُمْ أَطِيعُوهُ وَلَا تَتَفَرَّقُوا مِنْ بَعْدِي فَتَهْلِكُوا فِي أَدْيَانِكُمْ، أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَرَوْنَهُ مِنْ بَعْدِ يَوْمِكُمْ هَذَا حَتَّى يَتِمَّ لَهُ عُمُرٌ، فَاقْبَلُوا مِنْ عُثْمَانَ مَا يَقُولُهُ وَانْتَهُوا إِلَى أَمْرِهِ وَاقْبَلُوا قَوْلَهُ، فَهُوَ خَلِيفَةُ إِمَامِكُمْ وَالْأَمْرُ إِلَيْهِ»[٢].

وإنّما قيّدنا هذا الطريق بكونه صحيحاً لأجل أَنَّه قد يضع بعض الرُّواة المعروفين بالكذب والوضع بعض النُّصوص لصالحهم أو لصالح غيرهم مِمّن يرجع إليهم نفع تصدّيه لهذا المنصب العظيم، فلا يكون هذا الطريق حينئذٍ مفيداً ونافعاً لإثبات السفارة.

الطريق الثالث: ظهور الكرامات والأُمور الخارقة للعادة من قبل مدّعي السّفارة.

وهذا الطّريق قد يكون سيفاً ذا حدّين، فإنّه على الرغم من كونه طريقاً صحيحاً لإثبات السفارة، كيف والذي هو أعلى مقاماً من السّفارة كالنّبوة والإمامة يثبت بالمعجزة التي هي متحدة مع الكرامة مضموناً، غاية الأمر المعجزة اختصّ إطلاقها عند علماء الكلام بما يتحقّق على يدي مدّعي النّبوة، بينما الكرامة هي ما يصدر مِمّا دون هذا المقام[٣]. أو أَنَّ المعجزة أضيق دائرةً من الكرامة؛ لأنّ المعجزة يشترط فيها أن تكون في مقام التحدي لمن يكذبه، وليس كذلك الكرامة[٤].

على الرغم من كُلِّ ذلك، إِلَّا أَنَّ بعض مَنْ اتّخذ الدجل والتمويه على أصحاب القلوب الضعيفة صنعةً له، قد يستغلّ هذا الطريق، ويستفيد منه في بعض شعوذاته التي قد تنطلي على من ليس له حظٌ من الحكمة والمعرفة.

ولذا كان لزاماً علينا أنْ نذكر بعض المعرّفات للكرامة حتى لا تتشابه مع غيرها، وبعد التتبع في النُّصوص يخلص الباحث إِلَى أَنَّ الكرامة تتصف بجملة من الخصائص:

منها: أَنَّ الكرامة عادةً تكون معتضدة بطريق آخر، كالنصّ من قبل المعصوم عليه السلام.

ومنها: أَنَّها عادة لا تكون لأجل إثبات السفارة لعموم الناس، بل إِنَّ السفارة بعد ثبوتها قد يتّفق أنْ ينكرها البعض، فاللطف الإلهي ـ حينئذ ـ يقتضي دعم ذلك السفير بكرامةٍ أو أكثر لتثبيته. ومن ذلك ما رواه الشَّيْخ الطوسي رحمه الله: من أَنَّ محمد بن الفضل الموصلي كان رجلاً شيعياً غير أنّه ينكر وكالة أبي القاسم بن روح رضي الله عنه، ويقول إِنَّ هذه الأموال تخرج في غير حقوقها. فلم يثبّته على عقيدته بسفارته إِلَّا بعد أنْ ظهر له كرامة علي يده، بعد أن كتب له مسائل على ورقةٍ بقلم من دون مداد، فأجاب عنها السّفير مطابقاً لما كتبه من أسئلة(٥).

أهمية البحث عن السفارات الكاذبة:

قديماً قيل: إِنَّ الأمور تُعرف بأضدادها؛ وليس ذلك إِلَّا لأنّ الشيئين المتنافرين والمتضادين في العادة تتضارب صفاتهما وخصائصهما، فيستطيع المراقب من خلال مطالعته لصفات وخصائص أحدهما أنْ ينفي الآخر، وهكذا من الجهة المقابلة.

ومن هذا المنطلق يكون استرجاع التاريخ ودراسة النماذج المختلفة لمن ادّعى السفارة كذباً وزوراً، وتحليل نفسياتهم، وبيان خصائصهم مفيداً لنا للتعامل مع مَنْ يدّعي السفارة أو شيئاً من شؤونها في عصرنا الحاضر.

وسوف أدرس في هذا المقال أربعة نماذج، من خلالها نستطيع أن نُسلّط الضوء على خصائص مشتركة بينها:

١) الحسن، أبو محمّد الشريعي:

قال الشَّيْخ الطوسي رحمه الله في كتاب الغيبة: «**أخبرنا جماعة، عن أبي محمد التلعكبري، عن أبي علي محمد بن همام، قال: كان الشريعي يكنى بأبي محمد، قال هارون: وأظن اسمه كان الحسن، وكان من أصحاب أبي الحسن علي بن محمد ثم الحسن بن علي بعده ‘ ، وهو أوّل من ادّعى مقاماً لم يجعله الله فيه، ولم يكن أهلاً له، وكذب على الله وعلى حججه ^ ، ونسب إليهم ما لا يليق بهم، وما هم منه براء، فلعنته الشيعة وتبرأت منه، وخرج توقيع الإمام عليه السلام بلعنه والبراءة منه. قال هارون: ثم ظهر منه القول بالكفر والإلحاد**»[٦].

٢) محمد بن نصير النميري:

في الكتاب المتقدّم الذكر قال: «**قال ابن نوح: أخبرنا أبو نصر هبة الله بن محمد قال: كان محمد بن نصير النميري من أصحاب أبي محمد الحسن بن علي ‘ ، فلما توفي أبو محمد ادّعى مقام أبي جعفر محمد بن عثمان أنّه صاحب إمام الزّمان وادّعى البابية، وفضحه الله تعالى بما ظهر منه من الإلحاد والجهل، ولعن أبي جعفر محمد بن عثمان له، وتبريه منه، واحتجابه عنه، وادّعى ذلك الأمر بعد الشريعي**»[٧].

وفيه أيضاً: «**قال أبو طالب الأنباري: لما ظهر محمد بن نصير بما ظهر لعنه أبو جعفر رضي الله عنه وتبرأ منه، فبلغه ذلك، فقصد أبا جعفر رضي الله عنه ليعطف بقلبه عليه أو يعتذر إليه، فلم يأذن له وحجبه وردّه خائباً**».

وفيه أيضاً: «وقال سعد بن عبد الله: كان محمد بن نصير النميري يدّعي أنّه رسول نبي، وأنّ علي بن محمدعليه السلام أرسله، وكان يقول بالتناسخ ويغلو في أبي الحسنعليه السلام، ويقول فيه بالربوبية، ويقول بالإباحة للمحارم...»[٨].

٣) أحمد بن هلال الكرخي:

في كتاب الغيبة: «قال أبو علي بن همام: كان أحمد بن هلال من أصحاب أبي محمدعليه السلام ، فاجتمعت الشيعة على وكالة محمد بن عثمان رضي الله عنه بنصّ الحسنعليه السلام في حياته، ولما مضى الحسنعليه السلام قالت الشيعة الجماعة له: ألا تقبل أمر أبي جعفر محمد بن عثمان وترجع إليه وقد نص عليه الإمام المفترض الطاعة؟ فقال لهم: لم أسمعه ينصّ عليه بالوكالة، وليس أنكر أباه ـ يعني عثمان بن سعيد ـ فأمّا أن أقطع أنَّ أبا جعفر وكيل صاحب الزمان فلا أجسر عليه فقالوا: قد سمعه غيرك، فقال: أنتم وما سمعتم، ووقف على أبي جعفر، فلعنوه وتبرؤا منه. ثم ظهر التوقيع على يد أبي القاسم بن روح بلعنه والبراءة منه في جملة من لعن»[٩].

٤) أبو دلف الكاتب:

ورد في كتاب الغيبة: «أخبرني الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان، عن أبي الحسن علي بن بلال المهلبي قال: سمعت أبا القاسم جعفر بن محمد بن قولويه يقول: أمّا أبو دلف الكاتب ـ لا حاطه الله ـ فكنّا نعرفه ملحداً ثم أظهر الغلو، ثم جنّ وسلسل، ثمّ صار مفوضاً وما عرفناه قط إذا حضر في مشهد إلا استخف به، ولا عرفته الشيعة إلا مدّة يسيرة، والجماعة تتبرأ منه وممن يومي إليه وينمس به»[١٠].

الخصائص المشتركة لأدعياء السفارة كذباً:

بالتأمُّل في النُّصوص المتقدّمة حول النماذج الأربعة نستنتج صنفين من الخصائص المشتركة، أحدهما يرجع إِلَى الأدعياء أنفسهم، والآخر يرجع إِلَى معاملة الآخرين معهم.

أمّا الصّنف الأوّل، فيشتمل على الخصائص التالية:

١) عدم الثبات على موقف واحد:

وهذه خصيصة نفسانية، تنشأ عن عُقدٍ أفرزتها تربية فاسدة، أو معاملة غير مناسبة، وما شابه ذلك. وقد لاحظنا هذه الخصيصة في الشريعي؛ حيث كان في بداية أمره متّبعاً للحقّ، ثُمّ ادّعى مقام السفارة، وكان آخر أمره أنْ ظهر منه الكفر والإلحاد.

وقد برز هذا الأمر بوضوح في النُّميري أيضاً؛ حيث تغيّر من حالٍ إِلَى حالٍ بطريقةٍ فاضحة جداً.

وتغيّرت حال أبي دلف من الإلحاد إِلَى الغلوّ، مروراً بالجنون، وانتهاءاً بالتفويض.

٢) دناءة النفس:

وهذه الخصيصة بارزة في شخصية النُّميري، كما يدلُّ على ذلك استعطافه لأبي جعفر رضي الله عنه. كما أنَّ اشتراكهم في اتّخاذ الكذب وسيلةً للوصول إِلَى مقاصدهم من أبرز معالم دنوّ نفسهم وحقارتها.

٣) الجهل وعدم المعرفة:

وهذه الصّفة وإنْ ذكرتها كآخر صفةٍ من صفاتهم، إِلَّا أنَّها أساس كلّ الصفات الرذيلة فيهم، ففي الخبر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**الجهل أصل كُلّ شرٍّ**»[١١]. وعنه أيضاً: «**الجهل أدوأ الدّاء**»[١٢]، و «**الجهل فساد كُلّ أمر**»[١٣].

وأمّا الصنف الثاني الراجع إِلَى معاملة الآخرين معهم، فيظهر من خلال النُّقطتين:

الأُولى: الاجتماع على لعنهم والبراءة منهم، وهذا يدلّ على أنّ ما يدّعيه مثل هؤلاء الأشخاص، وما يقومون به، مخالفٌ للديدن العام الَّذِي عليه الطائفة خواصّ وعوامّ. وما أشدّ الشبه بين أدعياء اليوم ـ الَّذِين تغذيهم أروقة المخابرات العالمية وتصنعهم؛ لإيجاد التشويش في عقائد الناس، وجعلهم يبتعدون شيئاً فشيئاً عن الدين والمتدينين ـ وأدعياء الأمس، فاحذروا ـ إخوتي ـ منهم كلّ الحذر، واجتمعوا على لعنهم، والبراءة منهم، والتشهير بهم؛ لكي يعرفهم الناس فيبتعدوا عن الانخداع بترّهاتهم.

الثانية: عدم المجاملة معهم؛ لأنّهم من أخطر ما يكون على الأُمّة، فإنْ جاملناهم ـ خصوصاً إنْ كانت المجاملة صادرة من النُّخب في المجتمع الإسلامي ـ فسوف ينخدع بهم ضعاف العقول، فيتجمهرون حولهم، ويصبح لهم الأتباع، فتقوى شوكتهم، ويصعب القضاء عليهم. وعلى النُّخب أنْ يتأسُّوا بأبي جعفر محمد بن عثمان، في احتجابه عن النُّميري، وردّه خائباً، وعدم الإذن له بالدخول عليه.

وليس ذلك إِلّا لأنّ العامّة تتأثّر بالنّخب، فإنْ جاملت أمثال هؤلاء، فإنّ العامّة سوف تظنّ من خلال ذلك أنّهم مرضيّون، فيتبعونهم ويسيرون خلفهم.

ويذكرني هذا الأمر بما قاله الإمام السجاد عليه السلام للعالم الزُّهري الَّذِي كان يتردّد على بني أُمية: «**ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم**»[١٤].

هذا، والحمد لله أوّلاً وآخراً...

* * *

الهوامش:

(١) الشَّيْخ الطوسي، محمد بن الحسن، الغيبة: ٤٠٠، تحقيق: الشَّيْخ عباد الله الطهراني والشَّيْخ علي أحمد ناصح، الطبعة الأُولى ١٤١١هـ، نشر: مؤسسة المعارف الإسلامية، قم المقدسة.

(٢) العلامة المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار ٥١: ٣٤٦، تحقيق: محمد باقر البهبودي، الطبعة الأُولى ١٤٠٣، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) انظر: الماحوزي البحراني، سليمان بن عبد الله، الأربعون حديثاً: ٤١٣، تحقيق: السَّيِّد مهدي الرجائي، الطبعة الأُولى ١٤١٧، مطبعة أمير، قم.

(٤) ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين، فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٦: ٤٢٤، نشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

(٥) راجع: غيبة الشَّيْخ الطوسي: ٣١٥، مرجعٌ سابق.

(٦) الشَّيْخ الطوسي، محمد بن الحسن، الغيبة: ٣٩٧، مصدر سابق.

(٧) المصدر نفسه: ٣٨٩.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) المصدر نفسه: ٣٩٩.

(١٠) المصدر نفسه: ٤١٢.

(١١) غرر الحكم ودرر الكلم: الحديث: ٩٣٠، مرجعٌ سابق.

(١٢) المصدر نفسه: الحديث: ٨٢٠.

(١٣) اللَّيثي الواسطي، علي بن مُحَمَّد، عيون الحكم والمواعظ: ٣١، تحقيق: الشَّيْخ حسين الحسني البيرجندي، نشر: دار الحديث ١٣٧٦هـ.ش.

(١٤) الحراني، ابن شعبة، تحف العقول عن آل الرسول ' : ٢١٩، تصحيح وتعليق: علي أكبر غفاري، نشر: مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

قسيمة الاشتراك

رسالة الثقلين

مجلة اسلامية جامعة

البلد الاشتراك

الإرسال السنوي / لمدة ٦ أشهر

□ الجمهورية الإسلامية في إيران

(بالريال) ٦٠٠٠٠ ٣٠٠٠٠

□ باقي دول العالم بالدولار الأمريكي

٢٠ ١٠ (أو ما يعادلها)

الاسم : .....

العنوان : .....

.....

المدينة : .....

البلد : .....

المهنة : .....

مدة الاشتراك : .....

ابتداءً من : .....

.....

عدد النسخ : .....

برافق اشتراكي: □صك □صك بريدي □حوالة بريدية

أرسل هذه القسيمة مع قيمة الإشتراك باسم «رسالة الثقلين» إلى العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران. قم. ص . ب ٨٩٤ ـ ٣٧١٨٥

.....

الاشتراكات:

▣ **داخل الجمهورية الإسلامية في إيران: تسدّد قيمة الاشتراك السنوي (٦٠٠٠٠ ريال) بحوالة مصرفية على العنوان التالي:**

الجمهورية الإسلامية في إيران ـ قم ـ بانك تجارت / شعبة سميّة، شارع سميّة ـ رقم الحساب الجاري: ٤٦٣٥٤ ـ ١٥١٢٠ (بالريال)، المعاونية الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام.

▣ **خارج الجمهورية الإسلامية في إيران: قم ـ بانك ملي (شعبه مركزي قم) رقم الحساب: ٢٠٠٦٥ ـ ٢٧٠١ (بالدولار).**

ثمن النسخة:

▣ **الجمهورية الإسلامية في إيران ١٥٠٠٠ ريال.**

▣ **وفي باقي دول العالم 5 دولارات أمريكية أو ما يعادلها**

The ahl – ul Bayt (a)
World Assembly

RISALATUTH - THAQALAYN

A General Islamic Periodical

Vol . 18, No . 72, Winter 2012